الجامع لأحكام القرآن

(تفسير القرطبي)

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجامع لأحكام القرآن

(تفسير القرطبي)

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

تحقيق

عبد الرزاق المهدي

الجزء السابع عشر

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

ISBN: 9953-27-020-1

الطبعَة الرَابعَة

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

ISBN 9953-27-020-1
9 789953 270203

دار الكتاب العربي

بيروت ـ شارع فردان ـ بناية بنك بيبلوس ـ الطابق الثامن ـ تلفون: 861178 - 800832 - 800811
فاكس: 961-1-805478 ـ ص.ب.: 11-5769 بيروت ـ لبنان ـ بريد إلكتروني: academia@dm.net.lb

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة قٓ

مكية كلها، وهي خمس وأربعون آية

مكية كلها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ وفي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت:

[٥٦٢٤] لقد كان تنُّورنا[1] وتنُّور رسول الله ﷺ واحداً سنتين ـ أو سنة وبعض سنةٍ ـ وما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ؛ يقرؤها كل يومِ جمعة على المنبر إذا خطب الناس. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

[٥٦٢٥] سأل أبا واقدٍ الليثيّ ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ و ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾. وعن جابر بن سمرة:

[٥٦٢٦] أن النبيّ ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ وكانت صلاته بعدُ تخفيفاً.

قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ قرأ العامة «قاف» بالجزم. وقرأ الحسن

[٥٦٢٤] صحيح. أخرجه مسلم ٨٧٣ ح٥٢ من حديث أم هشام الأنصارية.

[٥٦٢٥] صحيح. أخرجه مالك ١/ ١٨٠ ومسلم ٨٩١ وأحمد ٥/ ٢١٧ وأبو داود ١١٥٤ والترمذي ٥٣٤ والنسائي ٣/ ١٨٣ وابن ماجه ١٢٨٢ وابن حبان ٢٨٢٠ من حديث أبي واقد الليثي.

[٥٦٢٦] صحيح أخرجه مسلم ٤٥٨ وابن أبي شيبة ١/ ٣٥٣ وأحمد ٥/ ٩١ وابن حبان ١٨١٦ والطبراني في الكبير ١٩٢٩ من حديث جابر بن سمرة.

---

(١) إشارة إلى قرب بيتها من بيوت رسول الله ﷺ.

وٱبن أبي إسحق ونصر بن عاصم «قافِ» بكسر الفاء؛ لأن الكسر أخو الجزم، فلما سكن آخره حرّكوه بحركة الخفض. وقرأ عيسى الثقفيّ بفتح الفاء حرّكه إلى أخف الحركات. وقرأ هارون ومحمد بن السَّمَيْقَع «قافُ» بالضم؛ لأنه في غالب الأمر حركة البناء نحو منذُ وقطُّ وقبلُ وبعدُ. وٱختلف في معنى «قٓ» ما هو؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء ٱخضرت السماء منه، وعليه طَرَفَا السماءِ والسماء عليه مَقْبِيَّةٌ، وما أصاب الناسُ من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل. ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس. قال الفرّاء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في ﴿قٓ﴾؛ لأنه ٱسم وليس بهجاء. قال: ولعل القاف وحدها ذكرت من ٱسمه؛ كقول القائل:

قلتُ لها قِفِي فقالتْ قافْ

أي أنا واقفة. وهذا وجه حسن وقد تقدّم أوّل «البقرة». وقال وهب[1]: أشرف ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف؛ قال: فما هذه الجبال حولك؟ قال: هي عروقي وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرني فحركت عرقي ذلك فتزلزلت تلك الأرض؛ فقال له: يا قاف أخبرني بشيء من عظمة الله؛ قال: إن شأن ربّنا لعظيمٌ، وإن ورائي أرضاً مسيرة خمسمائة عام في خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضا، لولا هي لاحترقت من حرّ جهنم. فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها؛ وأين هي من الأرض. قال: زدني، قال: إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تُرْعَد فرائصُه، يخلق الله من كل رعدة مائة ألف ملك، فأولئك الملائكة وقوف بين يدي الله تعالى منكسو رؤوسهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا الله؛ وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ يعني قول: لا إله إلا الله. وقال الزجاج: قوله ﴿قٓ﴾ أي قُضِيَ الأمر، كما قيل في ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ أي حُمَّ الأمرُ. وقال ٱبن عباس: ﴿قٓ﴾ ٱسم من أسماء الله تعالى أقسم به. وعنه أيضاً: أنه ٱسم من أسماء القرآن. وهو قول قتادة. وقال القُرظيّ: ٱفتتاح أسماء الله تعالى قدير وقاهر وقريب وقاضٍ وقابض. وقال الشَّعبيّ: فاتحة السورة. وقال أبو بكر الورّاق: معناه قِف عند أمرنا ونهينا ولا تَعْدُهما. وقال محمد بن عاصم الأنطاكيّ: هو قرب الله من عباده، بيانه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ وقال ٱبن عطاء: أقسم الله بقوّة لقلب حبيبه محمد ﷺ، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾

(١) خبر وهب بن منبه باطل لا أصل له إنما هو من مجازفات بني إسرائيل لاحجة فيه البتة.

أي الرفيع القدر. وقيل: الكريم؛ قاله الحسن. وقيل: الكثير؛ مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد، من قولهم: كثير فلان في النفوس؛ ومنه قول العرب في المثل السائر: (في كل شجرٍ نارٌ، وٱسْتَمجدَ المَرْخُ والعَفَارُ)[1]. أي ٱستكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر؛ قاله ابن بحر. وجواب القسم قيل هو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ على إرادة اللام؛ أي لقد علمنا. وقيل: هو ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ وهو ٱختيار الترمذيّ محمد بن عليّ[2] قال: ﴿قٓ﴾ قسم باسم هو أعظم الأسماء التي خرجت إلى العباد وهو القدرة، وأقسم أيضاً بالقرآن المجيد، ثم ٱقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد، وخلق الآدميين، وصفة يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال: ﴿قٓ﴾ أي بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما ٱقتصصت في هذه السورة ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ وقال ابن كيسان: جوابه ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾. وقال أهل الكوفة: جواب هذا القسم ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ وقال الأخفش: جوابه محذوف كأنه قال: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ لتبعثن؛ يدل عليه ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ «أَنْ» في موضع نصب على تقدير لأن جاءهم منذر منهم، يعني محمداً ﷺ، والضمير للكفّار. وقيل: للمؤمنين والكفار جميعاً. ثم ميّز بينهم بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولم يقل فقالوا، بل قبح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر، كما تقول: جاءني فلان فأسمعني المكروه، وقال لي الفاسق أنت كذا وكذا. ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ العجيب الأمر الذي يتعجب منه، وكذلك العُجَاب بالضم، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه، وكذلك الأعجوبة. وقال قتادة: عجبهم أن دُعوا إلى إلٰه واحد. وقيل: من إنذارهم بالبعث والنشور. والذي نص عليه القرآن أولى.

قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نبعث؛ ففيه إضمار. ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ الرجع الردّ أي هو ردّ بعيد أي محال. يقال: رَجَعْته أَرْجعه رَجْعاً، ورَجَع هو يَرجِعُ رُجوعاً، وفيه إضمار آخر؛ أي وقالوا أنبعث إذا متنا. وذكر البعث وإن لم يجر هاهنا فقد جرى في مواضع، والقرآن كالسورة الواحدة. وأيضاً ذكر البعث منطوٍ تحت قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب في الآخرة.

---

(١) المرخ والعفار: شجرتان فيهما نار دون غيرهما من الشجر.

(٢) هو صاحب نوادر الأصول وهو غير الترمذي صاحب السنن.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء حتى تتعذر علينا الإعادة. وفي التنزيل: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢] وفي الصحيح:

[٥٦٢٧] «كل ابنِ آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنَبِ منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ» وقد تقدّم. وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرضُ أجسادهم؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم. وقد بينا هذا في كتاب «التذكرة» وتقدّم أيضاً في هذا الكتاب. وقال السدي: النقص هنا الموت يقول قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى؛ لأن من مات دُفِن فكأنّ الأرض تَنقصُ من الناس. وعن ابن عباس: هو من يدخل في الإسلام من المشركين. ﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ (٤)﴾ أي بعدّتهم وأسمائهم فهو فعيل بمعنى فاعل. وقيل: اللوح المحفوظ أي محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شيء. وقيل: الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء؛ كما تقول: كتبت عليك هذا أي حفظته؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة. وقيل: أي وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بني آدم لنحاسبهم عليها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن في قول الجميع؛ حكاه الماورديّ. وقال الثعلبي: بالحق القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: محمد ﷺ. ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥)﴾ أي مختلط. يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن؛ قاله الضحاك وابن زيد. وقال قتادة: مختلِف. الحسن: ملتبِس؛ والمعنى متقارب. وقال أبو هريرة: فاسد، ومنه مَرِجت أمانات الناس أي فسدت؛ ومَرِجَ الدينُ والأمرُ اختلط؛ قال أبو دؤاد:

مَــرِجَ الــدِّيــنُ فَــأَعْــدَدْتُ لَــهُ ... مُشْـرِفَ الْحَـارِكِ مَحْبُـوكَ الْكَتَـدْ[1]

وقال ابن عباس: المريج الأمر المنكر. وقال عنه عمران بن أبي عطاء: «مريج» مختلط. وأنشد[2]:

فجَـالَـتْ فـالتمسـتُ بـه حَشَـاهَـا ... فخَـرَّ كـأنـه خُـوطٌ مَـرِيـجُ

الخُوطُ الغصن. وقال عنه العوفيّ: في أمر ضلالة وهو قولهم ساحر شاعر مجنون كاهن. وقيل: متغير. وأصل المَرَج الاضطراب والقلق؛ يقال: مَرِجَ أمرُ الناس ومَرِج أمرُ الدِّين ومرِج الخاتم في إصبعي إذا قَلِق من الهزال. وفي الحديث:

[٥٦٢٧] صحيح. أخرجه البخاري ٤٨١٤ ومسلم ٢٩٥٥ ومالك ١/ ٢٣٩ وأحمد ٢/ ٤٩٩ وأبو دود ٤٧٤٣ والنسائي ٤/ ١١١ من حديث أبي هريرة.

---

(١) الحارك: الكاهل. والكتد: مجمع الكتفين.

(٢) البيت للداخل الهذلي.

[٥٦٢٨] «كيف بك يا عبد الله إذا كنت في قوم قد مَرِجت عهودهم وأماناتهُم وٱختلفوا فكانوا هكذا وهكذا» وشبك بين أصابعه. أخرجه أبو داود وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة».

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ نظر ٱعتبار وتفكر، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ فرفعناها بلا عمد ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ جمع فرج وهو الشق؛ ومنه قول ٱمرىء القيس:

تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرْ

وقال الكسائي: ليس فيها تفاوت ولا ٱختلاف ولا فتوق. ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ تقدّم في «الرعد» بيانه. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي من كل نوع من النبات ﴿بَهِيجٍ ۝٧﴾ أي حسن يسر الناظرين؛ وقد تقدّم في «الحج» بيانه. ﴿تَبْصِرَةً﴾ أي جعلنا ذلك تبصرة لندلَّ به على كمال قدرتنا. وقال أبو حاتم: نصب على المصدر؛ يعني جعلنا ذلك تبصيراً وتنبيهاً على قدرتنا ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ معطوف عليه. ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ راجع إلى الله تعالى مفكر في قدرته.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من السحاب ﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي كثير البركة. ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ التقدير: وحبّ النبت الحصيد وهو كل ما يحصد. هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال: مسجد الجامِع وربيعُ الأوّلِ وحقُّ اليقينِ وحبل الورِيدِ ونحوها؛ قاله الفرّاء. والأصل الحبّ الحصيد فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت. وقال الضحاك: حبّ الحصيد البُرُّ والشَّعيرُ. وقيل: كلّ حبٍّ يُحْصد ويُدّخر ويُقْتات. ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ نصب على الحال ردًّا على قوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ و﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ حال. والباسقات الطوال؛ قاله مجاهد وعكرمة. وقال قتادة وعبد الله بن شدّاد: بُسُوقها ٱستقامتها في

[٥٦٢٨] صحيح. أخرجه أبو داود ٤٣٤٢ و٤٣٤٣ وابن ماجه ٣٩٥٧ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو حديث صحيح، وقد تقدم. وانظر جامع الأصول ٧٤٥٦.

الطول. وقال سعيد بن جبير: مستويات. وقال الحسن وعكرمة أيضاً والفرّاء: مواقير حوامل؛ يقال للشاة بسَقت إذا ولدت، قال الشاعر:

فَلَمَّا تَركْنا الدارَ ظَلَّتْ مُنِيفَةً ... بِقُرّانَ فيه الباسقاتُ المواقِرُ

والأوّل في اللغة أكثر وأشهر؛ [يقال] بَسَقَ النخلُ بُسوقاً إذا طال. قال:

لنا خمرٌ وليست خمر كَرْمٍ ... ولكنْ مِن نِتاجِ الباسِقاتِ

كِرامٌ في السماءِ ذَهَبْنَ طولاً ... وفاتَ ثِمارُها أيدي الجُنَاةِ

ويقال: بسق فلان على أصحابه أي علاهم، وأبسقت الناقةُ إذا وقع في ضرعها اللبن قبل النِّتاج فهي مُبْسِق ونُوقٌ مَبَاسِيق. وقال قطبة بن مالك: سمعت النبيّ ﷺ يقرأ «بَاصِقَاتٍ» بالصاد[1]؛ ذكره الثعلبي.

قلت: الذي في صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال:

[٥٦٢٩] صلّيت وصلّى بنا رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ حتى قرأ ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ قال فجعلت أردّدها ولا أدري ما قال، إلا أنه لا يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف. ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ الطلع هو أوّلُ ما يخرج من ثمر النخل؛ يقال: طَلَعَ الطلعُ طُلوعاً وأطلعت النخلةُ، وطَلْعها كُفُرّاها قبل أن ينشق. «نضِيدٌ» أي متراكب قد نُضِّد بعضُه على بعض. وفي البخاري: «النَّضِيدُ» الكُفُرّى مادام في أكمامه ومعناه منضود بعضه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد. ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي رزقناهم رزقاً، أو على معنى أنبتناها رزقاً؛ لأن الإنبات في معنى الرزق، أو على أنه مفعول له أي أنبتناها لرزقهم، والرزق ما كان مهيأ للانتفاع به. وقد تقدم القول فيه. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ أي من القبور أي كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم؛ فالكاف في محل رفع على الابتداء. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع. وقال «مَيْتاً» لأن المقصود المكان ولو قال ميتة لجاز.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾.

[٥٦٢٩] صحيح. أخرجه مسلم ٤٥٧ والترمذي ٣٠٦ والنسائي ٢/ ١٥٧ من حديث قطبة بن مالك.

---

(١) تفرد به الثعلبي ولا حجة فيما يرويه فإنه كحاطب ليل كما قال الحافظ ابن تيمية وغيره، وما بعده هو الصحيح.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب؛ ذكّرهم نبأ من كان قبلهم من المكذّبين وخوّفهم ما أخذهم. وقد ذكرنا قصصهم في غير موضع عند ذكرهم. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ من هذه الأمم المكذبة. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي فحق عليهم وعيدي وعقابي.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي أفعيينا به فنعيا بالبعث. وهذا توبيخ لمنكري البعث وجواب قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ يقال: عَيِيت بالأمر إذا لم تعرف وجهه. ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ أي في حَيْرَة من البعث منهم مصدِّق ومنهم مكذِّب؛ يقال: لَبَس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْساً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني الناس، وقيل آدم. ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي ما يختلج في سرّه وقلبه وضميره، وفي هذا زجر عن المعاصي التي يستخفي بها. ومن قال: إن المراد بالإنسان آدم؛ فالذي وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة، ثم هو عام لولده. والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفيّ. قال الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاساً إذا ٱنْصَرَفَتْ كما ٱستعان بريح عِشْرِقٌ زجِلُ[1]

وقد مضى في «الأعراف». ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ هو حبل العاتق وهو ممتدّ من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمين وشمال. روي معناه عن ٱبن عباس وغيره وهو المعروف في اللغة. والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين. وقال الحسن: الوريد الوتين وهو عِرق معلَّق بالقلب. وهذا تمثيل للقرب؛ أي نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة. وقيل أي ونحن أملك به من حبل وريده مع ٱستيلائه عليه. وقيل: أي ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه، لأنه عِرق يخالط القلب، فعلم الربِّ أقربُ إليه من علم القلب، روي معناه عن مقاتل قال: الوريد عرق يخالط القلب، وهذا القرب قرب العلم والقدرة، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ولا يحجب علم الله شيء.

---

(١) العِشْرق: شجر عريض الورق وليس له شوك، وثمرته قشرة فإذا هبت الريح فلقت القشرة فيسمع للوادي صوتاً تفزع منه الإبل.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ أي نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكلان به، أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملَك يخبر، ولكنهما وكِّلا به إلزاماً للحجة، وتوكيداً للأمر عليه. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ ملَكان يتلقيان عملك: أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. قال الحسن: حتى إذا متّ طُويت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ عَدَلَ والله عليك من جعلك حسيبَ نفسك. وقال مجاهد: وكَّل الله بالإنسان مع علمه بأحواله مَلَكين بالليل ومَلَكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة: أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ وقال سفيان: بلغني أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب [العبد] قال لا تعجل لعلّه يستغفر الله. وروي معناه من حديث أبي أمامة؛ قال:

[٥٦٣٠] قال النبي ﷺ: «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عَمِلَ حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عَمِل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر». وروي من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

[٥٦٣١] «إن مقعدَ مَلَكيك على ثَنِيّتك لسانُك قلمهما ورِيقُك مِدَادُهما وأنت تجري فيما لا يعنيك فلا تستحي من الله ولا منهما». وقال الضحاك: مجلسهما تحت الثغر على الحنك. ورواه عوف عن الحسن قال: وكان الحسن يعجبه أن ينظف عَنْفَقته. وإنما قال: «قَعِيدٌ» ولم يقل قعيدان وهما اثنان؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. قاله سيبويه؛ ومنه قول الشاعر[1]:

نَحْـنُ بمـا عِنـدنـا وأنـتَ بمـا ... عنـدَكَ راضٍ والـرّأيُ مُخْتَلِـفُ

[٥٦٣٠] أخرجه البغوي في «تفسيره» ٤/٢٠١ والطبراني كما في المجمع ١٠/٢٠٨ من حديث أبي أمامة، وقال الهيثمي: فيه جعفر بن الزبير وهو كذاب. لكن ورد من وجه آخر رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدها وُثقوا. اهـ.

[٥٦٣١] ضعيف جداً. أخرجه الثعلبي كما في تخريج الكشاف ٤/ ٥٨٤ من حديث علي، وإسناده ضعيف جداً فيه جميل بن الحسن خرجه عبدان ووثقه ابن حبان وفيه أرطاة بن أشعث. قال في الميزان: هالك. وهاه ابن حبان. ثم ذكر الذهبي له خبراً غير هذا وقال: هو المتهم به.

---

(١) هو قيس بن الخطيم.

وقال الفرزدق:

إنِّي ضَمِنتُ لمن أتَانِي ما جَنَى ... وأَبَى فكانَ وكنتُ غيرَ غَدُور

ولم يقل راضيان ولا غدورين. ومذهب المبرِّد: أن الذي في التلاوة أوّلٌ أُخِّرَ أتساعاً، وحذف الثاني لدلالة الأوّل عليه. ومذهب الأخفش والفرّاء: أن الذي في التلاوة يؤدّي عن الاثنين والجمع ولا حذف في الكلام. و«قَعِيدٌ» بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد. وقيل: «قَعِيدٌ» بمعنى مقاعد مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم.

وقال الجوهري: فعيل وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦] وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: ٤] وقال الشاعر في الجمع، أنشده الثعلبي:

أَلِكْنِي[1] إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُو ... لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الخَبَرْ

والمراد بالقعيد هاهنا الملازم الثابت لا ضد القائم.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ أي ما يتكلم بشيء إلا كتب عليه؛ مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم. وفي الرقيب ثلاثة أوجه: أحدها أنه المتبع للأمور. الثاني أنه الحافظ، قاله السدّي. الثالث أنه الشاهد، قاله الضحاك. وفي العتيد وجهان: أحدهما أنه الحاضر الذي لا يغيب. الثاني أنه الحافظ الْمُعَدُّ إما للحفظ وإما للشهادة. قال الجوهري: العتيد الشيء الحاضر المهيأ؛ وقد عَتَّدَه تعتيداً وأَعْتَدَه إعتاداً أي أعدّه ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١] وفرس عَتَدٌ وعَتِدٌ بفتح التاء وكسرها المعَدُّ للجري.

قلت: وكله يرجع إلى معنى الحضور، ومنه قول الشاعر:

لئِن كُنتَ مِنِّي في العِيَان مُغَيَّباً ... فذِكرك عندي في الفؤادِ عَتِيدُ

قال أبو الجوزاء ومجاهد: يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه. وقال عكرمة: لا يكتب إلا ما يؤجر به أو يؤزر عليه. وقيل: يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار محي عنه ما كان مباحاً، نحو انطلِق اقعد كُلْ مما لا يتعلق به أجر ولا وزر، والله أعلم. وروي عن أبي هريرة وأنس أن النبيّ ﷺ قال:

[٥٦٣٢] «ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله في أوّل الصحيفة خيراً

[٥٦٣٢] أخرجه الديلمي ٦١٧٠ وابن عدي ٢/ ٨٤ والبزار كما في المجمع ١٠/ ٢٠٨ من حديث أنس وقال=

(١) أي: أرسلني إليها.

وفي آخرها خيراً إلا قال الله تعالى لملائكته: أشهدوا أني قد غفرت لعبدي ما بين طَرَفي الصحيفة». وقال علي رضي الله عنه: إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا في أوّلها وفي آخرها خيراً يغفر لكم ما بين ذلك. وأخرج أبو نعيم الحافظ قال: حدّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة قال حدّثنا جَدِّي محمد بن إسحق قال حدّثنا محمد بن موسى الحَرَشيّ قال: حدّثنا سهيل بن عبد الله قال: سمعت الأعمش يحدث عن زيد بن وهب عن ٱبن مسعود، قال:

[٥٦٣٣] قال رسول الله ﷺ: «إن الحافظين إذا نزلا على العبد أو الأمة معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظ به العبدُ أو الأمة فإذا أرادا أن ينهضا قال أحدهما للآخر فُكَّ الكتاب المختوم الذي معك فيفكه له فإذا فيه ما كتب سواء فذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ غريب من حديث الأعمش عن زيد، لم يروه عنه إلا سهيل. وروي من حديث أنس أن نبيّ الله ﷺ قال:

[٥٦٣٤] «إن الله وكّل بعبده مَلَكين يكتبان عمله فإذا مات قالا ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى إن سمٰواتي مملوءة من ملائكتي يسبحونني فيقولان ربنا نقيم في الأرض فيقول الله تعالى إن أرضي مملوءة من خلقي يسبحونني فيقولان يا ربّ فأين نكون فيقول الله تعالى كونا على قبر عبدي فكبراني وهللاني وسبحاني وأكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة».

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي غمرته وشدّته؛ فالإنسان مادام حيًّا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده. وقيل: الحقُّ هو الموت سُمِّي حقًّا إما لاستحقاقه وإما لانتقاله إلى دار الحقّ؛ فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره وجاءت سكرة الحق بالموت، وكذلك في قراءة أبي بكر وٱبن مسعود رضي الله عنهما؛ لأن السكرة هي الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين. وقيل: يجوز أن يكون الحق

= الهيثمي: فيه تمام بن نجيح وثقه يحيى وغيره وضعفه البخاري وغيره اهـ قال ابن عدي: عامة ما يرويه لايتابعه عليه الثقات. فالحديث غير قوي.

[٥٦٣٣] أخرجه أبو نعيم في الحلية ٥/ ٥٧ من حديث ابن مسعود وقال: غريب اهـ في إسناده محمد بن الفضل تغير بأخرة. وفيه محمد بن موسى الحرشي صدوق وضعفه أبو داود فالحديث غير قوي.

[٥٦٣٤] ضعيف. أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» والبيهقي في «الشعب» كما في الدر ٦/ ١٢١ من حديث أنس وذكره الذهبي في الميزان في ترجمة هيثم بن جماز وقال: ضعفه يحيى وقال أحمد: تُرك حديثه وقال النسائي: متروك.

على هذه القراءة هو الله تعالى؛ أي جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت. وقيل: الحق هو الموت والمعنى وجاءت سكرة الموت بالموت؛ ذكره المهدوي. وقد زعم من طعن على القرآن فقال: أخالف المصحف كما خالف أبو بكر الصديق فقرأ: وجاءت سكرة الحق بالموت. فاحتج عليه بأن أبا بكر رويت عنه روايتان: إحداهما موافقة للمصحف فعليها العمل، والأخرى مرفوضة تجري مجرى النسيان منه إن كان قالها، أو الغلط من بعض من نَقَلَ الحديث. قال أبو بكر الأنباري: حدّثنا إسماعيل بن إسحق القاضي حدّثنا علي بن عبد الله حدّثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن مسروق قال: لما أحتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة فلما دخلت عليه قالت: هذا كما قال الشاعر:

إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

فقال أبو بكر: هلاَّ قلتِ كما قال الله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ وذكر الحديث. والسَّكرة واحدة السَّكَرات. وفي الصحيح عن عائشة:

[٥٦٣٥] أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه رِكْوة ـ أو عُلْبَة ـ فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بها وجهه ويقول: «لا إلٰه إلا الله إن للموت سكرات» ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده. خرجه البخاري. وروي عن النبي ﷺ أنه قال:

[٥٦٣٦] «إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة». وقال عيسى ابن مريم: يا معشر الحواريين أدعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكْرة. يعني سَكَرات الموت. وروي:

[٥٦٣٧] «إن الموت أشدّ من ضربٍ بالسيوف ونشرٍ بالمناشير وقرضٍ بالمقاريض». ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي يقال لمن جاءته سكرة الموت ذلك ما كنت تفرّ منه وتميل عنه. يقال: حادَ عن الشيء يَحِيدُ حُيوداً وحَيْدَة وحَيْدُودة مال عنه وعدل. وأصله حَيَدودة بتحريك الياء فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فَعْلُول غير صَعْفُوق. وتقول في الأخبار عن

[٥٦٣٥] صحيح. أخرجه البخاري ٦٥١٠ من حديث عائشة وتقدم.

[٥٦٣٦] لم أره مرفوعاً. فالله أعلم.

[٥٦٣٧] ضعيف جداً. أخرجه الخطيب ٣/ ٢٥٢ ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٢٢٠ من حديث أنس وقال: قال الحاكم: محمد بن القاسم يضع الحديث. وكثير. قال عنه النسائي: متروك الحديث. واعترضه السيوطي في اللآلىء ٢/ ٤١٦ بأن الحارث بن أبي أسامة أخرجه من طريق آخر عن عطاء بن يسار مرسلاً اهـ قلت مع إرساله فيه عبد العزيز بن أبي رواد روى مناكير.

نفسك: حِدْتُ عن الشيء أَحِيد حَيْداً ومَحِيداً إذا ملت عنه؛ قال طَرَفَة:

أبـا منـذِرٍ رُمْـتَ الـوفـاءَ فَهِبتَـهُ وحِدْتَ كما حاد البعيرُ عن الدَّحْضِ

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ﴾ هي النفخة الآخرة للبعث ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ﴾ الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه. وقد مضى الكلام في النفخ في الصور مستوفًى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ ﴾ اختلف في السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس: السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدي والأرجل؛ رواه العوفي عن ابن عباس. وقال أبو هريرة: السائق المَلَك والشهيد العمل. وقال الحسن وقتادة: المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها. وقال ابن مسلم؛ السائق قرينها من الشياطين سمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثّها. وقال مجاهد: السائق والشهيد ملَكان. وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ سائق: مَلَك يسوقها إلى أمر الله، وشهيد: يشهد عليها بعملها.

قلت: هذا أصح فإن في حديث جابر بن عبد الله قال:

[٥٦٣٨] سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إلٰه غيره إذا أراد خَلْقه قال للملَك اكتب رزقه وأثره وأجله واكتبه شقيًّا أو سعيداً ثم يرتفع ذلك المَلَك ويبعث الله ملكاً آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا جاءَه الموت ارتفع ذانك الملَكان ثم جاء ملَك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أُدْخِلَ حفرته ردّ الروح في جسده ثم يرتفع ملَك الموت ثم جاءه ملَكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة انحط عليه ملَك الحسنات وملَك السيئات فأنشطا[1] كتاباً معقوداً في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد ثم قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ قال: «حالاً بعد حال» ثم قال النبيّ ﷺ: «إن

[٥٦٣٨] ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٣ فقال: أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت» وابن أبي حاتم وأبو نعيم في «الحلية» من حديث جابر اهـ. وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي ضعيف.

(١) أنشط الكتاب: حل عقدته.

قُدَّامكم أمراً عظيماً فاستعينوا بالله العظيم» خرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمد بن علي عن جابر وقال فيه: هذا حديث غريب من حديث جعفر، وحديث جابر تفرّد به عنه جابر الجُعْفِيّ وعنه المفضّل. ثم في الآية قولان: أحدهما أنها عامة في المسلم والكافر وهو قول الجمهور. الثاني أنها خاصة في الكافر؛ قاله الضحاك.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قال ٱبن زيد: المراد به النبيّ ﷺ؛ أي لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة في قريش في جاهليتهم. وقال ٱبن عباس والضحاك: إن المراد به المشركون أي كانوا في غفلة من عواقب أمورهم. وقال أكثر المفسرين: إن المراد به البر والفاجر. وهو ٱختيار الطبري. وقيل: أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلٰهية. ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ أي عَمَاك؛ وفيه أربعة أوجه: أحدها إذ كان في بطن أمه فولد؛ قاله السدّي. الثاني إذا كان في القبر فنشر. وهذا معنى قول ٱبن عباس. الثالث: وقت العَرْض في القيامة؛ قاله مجاهد. الرابع أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة. وهذا معنى قول ابن زيد. ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ قيل: يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام. وقيل: المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد؛ أي قويّ نافذ يرى ما كان محجوباً عنك. قال مجاهد: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك. وقاله الضحاك. وقيل: يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب. وهو معنى قول ٱبن عباس. وقيل: يعني أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرقّ ويَعْمَى. وقرىء «لَقَدْ كُنْتِ» «عَنْكِ» «فَبَصَرُكِ» بالكسر على خطاب النفس.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني الملَك الموكّل به في قول الحسن وقتادة والضحاك. ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي هذا ما عندي من كتابة عمله مُعَدّ محفوظ. وقال مجاهد: يقول هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله. وقيل: المعنى هذا ما عندي من العذاب حاضر. وعن مجاهد أيضاً: قرينه الذي قيّض له من الشياطين. وقال ابن زيد في رواية ابن وهب عنه: إنه قرينه من الإنس، فيقول الله تعالى

لقرينه: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ قال الخليل والأخفش: هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الإثنين فتقول: ويلك أرحَلاها وأزجراها، وخذاه وأطلقاه للواحد. قال الفرّاء: تقول للواحد قُوما عنا، وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره أثنان فجرى كلام الرجل على صاحبيه، ومنه قولهم للواحد في الشعر: خليلي، ثم يقول: يا صاح. قال أمرؤ القيس:

خَلِيلَــيَّ مُــرَّا بِــي علــى أُمِّ جُنْــدَبِ   نُقَــضِّ لُبَــانَــاتِ الفــؤادِ المُعَــذَّبِ

وقال أيضاً:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ   بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال آخر:

فإِنْ تَزْجُرانِي يابنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ   وإنْ تَـدَعـانـي أَحْـمِ عِـرْضـاً مُمنَّعَـا

وقيل: جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين. وقال المازني: : قوله: «أَلْقِيَا» يدل على أَلْقِ أَلْقِ. وقال المبرد: هي تثنية على التوكيد، المعنى أَلْقِ أَلْقِ فناب «أَلْقِيَا» مناب التكرار. ويجوز أن يكون «أَلْقِيَا» تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به الملَكين. وقيل: هو مخاطبة للسائق والحافظ. وقيل: إن الأصل أَلْقِينْ بالنون الخفيفة تقلب في الوقف ألفاً فحمل الوصل على الوقف. وقرأ الحسن «أَلْقَيْنَ» بالنون الخفيفة نحو قوله: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ وقوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ [العلق: ١٥]. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة. وقال بعضهم: العنيد المعرض عن الحق؛ يقال عَنَدَ يَعنِد بالكسر عُنُوداً أي خالف وردّ الحق وهو يعرفه فهو عَنِيد وعاند، وجمع العَنِيد عُنُد مثل رغِيف ورُغُف. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يعني الزكاة المفروضة وكل حقّ واجب. ﴿مُعْتَدٍ﴾ في منطقه وسيرته وأمره؛ ظالم. ﴿مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ شاكٌّ في التوحيد؛ قاله الحسن وقتادة. يقال: أراب الرجلُ فهو مُريب إذا جاء بالريبة. وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. وأراد بقوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أنه كان يمنع بني أخيه من الإسلام. ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ تأكيد للأمر الأول. ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ يعني الشيطان الذي قيض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذّبه. ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ عن الحق وكان طاغياً بأختياره وإنما دعوته فاستجاب لي. وقرينه هنا هو شيطانه بغير أختلاف. حكاه المهدوي. وحكى الثعلبي قال أبن عباس ومقاتل: قرينه الملك؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملَك الذي كان يكتب سيئاته: ربِّ إنه أعجلني، فيقول الملَك: ربنا ما أطغيته أي ما أعجلته. وقال

سعيد بن جبير: يقول الكافر ربّ إنه زاد عليّ في الكتابة، فيقول الملَك: ربنا ما أطغيته أي ما زدت عليه في الكتابة؛ فحينئذ يقول الله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾ يعني الكافرين وقرناءهم من الشياطين. قال القشيري: وهذا يدل على أن القرين الشيطان. ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ أي أرسلت الرسل. وقيل: هذا خطاب لكل من ٱختصم. وقيل: هو للاثنين وجاء بلفظ الجمع. ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ قيل هو قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وقيل هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾. وقال الفرّاء: ما يكذب عندي أي ما يزاد في القول ولا ينقص لعلمي بالغيب. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ أي ما أنا بمعذِّب من لم يُجرم، قاله ٱبن عباس. وقد مضى القول في معناه في «الحج» وغيرها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ قرأ نافع وأبو بكر «يَوْمَ يَقُولُ» بالياء ٱعتباراً بقوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾. الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى وهي نون العظمة. وقرأ الحسن «يَوْمَ أَقُولُ». وعن ٱبن مسعود وغيره «يَوْمَ يُقَالُ». وٱنتصب «يَوْمَ» على معنى ما يبدّل القول لديّ يومَ. وقيل: بفعل مقدر معناه: وأنذرهم ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها. وهذا الاستفهام على سبيل التصديق لخبره، والتحقيق لوعده، والتقريع لأعدائه، والتنبيه لجميع عباده. «وتَقُولُ» جهنم ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي ما بقي فيّ موضع للزيادة.

[٥٦٣٩] كقوله عليه السلام: «هل تَرَكَ لنا عَقِيل من رَبْع أو منزل» أي ما ترك؛ فمعنى الكلام الجحد. ويحتمل أن يكون ٱستفهاماً بمعنى الاستزادة؛ أي هل من مزيد فأزداد؟. وإنما صلح هذا للوجهين؛ لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد. وقيل: ليس ثَمَّ قول وإنما هو على طريق المثل؛ أي أنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك؛ كما قال الشاعر:

ٱمتلأ الحوضُ وقال قَطْنِي ... مَهْلاً رُوَيْداً قد مَلأْتَ بَطْني

[٥٦٣٩] صحيح. أخرجه البخاري ١٥٨٨ و ٣٠٥٨ ومسلم ١٣٥١ وأبو داود ٢٩١٠ والنسائي في الكبرى ٤٢٥٥ وابن ماجه ٢٩٤٢ وابن حبان ٥١٥٠ والبيهقي ١٥/ ١٦٠ وعبد الرزاق ٩٨٥١ وأحمد ٥/ ٢٠١ و ٢٠٢ من حديث أسامة بن زيد.

وهذا تفسير مجاهد وغيره. أي هل فيّ من مسلك قد آمتلأت. وقيل: يُنطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح. وهذا أصح على ما بيناه في سورة «الفُرقان». وفي صحيح مسلم والبخاري والترمذيّ عن أنس بن مالك:

[٥٦٤٠] عن النبيّ ﷺ قال: «لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربُّ العزة فيها قَدَمه فيَنْزَوِي بعضها إلى بعض وتقول قَطْ قَطْ بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فَضلٌ حتى يُنشىءَ الله لها خلقاً فيسكنَهم فَضْلَ الجنة» لفظ مسلم. وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة:

[٥٦٤١] «وأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله عليها رِجْله يقول لها قَطْ قَطْ فهنالك تمتلىء ويَنْزَوِي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحداً وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً». قال علماؤنا رحمهم الله: أما معنى القَدم هنا فهم قوم يُقدِّمهم الله إلى النار، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار. وكذلك الرِّجْل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم؛ يقال: رأيت رِجْلاً من الناس ورِجْلاً من جَرَاد، قال الشاعر:

فمرَّ بنا رِجْلٌ من الناس وانْزَوَى ... إليهم من الحيِّ اليمانينَ أَرْجُلُ
قبائلُ من لَخْمٍ وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ ... على آبْنَيْ نِزارٍ بالعَدَاوة أحْفَلُ

ويبين هذا المعنى ما روي عن آبن مسعود أنه قال: ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مِقمَع ولا تابوت إلا وعليه آسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف آسمه وصفته، فإذا آستوفى كل واحد منهم ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة: قَطْ قَطْ حسبُنا حسبُنا! أي آكتفينا آكتفينا، وحينئذ تنزوي جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر. فعبّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم؛ ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث: «ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىءَ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة»[1] وقد زدنا هذا المعنى بياناً ومهدناه في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله. وقال النضر بن شُمَيْل في معنى قوله عليه السلام: «حتى يَضَع الجبَّار فيها قَدمَه»[2] أي من سبق في علمه أنه من أهل النار.

[٥٦٤٠] أخرجه البخاري ٦٦٦١ ومسلم ٢٨٤٨ والترمذي ٣٢٧٢ من حديث أنس.

[٥٦٤١] صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٥٠ ومسلم ٢٨٤٦ والترمذي ٢٥٦١ وأحمد ٢/ ٤٥٠ من حديث أبي هريرة. وصدره: «تحاجت النار والجنة. . .»

---

(١) هو بعض الحديث المتقدم برقم: ٥٦٤٠.

(٢) هو بعض المتقدم برقم: ٥٦٤٠.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ أي قربت منهم. وقيل: هذا قبل الدخول في الدنيا؛ أي قربت من قلوبهم حين قيل لهم اجتنبوا المعاصي. وقيل: بعد الدخول قربت لهم مواضعهم فيها فلا تبعد. «غَيْرَ بَعِيدٍ» أي منهم وهذا تأكيد. ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي ويقال لهم هذا الجزاء الذي وعدتم في الدنيا على ألسنة الرسل. وقراءة العامة «تُوعَدُونَ» بالتاء على الخطاب. وقرأ ابن كثير بالياء على الخبر؛ لأنه أتى بعد ذكر المتقين. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ أوّاب أي رَجّاع إلى الله عن المعاصي، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع، هكذا قاله الضحاك وغيره. وقال ابن عباس وعطاء: الأوّاب المسبِّح من قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]. وقال الحكم بن عتيبة: هو الذاكر لله تعالى في الخلوة. وقال الشعبي ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة فيستغفر الله منها. وهو قول ابن مسعود. وقال عُبيد بن عُمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله تعالى فيه. وعنه قال: كنا نحدّث أن الأوّابَ الحفيظ الذي إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك مما أصبت في مجلسي هذا. وفي الحديث:

[٥٦٤٢] «من قال إذا قام من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك لا إلٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان في ذلك المجلس». وهكذا كان النبيّ ﷺ يقول. وقال بعض العلماء: أنا أحبّ أن أقول أستغفرك وأسألك التوبة، ولا أحبّ أن أقول وأتوب إليك إلا على حقيقته.

قلت: هذا استحسان واتباع الحديث أولى. وقال أبو بكر الورّاق: هو المتوكل على الله في السراء والضراء. وقال القاسم: هو الذي لا يشتغل إلا بالله عز وجل. «حَفِيظٍ» قال ابن عباس: هو الذي حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها. وقال قتادة: حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته وائتمنه عليه. وعن ابن عباس أيضاً: هو الحافظ لأمر الله. مجاهد: هو الحافظ لحق الله تعالى بالإعتراف ولنعمه بالشكر. قال الضحاك: هو الحافظ لوصية الله تعالى بالقبول. وروى مكحول عن أبي هريرة قال:

[٥٦٤٢] صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٥٩ والنسائي في الكبرى ١٠٢٣٠ والحاكم ١/ ٥٣٧ من حديث أبي برزة الأسلمي. سكت عليه الحاكم والذهبي.

وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي ٣٤٢٩ وأبو داود ٤٨٥٨ والنسائي في الكبرى ١٠٢٣٠ والحاكم ٤/ ٢٤١ وابن السني ٤٤٩ وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

وأخرجه الحاكم من حديث جبير بن مطعم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وكرره من حديث رافع بن خديج فهو صحيح بشواهده

[٥٦٤٣] قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على أربعِ ركعات من أوّل النهار كان أوّاباً حفيظاً» ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ «مَنْ» في محل خفض على البدل من قوله: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ أو في موضع الصفة لـ «أَوَّابٍ». ويجوز الرفع على الاستئناف، والخبر «ٱدْخُلُوهَا» على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لهم: «ٱدْخُلُوهَا». والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. وقال الضحاك والسُّدي: يعني في الخلوة حين لا يراه أحد. وقال الحسن: إذا أرخى السترَ وأغلق البابَ. ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ مقبل على الطاعة. وقيل: مخلص. وقال أبو بكر الورّاق: علامة المنيب أن يكون عارفاً لحرمته وموالياً له، متواضعاً لجلاله تاركاً لهوى نفسه.

قلت: ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم؛ كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ على ما تقدم؛ والله أعلم. ﴿ ٱدْخُلُوهَا﴾ أي يقال لأهل هذه الصفات: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ أي بسلامة من العذاب. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النِّعم. وقال: «ٱدْخُلُوهَا» وفي أوّل الكلام «مَنْ خَشِيَ»؛ لأن «مَنْ» تكون بمعنى الجمع.

قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم. ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ من النعم مما لم يخطر على بالهم. وقال أنس وجابر: المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف. وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعة إلى النبي: ﷺ في قوله تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم. وذكر ٱبن المبارك ويحيى بن سلام، قالا: أخبرنا المسعوديّ عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ٱبن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كثيب من كافور أبيض فيكونون منه في القرب. قال ٱبن المبارك: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا. وقال يحيى بن سلام: لمسارعتهم إلى الجمع في الدنيا، وزاد: «فيحدث الله لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك». قال يحيى: وسمعت غير المسعودي يزيد فيه قوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قلت: قوله «في كَثِيب» يريد أهل الجنة، أي وهم على كثب؛ كما في مرسل الحسن، قال:

[٥٦٤٣] ذكره الماوردي في تفسيره ٤/ ٣٥٤ عن مكحول عن أبي هريرة مرفوعاً وهو منقطع مكحول لم يسمع أبا هريرة. والله أعلم.

[٥٦٤٤] قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ينظرون ربهم في كل يوم جمعة على كَثِيب من كافور» الحديث. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة». وقيل: إن المزيد ما يزوَّجون به من الحور العين:

[٥٦٤٥] رواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشدّ منهم بطشاً وقوّة. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي ساروا فيها طلباً للمهرب. وقيل: أثّرُوا في البلاد؛ قاله ٱبن عباس. وقال مجاهد: ضربوا وطافوا. وقال النضر بن شميل: دَوَّروا.. وقال قتادة: طَوّفوا. وقال المؤرِّج تباعدوا؛ ومنه قول ٱمرىء القيس:

وقد نَقَّبْتُ في الآفاق حَتَّى ... رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

ثم قيل: طافوا في أقاصي البلاد طلباً للتجارات، وهل وجدوا من الموت محيصاً؟ وقيل: طوّفوا في البلاد يلتمسون مَحيصاً من الموت. وقال الحرث بن حِلِّزة:

نَقَّبُوا في البلادِ من حَذَرِ المو ... تِ وجَالُوا في الأرضِ كُلَّ مَجَالِ

وقرأ الحسن وأبو العالية «فَنَقَبُوا» بفتح القاف وتخفيفها. والنقب هو الخرق والدخول في الشيء. وقيل: النقب الطريق في الجبل، وكذلك الْمَنْقَب والْمَنْقَبَة؛ عن ٱبن السكيت. ونَقَب الجدار نَقْباً، وٱسم تلك النَّقْبة نَقْب أيضاً، وجمع النَّقْب النُّقُوب؛ أي خرقوا البلاد وساروا في نقوبها. وقيل: أَثّرُوا فيها كتأثير الحديد فيما ينقب. وقرأ السُّلَمي ويحيى بن يَعْمَر «فَنَقِّبُوا» بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد؛ أي طَوِّفوا البلاد وسيروا فيها فٱنظروا ﴿هَلْ مِن﴾ الموت ﴿مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ ومهرب؛ ذكره الثعلبي. وحكى القشيريّ «فَنَقِبُوا» بكسر القاف مع التخفيف؛ أي أكثروا السير فيها حتى نَقِبت

[٥٦٤٤] ذكره المصنف في التذكرة ٢/ ١٧٢ وساق له إسناداً عن الحسن فهو مرسل، ومع إرساله فيه راوٍ لم يسمّ فالخبر واهٍ.

[٥٦٤٥] يشير المصنف لما أخرجه أبو يعلى ١٣٨٦ وأحمد ٣/ ٧٥ كلاهما عن أبي سعيد مرفوعاً: «إن الرجل ليتكىء في الجنة مسيرة سبعين سنة قبل أن يتحول ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبيه... ويسألها من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد...» حسنه الهيثمي في المجمع ١٠/ ٤١٩ والسيوطي في الدر ٦/ ١٢٧ مع أن فيه ابن لهيعة ضعيف، وشيخه درّاج في روايته عن أبي الهيثم ضعف وهذا منها.

دوابُّهم. الجوهري: ونَقِب البعيرُ بالكسر إذارَقّت أخفافُه، وأنقب الرجلُ إذا نَقِب بعيرُه، ونَقِب الخفُّ الملبوس أي تخرّق. والمحِيص مصدر حاص عنه يَحِيص حَيْصاً وحُيوصاً ومَحِيصاً ومَحاصاً وحَيَصاناً؛ أي عَدلَ وحادَ. يقال: ما عنه مَحِيص أي مَحِيد ومَهْرَب. والانحياص مثله؛ يقال للأولياء: حاصوا عن العدوّ وللأعداء ٱنهزموا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرة وموعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي عقل يتدبر به؛ فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه؛ قال معناه مجاهد وغيره. وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة، فعبر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها؛ كما قال ٱمرؤ القيس:

أَغَــرَّكِ مِنِّــي أَنَّ حُبَّــكِ قــاتِلــي وَأَنَّـكِ مَهْمَـا تَـأْمُـرِي الْقَلْـبَ يَفْعَـلِ

وفي التنزيل: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يسۤ: ٧٠]. وقال يحيى بن معاذ: القلب قلبان؛ قلب محتشٍ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من الأمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد ٱحتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة. ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي ٱستمع القرآن. تقول العرب: ألق إليّ سمعك أي ٱستمع. وقد مضى في «طه» كيفية الاستماع وثمرته. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي شاهد القلب؛ قال الزجاج: أي قلبه حاضر فيما يسمع. وقال سفيان: أي لا يكون حاضراً وقلبه غائب. ثم قيل: الآية لأهل الكتاب؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال الحسن: إنها في اليهود والنصارى خاصة. وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنها في أهل القرآن خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ تقدّم في «الأعراف» وغيرها. واللغوب التعب والإعياء، تقول منه: لَغَب يَلْغُب بالضم لُغُوباً، ولَغِب بالكسر يَلْغَب لُغُوباً لغة ضعيفة فيه. وألغبته أنا أي أنصبته. قال قتادة والكلبي: هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، أوّلها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وٱستراح يوم السبت؛ فجعلوه راحة، فأكذبهم الله تعالى في ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ خطاب للنبيّ ﷺ؛ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون؛ أي هَوِّن أَمرَهم عليك. ونزلت قبل الأمر بالقتال فهي منسوخة.

وقيل: هو ثابت للنبي ﷺ وأمته. وقيل معناه: فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم: إن الله ٱستراح يوم السبت.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ قيل: إنه أراد به الصلوات الخمس. قال أبو صالح: قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل الغروب صلاة العصر. ورواه جرير بن عبد الله مرفوعاً؛ قال:

[٥٦٤٦] كنا جلوساً عند النبيّ ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أَمَا إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته فإن ٱستطعتم ألا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ـ يعني العصر والفجر ثم قرأ جرير ـ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾» متفق عليه واللفظ لمسلم. وقال ابن عباس: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ الظهر والعصر. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني صلاة العشاءين. وقيل: المراد تسبيحه بالقول تنزيهاً قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخراسانيّ وأبو الأحوص. وقال بعض العلماء في قوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ قال ركعتي الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ الركعتين قبل المغرب؛ وقال ثُمَامة بن عبد الله بن[1] أنس: كان ذوو الألباب من أصحاب محمد ﷺ يُصلُّون الركعتين قبل المغرب. وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال:

[٥٦٤٧] كنا بالمدينة فإذا أذن المؤذِّنُ لصلاة المغرب ٱبتدروا السَّوَارِي فركعوا ركعتين، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صُليت من كثرة من يصلّيهما. وقال قتادة: ما أدركت أحداً يُصلِّي الركعتين إلا أنساً وأبا بَرْزَةَ الأسلمي.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ فيه أربعة أقوال: الأول ـ هو تسبيح الله تعالى في الليل، قاله أبو الأحوص. الثاني ـ أنها صلاة الليل كله، قاله مجاهد. الثالث ـ أنها ركعتا الفجر، قاله ٱبن عباس. الرابع ـ أنها صلاة العشاء الآخرة، قاله ٱبن زيد. قال ابن العربي: من قال إنه التسبيح في الليل فيعضُده الصحيح:

[٥٦٤٨] «مَنْ تَعَارّ[2] من الليل فقال لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله

[٥٦٤٦] صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٤ و ٤٨٥١ ومسلم ٦٣٣ من حديث جرير، وقد تقدم.

[٥٦٤٧] صحيح. أخرجه مسلم ٨٣٧ من حديث أنس بهذا اللفظ.

[٥٦٤٨] صحيح. أخرجه البخاري ١١٥٤ وأبو داود ٥٠٦٠ والترمذي ٣٤١١ من حديث عبادة بن الصامت.

---

(١) وقع في الأصل «بن بن أنس» والمثبت هو الصواب.

(٢) تعارّ: استيقظ.

الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم». وأما من قال إنها الصلاة بالليل فإن الصلاة تسمى تسبيحاً لما فيها من تسبيح الله، ومنه سُبْحة الضحى. وأما من قال إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل، والعشاء أوضحه.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ قال عمر وعليّ وأبو هريرة والحسن بن عليّ والحسن البصريّ والنّخعيّ والشعبيّ والأوزاعيّ والزهريّ: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر، ورواه العوفي عن ابن عباس، وقد رفعه ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

[٥٦٤٩] «ركعتان بعد المغرب أدبار السجود» ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردي: وروي عن ابن عباس قال:

[٥٦٥٠] بتُّ ليلةً عند النبيّ ﷺ فصلّى ركعتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: «يا بن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود»: وقال أنس:

[٥٦٥١] قال النبيّ ﷺ: «من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عِليين». قال أنس فقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] قال مقاتل: ووقتها ما لم يغرب الشفق الأحمر. وعن ابن عباس أيضاً: هو الوتر. قال ابن زيد: هو النوافل بعد الصلوات، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة، قال النحاس: والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى اتباع الأكثر وهو صحيح عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال أبو الأحوص: هو التسبيح في أدبار السجود. قال ابن العربي وهو الأقوى في النظر. وفي صحيح الحديث:

[٥٦٥٢] أن النبيّ ﷺ كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا

[٥٦٤٩] إسناده ضعيف لضعف عطية العوفي وتابعه رِشْدين بن كريب عن أبيه عن ابن عباس أخرجه الترمذي ٣٢٧١ والحاكم ١/ ٣٢٠ والطبري ٣١٩٨٥ وقال الترمذي غريب. وصححه الحاكم! واعترضه الذهبي بقوله: رِشْدين ضعفه أبو زرعة والدار قطني. وفي الميزان: قال أحمد والبخاري: منكر الحديث اهـ فالخبر واهٍ وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٢٣٠. مرسلاً، وضعفه

[٥٦٥٠] تقدم مع ما قبله.

[٥٦٥١] أخرجه عبد الرزاق ٤٨٣٣ عن مكحول مرسلاً وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ٥٦٦٠ لإرساله ولم أره من حديث أنس فلينظر (راجع الكشاف ٤/ ٣٩٣).

[٥٦٥٢] صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٣٠ و ٦٦١٥ ومسلم ٥٩٣ وعبد الرزاق ٤٢٢٤ وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٣١ وأبو داود ١٥٠٥ والنسائي ٣/ ٧١ وأحمد ٤/ ٢٥٠ وابن حبان ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦ من حديث المغيرة.

شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ[1] منك الْجَدُّ» وقيل: إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات، نقل ذلك الجماعة.

الخامسة ـ قرأ نافع وٱبن كثير وحمزة «وَإِدْبَارَ السُّجُودِ» بكسر الهمزة على المصدر من أدبر الشيء إدباراً إذا وَلَّى. الباقون بفتحها جمع دُبُر. وهي قراءة عليّ وٱبن عباس، ومثالها طُنُب وأطناب، أو دُبْر كقُفْل وأقفال. وقد ٱستعملوه ظرفاً نحو جئتك في دبر الصلاة وفي أدبار الصلاة. ولا خلاف في آخر ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾. ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الطور: ٤٩] أنه بالكسر مصدر، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثاني، وهو البياض المنشقّ من سواد الليل.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أي ٱستمع النداء والصوت أو الصيحة وهي صيحة القيامة، وهي النفخة الثانية، والمنادي جبريل. وقيل: إسرافيل. الزمخشري: وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي، فينادي بالحشر ويقول: هَلُمّوا إلى الحساب فالنداء على هذا في المحشر. وقيل: وٱستمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب، أي يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادي منادي الرحمٰن فكأنما ينادي في آذانهم. وقيل: المكان القريب صخرة بيت المقدس. ويقال: إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً. وقال كعب: بثمانية عشر ميلاً، ذكر الأوّلَ القشيري والزمخشري، والثاني الماوردي. فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادي بالحشر: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، ويا عظاماً نخرة، ويا أكفاناً فانية، ويا قلوباً خاوية، ويا أبداناً فاسدة، ويا عيوناً سائلة، قوموا لعرض رب العالمين. قال قتادة: هو إسرافيل صاحب الصّور. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني صيحة البعث. ومعنى ﴿ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ الاجتماع إلى الحساب. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ أي يوم الخروج من القبور. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ نميت الأحياء ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ إلى المنادي صاحب الصّور إلى بيت المقدس. ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ أي هيّن سهل. وقرأ الكوفيون «تَشَقَّقُ» بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى. الباقون بإدغام التاء في

(١) أي لا ينفع ذا الفتىٰ منك غناً وإنما ينفعه الإيمان والطاعة.

الشين. وأثبت ابن محيصن وابن كثير ويعقوب ياء «المنادي» في الحالين على الأصل، وأثبتها نافع وأبو عمرو في الوصل لا غير، وحذف الباقون في الحالين.

قلت: وقد زادت السنة هذه الآية بياناً؛ فروى الترمذي عن معاوية بن حَيْدة عن النبيّ ﷺ في حديث ذكره، قال وأشار بيده إلى الشام فقال:

[٥٦٥٣] «من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركباناً ومشاة وتُجرُّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام تُوفُون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه» في رواية أخرى «فخذه وكفّه» وخرّج عليّ بن معبد عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ في حديث ذكره:

[٥٦٥٤] ثم يقول ـ يعني الله تعالى ـ لإسرافيل: «أنفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتي وجلالي ليرجعنّ كلّ رُوح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثم تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السم في اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أوّل من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شباباً كلكم أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذ بالسريانية» وذكر الحديث، وقد ذكرنا جميع هذا وغيره في «التذكرة» مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي من تكذيبك وشتمك. ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي بمسلَّط تجبرهم على الإسلام؛ فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال. والجبّار من الجبرِية والتسلّط إذ لا يقال جبّار بمعنى مُجبِر، كما لا يقال خرّاج بمعنى مُخرِج؛ حكاه القشيري. النحاس: وقيل معنى جبّار لست تُجبِرهم، وهو خطأ لأنه لا يكون فَعّال من أفعل. وحكى الثعلبي: وقال ثعلب قد جاءت أحرف فَعّال بمعنى مُفعِل وهي شاذة، جبّار بمعنى مُجبِر، ودرّاك بمعنى مُدرِك، وسَرّاع بمعنى مُسرِع، وبَكّاء بمعنى مُبكٍ، وعدَّاء بمعنى مُعدٍ. وقد قرىء ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [غافر: ٢٩] بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى. وقيل: هو الله. وكذلك قرىء ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ [الكهف: ٧٩] يعني ممسكين. وقال أبو حامد الخارْزَنجِيّ[1]: تقول العرب: سيف سَقّاط بمعنى مُسقِط. وقيل: «بِجَبَّارٍ» بمسيطر كما في الغاشية ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية: ٢٢]. وقال الفرّاء: سمعت من العرب من يقول جَبَره على الأمر

[٥٦٥٣] تقدم تخريجه وانظر التذكرة ١/ ٢٥٨.

[٥٦٥٤] تقدم تخريجه أيضاً وانظر التذكرة ١/ ٢١٦. وهو حديث ضعيف.

---

(١) نسبة إلى خارزنج قرية بنواحي نيسابور.

أي قهره، فالجبّار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح. وقيل: الجبّار من قولهم جبرته على الأمر أي أجبرته وهي لغة كنانية وهما لغتان. الجوهري: وأجبرته على الأمر أكرهته عليه، وأجبرته أيضاً نسبته إلى [الجبر، كما تقول أكفرته إذا نسبته إلى الكفر]. ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ قال ابن عباس:

[٥٦٥٥] قالوا: يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ أي ما أعددته لمن عصاني من العذاب؛ فالوعيد العذاب والوعد الثواب، قال الشاعر:

وإنّي وإنْ أَوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إيعَادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

وكان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك. وأثبت الياء في «وعِيدِي» يعقوب في الحالين، وأثبتها ورش في الوصل دون الوقف، وحذف الباقون في الحالين. والله أعلم. تم تفسير سورة «قٓ» والحمد لله.

سورة والذاريات

مكية في قول الجميع، وهي ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾ قال أبو بكر الأنباري: حدّثنا عبد الله بن ناجية، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدّثنا مكي بن إبراهيم، حدّثنا الجعيد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خصيفة، عن السائب بن يزيد أن رجلاً قال لعمر رضي الله عنه: إني مررت[1] برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن، فقال عمر: اللهم أمكني منه؛ فدخل الرجل على عمر يوماً وهو لابس ثياباً وعمامة وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال:

[٥٦٥٥] أخرجه الطبري ٣٢٠٠٥ عن ابن عباس به وكرره ٣٢٠٠٦ عن عمرو بن قيس الملائي مرسلاً. ومدارهما على أيوب بن سيار ضعفه يحيى والمديني وغيرهما وقال النسائي: متروك.

---

(١) هو صَبيغ بن عِسل كان يسأل عن المتشابهات فنفاه عمر إلى البصرة بعد ضربه. وهذه المتشابهات يخوض فيها الكثير من المسلمين في أيامنا نعوذ بالله من الفتن.

يا أمير المؤمنين ما ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾ فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلِده، ثم قال: ألبسوه ثيابه واحملوه على قَتَب وأبلغوا به حَيَّه، ثم ليقم خطيباً فليقل: إن صَبِيغاً طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيداً فيهم. وعن عامر بن واثلة أن ابن الكوّاء سأل علياً رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين ما ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾ [قال]: ويلك سَلْ تَفَقُّهاً ولا تسأل تَعَنُّتاً ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾ الرياح ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢﴾ السحاب ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣﴾ السفن ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤﴾ الملائكة. وروى الحرث عن علي رضي الله عنه ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾ قال: الرياح ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢﴾ قال: السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣﴾ قال: السفن موقرة ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤﴾ قال: الملائكة تأتي بأمر مختلف؛ جبريل بالغلظة، وميكائيل صاحب الرحمة، وملك الموت يأتي بالموت. وقال الفراء: وقيل تأتي بأمر مختلف من الخِصب والجَدْب والمطر والموت والحوادث. ويقال: ذَرَتِ الرِّيحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْواً وتَذْرِيهِ ذَرْياً. ثم قيل: «وَالذَّارِيَاتِ» وما بعده أقسام، وإذا أقسم الرب بشيء أثبت له شرفاً. وقيل: المعنى ورب الذارياتِ، والجواب ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أي الذي توعدونه من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿لَصَادِقٞ ٥﴾ لا كذب فيه؛ ومعنى «لَصَادِقٌ» لصدق؛ وقع الاسم موقع المصدر. ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾ يعني: الجزاء نازل بكم. ثم ابتدأ قسماً آخر فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ٨﴾ وقيل: إن الذاريات النساء الولودات لأن في ذرايتهنّ ذرو الخلق؛ لأنهنّ يذرين الأولاد فصرن ذاريات؛ وأقسم بهنّ لما في ترائبهنّ من خيرة عباده الصالحين. وخص النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذارياً لأمرين: أحدهما لأنهن أوعية دون الرجال، فلاجتماع الذّروين فيهنّ خصصن بالذكر. الثاني ـ أن الذّرو فيهنّ أطول زماناً، وهنّ بالمباشرة أقرب عهداً. ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢﴾ السحابّ وقيل: الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمل. والوِقر بكسر الواو ثقل الحمل على ظهر أو في بطن، يقال: جاء يحمل وِقره وقد أوقر بعيرَه. وأكثر ما يستعمل الوِقر في حمل البغل والحمار، والوَسْق في حمل البعير. وهذه امرأة مُوقَرة بفتح القاف إذا حملت حملاً ثقيلاً. وأوقرت النخلة كثر حَمْلُها؛ يقال: نخلة مُوقِرة وموقِر ومُوقَرة، وحكي مُوقَر وهو على غير القياس، لأن الفعل للنخلة. وإنما قيل: مُوقِر بكسر القاف على [قياس] قولك امرأة حامل، لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء؛ فأما مُوقَر بالفتح فشاذ، وقد روي في قول لبيد يصف نخيلاً:

عَصَبٌ كَوارِعُ فـي خليـج مُحَلَّـمٍ   حَمَلَـتْ فمنهـا مـوقَـرٌ مَكْمُـومُ

والجمع مواقِر. فأما الوَقْر بالفتح فهو ثقل الأذن، وقد وقرت أذنه تَوْقر وَقْراً أي

صَمّت، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقدّم في «الأنعام» القول فيه.
﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ السفن تجري بالرياح يسراً إلى حيث سيرت. وقيل: السحاب؛ وفي جريها يسراً على هذا القول وجهان: أحدهما ـ إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع. الثاني ـ هو سهولة تسييرها؛ وذلك معروف عند العرب، كما قال الأعشى:

كأنّ مِشْيَتَها مِنْ بيتِ جارتها مَشْيُ السَّحَابَةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ قيل: المراد بالسماء هاهنا السُّحُب التي تظل الأرض. وقيل: السماء المرفوعة. ابن عمر: هي السماء السابعة؛ ذكره المهدوي والثعلبي والماوردي وغيرهم. وفي «الْحُبُكِ» أقوال سبعة: الأول ـ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والربيع: ذات الخَلق الحسن المستوي. وقاله عكرمة؛ قال: ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه؛ يقال منه حَبَك الثوبَ يَحبِكُه بالكسر حَبْكاً أي أجاد نسجه. قال ابن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته. والثاني ـ ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بن جبير، وعن الحسن أيضاً: ذات النجوم وهو الثالث. الرابع ـ قال الضحاك: ذات الطرائق؛ يقال لما تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح حُبُك. ونحوه قول الفراء؛ قال: الحُبُك تكسُّر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة، والماء القائم إذا مرت به الريح، ودرع الحديد لها حُبُك، والشعرة الجَعْدة تكسّرها حُبُك. وفي حديث الدجّال:

[٥٦٥٦] إنّ شعره حُبُك. قال زهير:

مُكَلَّلٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لِضاحِي مائهِ حُبُكُ[1]

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها. الخامس ـ ذات الشدة، قاله ابن زيد، وقرأ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾. والمحبوك الشديد الخَلْق من الفرس وغيره، قال امرؤ القيس:

[٥٦٥٦] أخرجه أحمد ٥/ ٣٧٢ عن أبي قلابة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وإسناده قوي وجهالة الصحابي لاتضر.

---

(١) النجم: نبت لاساق له. ريح خريق: شديدة.

قَـد غَـدَا يَحْمِلُنـي فـي أَنْفِـهِ   لاَحِـقُ الإِطْلَيْـنِ[1] مَحْبُـوكٌ مُمَـرّ

وقال آخر[2]:

مَـرِجَ الـدِّيـنَ فـأَعـددتُ لَـهُ   مُشْـرِفَ الحارِكِ مَحْبُوك الْكَتَدْ[3]

وفي الحديث: أن عائشة رضي الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع في الصلاة؛ أي تشدّ الإزار وتحكمه. السادس ـ ذات الصفّاقة؛ قاله خَصِيف، ومنه ثوب صفِيق ووجه صفيق بين الصفاقة. السابع ـ أن المراد بالطرق المَجرّة التي في السماء؛ سميت بذلك لأنها كأثر المَجرّ. و«الْحُبُك» جمع حِباك، قال الراجز:

كـأنّمـا جَلَّلهـا الْحُـوّاكُ   طنفسـة فـي وَشْيهـا حِبَـاكُ

والحبَاك والحَبِيكة الطريقة في الرّمل ونحوه. وجمع الحِبَاك حُبُك وجمع الحَبِيكة حَبَائك، والْحَبْكَة مثل العَبَكة وهي الحبّة من السويق، عن الجوهري. وروي عن الحسن في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ «الْحُبْكِ» و«الحِبِكِ» و«الحِبْكِ». و«الحِبَك والحِبُك وقرأ أيضاً «الْحُبُك» كالجماعة. وروي عن عِكْرمة وأبي مِجْلَز «الحُبك». و«الحُبُك» واحدتها حَبيكة؛ «والْحُبْك» مخفّف منه. و«الحِبَك» واحدتها حِبْكة. ومن قرأ «الْحُبَكِ» فالواحدة حُبْكَة كبُرقة وبُرَق أو حُبُكة كظُلُمة وظُلَم. ومن قرأ «الحِبِك» فهو كإبلِ وإطِل و«الحِبْك» مخففة منه. ومن قرأ «الحِبُك» فهو شاذ إذ ليس في كلام العرب فِعُلٌ، وهو محمول على تداخل اللغات، كأنه كسر الحاء ليكسر الباء ثم تصوّر «الْحُبُك» فضم الباء. وقال جميعه المهدوي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ هذا جواب القسم الذي هو ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ أي إنكم يا أهل مكة ﴿فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ في محمد والقرآن فمن مصدّق ومكذّب. وقيل: نزلت في المقتسمين. وقيل: ٱختلافهم قولهم ساحر بل شاعر بل ٱفتراه بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأوّلين. وقيل: ٱختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه. وقيل: المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره.

قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ أي يصرف عن الإيمان بمحمد والقرآن من صُرِف؛ عن الحسن وغيره. وقيل: المعنى يُصرَف عن الإيمان من أراده بقولهم هو سحر

---

(١) الإطل الخاصرة.

(٢) هو أبو دؤاد.

(٣) الكتد: مجمع الكتفين.

وكهانة وأساطير الأوّلين. وقيل: المعنى يُصرَف عن ذلك الاختلاف مَن عصمه الله. أَفَكَه يَأفِكه أَفكاً أي قلبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢]. وقال مجاهد: معنى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ يُؤفَن عنه من أُفِن، والأَفْنَ فساد العقل. الزمخشري: وقرىء «يُؤفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ» أي يحرمه من حرم؛ من أَفَن الضَّرْعَ إذا أنهكه حَلْباً. وقال قُطْرُب: يُخدَع عنه من خُدِع. وقال اليزيدي: يُدفَع عنه من دُفِع. والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى الصرف.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ في التفسير: لُعِن الكذّابون. وقال ٱبن عباس: أي قُتِل المرتابون؛ يعني الكهنة. وقال الحسن: هم الذين يقولون لسنا نبعث. ومعنى «قُتِلَ» أي هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين. وقال الفرّاء: معنى «قُتِلَ» لُعِن؛ قال: و«الْخَرَّاصُونَ» الكذابون الذين يتخرّصون بما لا يعلمون؛ فيقولون: إن محمداً مجنون كذّاب ساحر شاعر؛ وهذا دعاء عليهم؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك. قال ٱبن الأنباري: علّمنا الدعاء عليهم؛ أي قولوا: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ وهو جمع خارص والْخَرْص الكذب والْخَرَّاص الكذّاب، وقد خَرَص يَخْرُص بالضم خَرْصا أي كَذَب؛ يقال: خَرَص وٱخْتَرص، وخَلَقَ وٱختلقَ، وبَشَك وٱبْتَشك، وسَرَج وٱسْتَرج، ومان، بمعنى كذب، حكاه النحاس. والْخَرْص أيضاً حَزْر ما على النخل من الرطب تمراً. وقد خَرَصتُ النخلَ والاسم الخِرْص بالكسر؛ يقال: كم خِرْص نخلك والخرّاص الذي يخرصها فهو مشترك. وأصل الخُرْص القطع على ما تقدّم بيانه في «الأنعام» ومنه الْخَرِيص للخليج؛ لأنه ينقطع إليه الماء، والخُرصُ حبّة القُرْط إذا كانت منفردة؛ لانقطاعها عن أخواتها، والخُرْص العود؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته. والْخَرِص الذي به جوع وبَرْد لأنه ينقطع به، يقال: خَرِص الرجلُ بالكسر فهو خَرِص، أي جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد خَرَص. ويقال للبرد بلا جوع خَرَص. والْخُرْص بالضم والكسر الحلقة من الذهب أو الفضة والجمع الخِرْصان. ويدخل في الْخَرْص قول المنجمين وكل من يدّعي الحَدْس والتخمين. وقال ٱبن عباس: هم المقتسمون الذين ٱقتسموا أعقاب مكة، وٱقتسموا القول في نبيّ الله ﷺ؛ ليصرفوا الناس عن الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ الغمرة ما ستر الشيء وغطّاه. ومنه نهر غَمْر أي يغْمُر من دخله، ومن غَمَرات الموت. «سَاهُونَ» أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾ أي متى يوم الحساب؛ يقولون ذلك

ٱستهزاءً وشكًّا في القيامة. ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ نصب «يَوْم» على تقدير الجزاء أي هذا الجزاء ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي يُحرَقون، وهو من قولهم: فتنت الذهب أي أحرقته لتختبره؛ وأصل الفتنة الاختبار. وقيل: إنه مبنيّ بني لإضافته إلى غير متمكن، وموضعه نصب على التقدير المتقدّم، أو رفع على البدل من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾. وقال الزجاج: يقول يعجبني يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم، وإن شئت فتحت وهو في موضع رفع، فإنما ٱنتصب هذا وهو في المعنى رفع. وقال ٱبن عباس: ﴿يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ يُعذَّبون. ومنه قول الشاعر:

كلُّ ٱمرىءٍ من عبادِ اللَّهِ مُضطَهدٌ ... ببطنِ مكةَ مقهورٌ ومفتونُ

قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي يقال لهم ذوقوا عذابكم؛ قاله ٱبن زيد. مجاهد: حريقكم. ٱبن عباس: أي تكذيبكم يعني جزاءكم. الفرّاء: أي عذابكم ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ في الدنيا. وقال: «هَٰذَا» ولم يقل هذه؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أي هم في بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه به. ﴿ءَاخِذِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات؛ قاله الضحاك. وقال ٱبن عباس وسعيد بن جبير: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي عاملين بالفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل دخولهم الجنة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ بالفرائض. وقال ٱبن عباس: المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ معنى «يَهْجَعُونَ» ينامون؛ والهجوع النوم ليلاً، والتَّهْجاع النومة الخفيفة؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت:

قد حصَّتِ البيضةُ رأسي فَمَا ... أَطْعَمُ نَوْماً غيرَ تَهْجاعِ

وقال عمرو بن مَعْدي كرب يتشوّق أخته وكان أسرها الصِّمَّة أبو دُرَيد بن الصِّمَّة:

أَمِنْ رَيْحَانة الدَّاعِي السَّميعُ ... يُؤَرِّقُني وأَصحابي هُجوعُ

يقال: هَجَعَ يَهْجَع هُجوعاً، وهَبَغَ يَهْبَغُ هُبوغاً بالغين المعجمة إذا نام؛ قاله الجوهري. وٱختلف في «ما» فقيل: صلة زائدة ـ قاله إبراهيم النخعي ـ والتقدير كانوا قليلاً من الليل يهجعون؛ أي ينامون قليلاً من الليل ويصلّون أكثره. قال عطاء: وهذا لما أمروا بقيام الليل. وكان أبو ذرّ يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصة ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ [المزمل: ٢]. وقيل: ليس «ما» صلة بل الوقف عند قوله: «قَلِيلاً» ثم يبتدىء ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ فـ«ـما» للنفي وهو نفي النوم عنهم البَتّةَ. قال الحسن: كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله وربما نَشِطوا فجدّوا إلى السحر. روي عن يعقوب الحضرمي أنه قال: ٱختلفوا في تفسير هذه الآية فقال بعضهم: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا﴾ معناه كان عددهم يسيراً ثم ٱبتدأ فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ على معنى من الليل يهجعون؛ قال ٱبن الأنباري: وهذا فاسد؛ لأن الآية إنما تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم، وبعد فلوا ٱبتدأنا ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ على معنى من الليل يهجعون لم يكن في هذا مدح لهم؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون «ما» جَحْداً.

قلت: وعلى ما تأوّله بعض الناس ـ وهو قول الضحاك ـ من أن عددهم كان يسيراً يكون الكلام متصلاً بما قبل من قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي كان المحسنون قليلاً، ثم ٱستأنف فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ وعلى التأويل الأوّل والثاني يكون ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ خطاباً مستأنفاً بعد تمام ما تقدّمه ويكون الوقف على ﴿مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، وكذلك إن جعلت «قَلِيلاً» خبر كان وترفع «ما» بقليل؛ كأنه قال: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم. فـ«ـما» يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً، ويجوز أن تكون رفعاً على البدل من ٱسم كان، التقدير كان هجوعهم قليلاً من الليل، وٱنتصاب قوله: «قَلِيلاً» إن قدرت «ما» زائدة مؤكدة بـ «ـيَهْجَعُونَ» على تقدير كانوا وقتاً قليلاً أو هجوعاً قليلاً يهجعون، وإن لم تقدر «ما» زائدة كان قوله: «قَلِيلاً» خبر كان ولم يجز نصبه بـ«ـيَهْجَعُونَ»؛ لأنه إذا قدر نصبه بـ«ـيَهْجَعُونَ» مع تقدير «ما» مصدراً قدمت الصلة على الموصول. وقال أنس وقتادة في تأويل الآية: أي كانوا يصلّون بين العشاين: المغرب والعشاء. أبو العالية: كانوا لا ينامون بين العشاءين. وقاله ٱبن وهب. وقال مجاهد: نزلت في الأنصار كانوا يصلون العشاءين في مسجد النبيّ ﷺ ثم يمضون إلى قُباء. وقال محمد بن علي بن الحسين: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العَتَمة. قال الحسن: كأنه عَدَّ هجوعهم قليلاً في جنب يقظتهم للصلاة. وقال ٱبن عباس ومُطرِّف: قَلّ ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلّون لله فيها إما من أوّلها وإما من وسطها.

الثانية: روي عن بعض المتهجدين أنه أتاه آتٍ في منامه فأنشده:

وكيـف تنـامُ الليـلَ عيـنٌ قـريـرةٌ ولم تَدرِ في أيّ المجالِسِ تنزِلُ

وروي عن رجل من الأزد أنه قال: كنت لا أنام الليل فنمت في آخر الليل، فإذا أنا بشابين أحسن ما رأيت ومعهما حُلَل، فوقفا على كل مصلّ وكسواه حلّة، ثم ٱنتهيا إلى النيام فلم يكسوهم، فقلت لهما: ٱكسواني من حُللكما هذه؛ فقالا لي: إنها ليست حُلّة لباس إنما هي رضوان الله يحلّ على كل مصلّ. ويروى عن أبي خَلّاد أنه قال: حدّثني صاحب لي قال: فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ مُثّلت لي القيامة، فنظرت إلى أقوام من إخواني قد أضاءت وجوههم، وأشرقت ألوانهم، وعليهم الحلل من دون الخلائق، فقلت: ما بال هؤلاء مكتسون والناس عُراة، ووجوههم مشرقة ووجوه الناس مغبرة! فقال لي قائل: الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلّون بين الأذان والإقامة، والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجد، قال: ورأيت أقواماً على نجائب فقلت: ما بال هؤلاء ركباناً والناس مشاة حفاة؟ فقال لي: هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقرّباً لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب؛ قال: فصِحت في منامي: واهاً للعابدين، ما أشرف مقامهم! ثم ٱستيقظت من منامي وأنا خائف.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ مدح ثان؛ أي يستغفرون من ذنوبهم، قاله الحسن. والسَّحَر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء. وقد مضى في «آل عمران» القول فيه. وقال ٱبن عمر ومجاهد: أي يصلّون وقت السَّحَر فسمّوا الصلاة ٱستغفاراً. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ مدّوا الصلاة من أوّل الليل إلى السحر ثم استغفروا في السحر. ٱبن وهب: هي في الأنصار؛ يعني أنهم كانوا يغدون من قُباء فيصلون في مسجد النبيّ ﷺ. ٱبن وهب عن ٱبن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قالوا: كانوا يَنْضَحون لِنَاسٍ من الأنصار بالدلاء على الثمار ثم يهجعون قليلاً، ثم يصلّون آخر الليل. الضحاك: صلاة الفجر. قال الأحنف بن قيس: عرضت عملي على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بَوْناً بعيداً لا نبلغ أعمالهم ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ وعرضت عملي على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم، يكذبون بكتاب الله وبرسوله وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ مدح ثالث. قال محمد بن سيرين وقتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة. وقيل: إنه حقّ سوى الزكاة يصل به رَحِماً، أو يَقري به ضيفاً، أو يحمل به كَلاًّ، أو يغني محروماً. وقاله ٱبن عباس؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة. ٱبن العربي: والأقوى في هذه الآية أنها الزكاة؛ لقوله تعالى في سورة «سأل سائل»: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾

[المعارج: ٢٤ ـ ٢٥] والحق المعلوم هو الزكاة التي بيّن الشرع قدرها وجنسها ووقتها، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم؛ لأنه غير مقدّر ولا مجنّس ولا موقّت.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ السائل الذي يسأل الناس لفاقته؛ قاله ٱبن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما. ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ الذي حُرم المالَ. وٱختلف في تعيينه؛ فقال ٱبن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما: المحروم المُحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم. وقالت عائشة رضي الله عنها: المحروم المُحارَف الذي لا يتيسر له مكسبه؛ يقال: رجل مُحارَف بفتح الراء أي محدود محروم، وهو خلاف قولك مُبارَك. وقد حورف كسبُ فلان إذا شُدِّد عليه في معاشه كأنه مِيلَ برزقه عنه. وقال قتادة والزهري: المحروم المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يُعلِم بحاجته. وقال الحسن ومحمد بن الحنفية: المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم. روي أن النبيّ ﷺ بعث سَرِيّة فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعدما فرغوا فنزلت هذه الآية ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1]. وقال عِكرمة: المحروم الذي لا يبقى له مال. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته. وقال القُرَظيّ: المحروم الذي أصابته الجائحة ثم قرأ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٦ ـ ٦٧] نظيره في قصة أصحاب الجنة حيث قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: ٢٧] وقال أبو قِلابة: كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله، فقال رجل من أصحابه: هذا المحروم فأقسموا له. وقيل: إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبِر عنه. وهو يروى عن ٱبن عباس أيضاً. وقال عبد الرحمن بن حميد: المحروم المملوك. وقيل: إنه الكلب؛ روي أن عمر بن عبد العزيز كان في طريق مكة، فجاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتف شاة فرمى بها إليه وقال: يقولون إنه المحروم. وقيل: إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوي الأنساب؛ لأنه قد حُرِم كسب نفسه حتى وجبت نفقته في مال غيره. وروى ٱبن وهب عن مالك: أنه الذي يحرم الرزق، وهذا قول حسن؛ لأنه يعم جميع الأقوال. وقال الشعبي: لي اليوم سبعون سنة منذ ٱحتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ. رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي. وأصله في اللغة الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع. قال علقمة:

ومُطْعَـمُ الغُنْـمِ يـومَ الغُنْـم مُطْعَمُـهُ ... أَنَّـى تَـوَجَّـه والمحـرومُ محـرومُ

وعن أنس أن النبيّ ﷺ قال:

---

(١) أخرجه الطبري ٣٢١٦٨ عن الحسن بن محمد بن الحنفية به وهذا مرسل.

[٥٦٥٧] «ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ لما ذكر أمر الفريقين بيّن أن في الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور؛ فمنها عود النبات بعد أن صار هشيماً، ومنها أنه قدّر الأقوات فيها قِواماً للحيوانات، ومنها سيرهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذّبة. والموقنون هم العارفون المحقّقون وحدانية ربهم، وصدق نبوّة نبيهم؛ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها.

قوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ قيل: التقدير وفي الأرض وفي أنفسكم آيات للموقنين. وقال قتادة: المعنى من سار في الأرض رأى آياتٍ وعبراً، ومن تفكر في نفسه علم أنه خُلق ليعبد الله. ٱبن الزبير ومجاهد: المراد سبيل الخلاء والبول. وقال السائب بن شريك: يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين؛ ولو شرب لبناً محضاً لخرج منه الماء ومنه الغائط؛ فتلك الآية في النفس. وقال ٱبن زيد: المعنى أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم: ٢٠]. السدي: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي في حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم. الحسن: وفي الهَرَم بعد الشباب، والضعف بعد القوّة، والشيب بعد السواد. وقيل: المعنى وفي خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح، وفي ٱختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر. إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وما خصّت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتّيها لما خُلِقت له، وما سَوّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني، وأنه إذا جسا[1] شيء منها جاء العجز، وإذا ٱسترخى أناخ الذل ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ

[٥٦٥٧] قال السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٦: أخرجه العسكري في «المواعظ» وابن مردويه عن أنس مرفوعاً به اهـ وعزاه المصنف للثعلبي ولم أقف على إسناده لكن تفرد هؤلاء به دليل علىٰ وهنه.

---

(١) جست اليد: تيبست عظامها وقل لحمها.

ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ يعني بصر القلب ليعرفوا كمال قدرته. وقيل: إنه نُجْح العاجز، وحرمان الحازم.

قلت: كل ما ذكر مراد في الاعتبار. وقد قدّمنا في آية التوحيد من سورة «البقرة» أن ما في بدن الإنسان الذي هو العالَم الصغير شيء إلا وله نظير في العالَم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفي ويغني لمن تدبر.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق. قال سعيد بن جبير: كل عين قائمة فإنها من الثلج. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه واللّهِ رزقكم ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم. وقال أهل المعاني: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ معناه وفي المطر رزقكم؛ سمى المطر سماء لأنه من السماء ينزل. قال الشاعر[1]:

إذا سقَط السماءُ بأرضِ قَومٍ ... رعيناه وإنْ كانوا غِضَابَا

وقال ابن كيسان: يعني وعلى ربّ السماء رزقكم؛ نظيره: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. وقال سفيان الثوري: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي عند الله في السماء رزقكم. وقيل: المعنى وفي السماء تقدير رزقكم، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب. وعن سفيان قال: قرأ واصل الأحدب ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ فقال: ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض! فدخل خَرِبة فمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً فإذا هو في الثالثة بدوخلةٍ[2] رُطبٍ، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرّق الله بالموت بينهما. وقرأ ابن محيصن ومجاهد «وَفِي السَّمَاء رَازِقُكُمْ» بالألف وكذلك في آخرها «إِنَّ اللّهَ هُوَ الرَّازِقُ». ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قال مجاهد: يعني من خير وشر. وقال غيره: من خير خاصة. وقيل: الشر خاصة. وقيل: الجنة؛ عن سفيان بن عيينة. الضحاك: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ من الجنة والنار. وقال ابن سيرين: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ من أمر الساعة. وقاله الربيع.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أكّد ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحقٌّ ثم أكده بقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وخصّ النطق من بين سائر الحواسّ؛ لأن ما سواه من الحواسّ يدخله التشبيه، كالذي

---

(١) هو معاوية بن مالك.

(٢) وعاء يوضع فيه التمر والرطب.

يُرى في المرآة، وٱستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها، والدويّ والطنين في الأذن، والنطق سالم من ذلك، ولا يُعتَرض بالصَّدَى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطق غير مَشُوب بما يشكل به. وقال بعض الحكماء: كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره. وقال الحسن:

[٥٦٥٨] بلغني أن نبيّ الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدّقوه قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾». وقال الأصمعي: أقبلتُ ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابيّ جِلفٌ جافٍ على قعود له متقلّداً سيفه وبيده قوسه، فدنا وسلّم وقال: ممن الرجل؟ قلت من بني أَصْمَعَ، قال: أنت الأصمَعي؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن؛ قال: وللرحمن كلام يتلوه الآدميون؟ قلت: نعم؛ قال: فاْتْل عليّ منه شيئاً؛ فقرأت ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ فقال: يا أصمعي حسبك!! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها، وقال: أعنّي على توزيعها؛ ففرّقناها على من أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولى نحو البادية وهو يقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ فمقتُّ نفسي ولمتُها، ثم حججت مع الرشيد، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي وهو ناحل مصفر، فسلّم عليّ وأخذ بيدي وقال: أتل عليّ كلام الرحمن، وأجلسني من وراء المقام فقرأت ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقًّا، وقال: وهل غير هذا؟ قلت: نعم؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ قال فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله! من الذي أغضب الجليل حتى حلف! ألم يصدقوه في قوله حتى ألجأوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثاً وخرجت بها نفسه. وقال يزيد بن مرثد: إن رجلاً جاع بمكان ليس فيه شيء فقال: اللهم رزقك الذي وعدتني فأتني به؛ فشبع ورَوِي من غير طعام ولا شراب. وعن أبي سعيد الخدريّ قال: قال النبيّ ﷺ:

[٥٦٥٩] «لو أن أحدكم فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت» أسنده الثعلبي. وفي

[٥٦٥٨] ضعيف. أخرجه الطبري ٣٢١٩١ بسنده عن الحسن بلاغاً عن رسول الله ﷺ. ومرسلات الحسن واهية.

[٥٦٥٩] أخرجه ابن عدي ٦/ ١٩ والديلمي ٥٠٩٢ والثعلبي كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد، وإسناده ضعيف فيه فضيل بن مرزوق غير قوي وشيخه عطية العوفي أضعف منه. وورد من حديث جابر أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٩٠ و ٨/ ٢٤٦ ومداره على المسيب بن واضح ضعيف ووثقه بعضهم فالحديث يقرب من =

سنن ابن ماجه عن حبة[1] وسواءِ ابني خالد قالا:

[٥٦٦٠] دخلنا على النبيّ ﷺ وهو يعالج شيئاً فأعنّاه عليه، فقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهزّزت رؤوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قِشر[2] ثم يرزقه الله».

وروي أن قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة فحزنوا لأجله، فخرجت عليهم أعرابية فقالت: مالي أراكم قد نكستم رؤوسكم، وضاقت صدوركم، هو ربنا والعالم بنا، رزقنا عليه يأتينا به حيث شاء! ثم أنشأت تقول:

لو كان في صخرةٍ في البحر راسيةٍ ... صَمًّا مُلَمْلَمَةٍ مَلْسَا نَواحِيها
رِزْقٌ لنفسٍ بَرَاهَا الله لانفلقتْ ... حتى تؤدي إليها كُلَّ ما فيها
أو كان بين طِباقِ السبعِ مسلكها ... لَسَهَّلَ الله في المرقَى مَرَاقيها
حتّى تنالَ الذي في اللوحِ خُطَّ لها ... إنْ لم تَنلْه وإلا سوف يأتِيها

قلت: وفي هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبيّ ﷺ، فسمع قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فرجع ولم يكلم النبيّ ﷺ وقال: ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب[3]؛ وقد ذكرناه في سورة «هود». وقال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ [لقمان: ١٦]. وقد مضى في «لقمان» وقد استوفينا هذا الباب في كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة) والحمد لله. وهذا هو التوكل الحقيقي الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ؛ رَزَقنا الله إياه ولا أحالنا على أحد سواه بمنّه وكرمه.

قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ قراءة العامة «مِثْلَ» بالنصب أي كمثل ﴿مَآ أَنَّكُمْ﴾ فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أي كمثل نطقكم و«ما» زائدة؛ قاله بعض الكوفيين. وقال الزجاج والفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد؛ أي لَحَقٌّ حقًّا مثل نطقك؛ فكأنه نعت لمصدر محذوف. وقول سيبويه: إنه مبني بُني حين أضيف إلى غير

= الحسن.

[٥٦٦٠] حسن. أخرجه ابن ماجه ٤١٦٥ من حديث حبة وسواءِ ابني خالد به وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح وسلام بن شرحبيل ذكره ابن حبان في الثقات ولم أر من تكلم فيه اهـ. وذكره الحافظ في ترجمته في الإصابة ١٥٦٢ وقال: هو حديث حسن.

---

(١) صحابي هو وأخوه، راجع الإصابة ١٥٦٢.
(٢) القشر هنا الثياب.
(٣) تقدم في سورة هود.

متمكن و«ما» زائدة للتوكيد. المازني: «مِثْلَ» مع «ما» بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح لذلك. وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: ولأن من العرب من يجعل مِثلا منصوباً أبداً؛ فتقول: قال لي رجلٌ مثلك، ومررت برجل مثلَك بنصب مثل على معنى كمثل. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش «مِثلُ» بالرفع على أنه صفة لحقّ؛ لأنه نكرة وإن أضيف إلى معرفة، إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التي يقع بعدها التماثل بين المتماثلين. و«مِثْلَ» مضاف إلى «أَنَّكُمْ» و«ما» زائدة ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر إذ لا فعل معها تكون معه مصدراً. ويجوز أن تكون بدلاً من «لحَقٌّ».

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط. «هَلْ أَتَاكَ» أي ألم يأتك. وقيل: «هَلْ» بمعنى قد؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]. وقد مضى الكلام في ضيف إبراهيم في «هود» «والحجر». ﴿الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي عند الله؛ دليله قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦] قال ٱبن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ زاد عثمان بن حَصِين ـ ورفائيل عليه الصلاة والسلام. وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه تسعة. وقال عطاء وجماعة: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملَك آخر. قال ٱبن عباس: سماهم مكرمين لأنهم غير مذعورين. وقال مجاهد: سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه. قال عبد الوهاب: قال لي علي بن عياض: عندي هريسة ما رأيك فيها؟ قلت: ما أحسن رأيي فيها؛ قال: ٱمض بنا؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب، فما راعني إلا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت وعلى عاتقه المِنْدِيل، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو علمتُ يا أبا الحسن أن الأمر هكذا؛ قال: هَوِّن عليك فإنك عندنا مُكرَم، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس؛ ٱنظر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ تقدّم في«الحجر». ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي عليكم سلام. ويجوز بمعنى أمري سلام أو ردّي لكم سلام. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً «سِلْمٌ» بكسر السين. ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي أنتم قوم منكرون؛ أي غرباء لا نعرفكم. وقيل: لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم،

فقال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾. وقيل: أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير ٱستئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض. وقيل: خافهم؛ يقال: أنكرته إذا خفته، قال الشاعر:

فَأَنْكَرَتْنِي وما كان الذي نَكِرَتْ   مِنَ الحوادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ قال الزجاج: أي عدل إلى أهله. وقد مضى في ﴿والصافات﴾. ويقال: أراغ وٱرتاغ بمعنى طلب، وماذا تُرِيغ أي تريد وتطلب، وأراغ إلى ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]. ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ أي كما قلنا لك وأخبرناكِ ﴿قَالَ رَبُّكِۖ﴾ فلا تَشكِّي فيه، وكان بين البشارة والولادة سنة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم يومئذ ٱبن مائة سنة وقد مضى هذا. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٠﴾ حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه.

قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ يعني العجل. ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧﴾ قال قتادة: كان عامّة مالِ إبراهيم البقر، وٱختاره لهم سميناً زيادة في إكرامهم. وقيل: العِجل في بعض اللغات الشاة. ذكره القشيري. وفي الصحاح: العِجل ولد البقرة والعِجَّوْل مثله والجمع العَجاجيل والأنثى عِجْلة، عن أبي الجراح، وبقرة مُعْجِل ذات عِجْل، وعِجْل قبيلة من ربيعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۖ﴾ أي أَحَسَّ منهم في نفسه خوفاً. وقيل: أضمر لما لم يتَحرَّموا بطعامه. ومن أخلاق الناس: أن من تَحرَّم بطعام إنسان أمنه. وقال عمرو بن دينار: قالت الملائكة لا نأكل إلا بالثمن. قال كلوا وأدّوا ثمنه. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تسمُّونَ الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لهذا ٱتخذك الله خليلاً. وقد تقدّم هذا في «هود». ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْۖ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ أي بولد يولد له من سارة زوجته. وقيل: لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدّقهم، فدعوا الله فأحيا العجل الذي قرّبه إليهم. وروي عون بن أبي شدّاد: أن جبريل مسح العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار. ومعنى «عَلِيمٍ» أي يكون بعد بلوغه من أولي العلم بالله وبدينه. والجمهور على أن المبشَّر به هو إسحاق. وقال مجاهد وحده: هو إسماعيل وليس بشيء فإن الله تعالى يقول: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾. وهذا نص.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٠﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي في صيحة وضجة؛ عن ٱبن عباس وغيره. ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته. وقال عكرمة وقتادة: إنها الرَّنة والتأوّه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان. قال الفراء: وإنما هو كقولك أقبل يشتمني أي أخذ في شتمي. وقيل: أقبلت في صَرَّة أي في جماعة من النساء تسمع كلام الملائكة. قال الجوهري: الصّرة الضجّة والصيحة، والصَّرة الجماعة، والصَّرة الشدّة من كرب وغيره، قال ٱمرؤ القيس:

فَأَلْحَقَهُ بالهَادِيَاتِ ودونَهُ جَوَاحِرُها في صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة. وصرة القيظِ شدّة حَرّه. فلما سمعت سارة البشارة صَكّت وجهها؛ أي ضربت يدها على وجهها على عادة النّسوان عند التعجب؛ قاله سفيان الثوري وغيره. وقال ٱبن عباس: صَكّت وجهها لطمته. وأصل الصّك الضرب؛ صكّه أي ضربه؛ قال الراجز[1]:

يا كَرَوَاناً صُكَّ فاكْبَأَنّا

قال الأموي: كَبَن الظبي إذا لطأ بالأرض وٱكْبَأَنّ ٱنقبض. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ أي أتلد عجوز عقيم. الزجاج: أي وقالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد، كما قالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا﴾. ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ أي كما قلنا لك وأخبرناكِ ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ فلا تَشكّي فيه، وكان بين البشارة والولادة سنة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم يومئذ ٱبن مائة سنة وقد مضى هذا. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٠﴾ حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١﴾ لما تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي ما شأنكم وقصتكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢﴾ يريد قوم لوط. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣﴾ أي لنرجمهم بها. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي مُعَلّمة. قيل: كانت مخططة بسواد. وبياض. وقيل: بسواد وحُمرة. وقيل: «مُسَوَّمَةً» أي معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل:

---

(١) هو مدرك بن حصن.

على كل حجر أسم من يهلك به. وقيل: عليها أمثال الخواتيم. وقد مضى هذا كله في «هود». فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذَّاذهم فلم يفلت منهم مخبر. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي عند الله وقد أعدّها لرجم من قضى برجمه. ثم قيل: كانت مطبوخة طبخ الآجر، قاله ابن زيد؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] على ما تقدّم بيانه في «هود». وقيل: هي الحجارة التي نراها وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور. وإنما قال: ﴿مِّن طِينٍ ۝٣٣﴾ ليعلم أنها ليست حجارة الماء التي هي البَرَد. حكاه القشيري.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥﴾ أي لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قومه من المؤمنين؛ لئلا يهلك المؤمنون، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١]. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ يعني لوطاً وبنتيه وفيه إضمار؛ أي فما وجدنا فيها غير أهل بيت. وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل. وقوله: «فِيهَا» كناية عن القرية ولم يتقدّم لها ذكر؛ لأن المعنى مفهوم. وأيضاً فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢﴾ يدل على القرية؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية. وقيل: الضمير فيها للجماعة. والمؤمنون والمسلمون هاهنا سواء فجنّس اللفظ لئلا يتكرر، كما قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وقيل: الإيمان تصديق القلب، والإسلام الانقياد بالظاهر، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً. فسماهم في الآية الأولى مؤمنين؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. وقد مضى الكلام في هذا المعنى في «البقرة» وغيرها. وقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: ١٤] يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل[1] عليه السلام في صحيح مسلم وغيره. وقد بيناه في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم؛ نظيره: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾ [العنكبوت: ٣٥]. ثم قيل: الآية المتروكة نفس القرية الخربة. وقيل: الحجارة المنضودة التي رُجموا بها هي الآية. ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ لأنهم المنتفعون.

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ أي وتركنا أيضاً في قصة موسى آية. وقال الفراء: هو

(١) حديث جبريل مشهور حيث سأل عن الإيمان والإسلام إلخ وتقدم.

معطوف على قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي بحجة بيِّنة وهي العصا. وقيل: أي بالمعجزات من العصا وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي فرعون أعرض عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ أي بجموعه وأجناده؛ قاله ابن زيد. وهو معنى قول مجاهد، ومنه قوله: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠] يعني المنعة والعشيرة. وقال ابن عباس وقتادة: بقوته. ومنه قول عنترة:

فمـا أَوْهَـى مِـرَاسُ الْحَـرْبِ رُكْنِـي ... ولَكِـنْ مَـا تَقَـادَمَ مِـن زَمَـانِـي

وقيل: بنفسه. وقال الأخفش: بجانبه؛ كقوله تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت: ٥١] وقاله المؤرِّج. الجوهري: ورُكْن الشيء جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد أي عزة ومنعة. القشيري: والركن جانب البدن. وهذا عبارة عن المبالغة في الإعراض عن الشيء. ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ «أو» بمعنى الواو، لأنهم قالوها جميعاً. قاله المؤرج والفراء، وأنشد بيت جرير:

أَثَعْلَبَـــةَ الفَـــوَارِسَ أَو رِيَـــاحَـــا ... عَـدَلْـتَ بِهِـم طُهَيَّـةَ والْخِشَـابَـا

وقد توضع «أو» بمعنى الواو؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: ٢٤] والواو بمعنى، كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] وقد تقدّم جميع هذا. ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ لكفرهم وتوليهم عن الإيمان. ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي طرحناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ يعني فرعون، لأنه أتى ما يلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ﴾ أي وتركنا في عاد آية لمن تأمل. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ وهي التي لا تُلْقح سحاباً ولا شجراً، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة؛ ومنه امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد. ثم قيل: هي الجنوب. روى ابن أبي ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٦٦١] «الريح العقيم الجَنُوب» وقال مقاتل: هي الدبور كما في الصحيح عن النبيّ ﷺ:

[٥٦٦١] ذكره المصنف رحمه الله مرفوعاً تبعاً للماوردي في تفسيره ٥/ ٣٧٣ وقد أسنده الطبري ٣٢٢٢٦ عن ابن المسيب من قوله وكرره ٣٢٢٢٧ عن ابن أبي ذئب عن خاله الحارث بن عبد الرحمن من قوله. وهو الصواب. ثم إن المرفوع الذي ذكره المصنف مرسل فإن الحارث تابعي.

[٥٦٦٢] «نُصِرت بالصَّبَا وأهلِكت عاد بالدَّبُور». وقال ابن عباس: هي النكباء. وقال عُبيد بن عُمير: مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضاً أنها الصَّبا؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ أي كالشيء الهشيم؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتت: رميم وهشيم. قال ابن عباس: كالشيء الهالك البالي؛ وقاله مجاهد. ومنه قول الشاعر[1]:

تَرَكْتَنِي حِينَ كَفَّ الدَّهرُ مِنْ بَصَرِي ... وإذْ بَقِيتُ كعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبَالِي

وقال قتادة: إنه الذي دِيس من يابس النبات. وقال أبو العالية والسدي: كالتراب المدقوق. قُطْرب: الرَّمِيم الرَّماد. وقال يمانٍ: ما رمته الماشية من الكلأ بمرمتها. ويقال للشفة المِرَمَّة والمِقَمَّة بالكسر، والْمَرَمَّة بالفتح لغة فيه. وأصل الكلمة من رَمَّ العظمُ إذا بلي؛ تقول منه: رَمَّ العظم يَرِمُّ بالكسر رِمَّة فهو رميم، قال [الشاعر]:

ورأَى عَواقِبَ خُلْفِ ذَاكَ مَذَمَّةً ... تَبْقَى عليهِ والعظامُ رَمِيمُ

والرِّمة بالكسر العظام البالية والجمع رِمم ورِمام. ونظير هذه الآية: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] حسب ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي وفيهم أيضاً عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣﴾ أي إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما في هود: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]. وقيل: معنى ﴿تَمَتَّعُوا﴾ أي أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم. ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي الموت. وقيل: هي كل عذاب مهلك. قال الحسين بن واقد: كلّ صاعقة في القرآن فهو العذاب. وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهد والكسائي «الصَّعْقَةَ» يقال صَعِق الرجلُ صَعْقة وتَصْعاقاً أي غُشِي عليه. وصَعَقتهم السماء أي ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضاً صيحة العذاب وقد مضى في «البقرة» وغيرها. ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤﴾ إليها نهاراً. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ قيل: معناه من نهوض. وقيل: ما

[٥٦٦٢] متفق عليه وقد تقدم مراراً.

---

(١) هو جرير.

أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم؛ تقول: لا أقوم لهذا الأمر أي لا أطيقه. وقال ابن عباس: أي ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي ممتنعين من العذاب حين أهلكوا، أي ما كان لهم ناصر.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو «وَقَوْمِ نُوحٍ» بالخفض؛ أي وفي قوم نوح آية أيضاً. الباقون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفاً على الهاء والميم في ﴿أَخَذَتْهُمْ﴾ أو الهاء في ﴿أَخَذْنَاهُ﴾ أي فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح، أو ﴿نَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ونبذنا قوم نوح، أو يكون بمعنى اذكر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ لما بيّن هذه الآيات قال: وفي السماء آيات وعِبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان. ومعنى «بِأَيْدٍ» أي بقوة وقدرة. عن ابن عباس وغيره. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أي وإنا لذو سَعة، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده. وقيل: أي وإنا لموسعون الرزق على خلقنا. عن ابن عباس أيضاً. الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضاً: وإنا لموسعون الرزق بالمطر. وقال الضحاك: أغنيناكم؛ دليله: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦]. وقال القُتَبِي: ذو سعة على خلقنا. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينهما وبين الأرض سعة. الجوهري: وأوسعَ الرجلُ أي صار ذا سَعة وغِنىً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي أغنياء قادرون. فشمل جميع الأقوال. ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي بسطناها كالفراش على وجه الماء ومددناها. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي فنعم الماهدون نحن لهم. والمعنى في الجمع التعظيم؛ مَهدت الفراشَ مَهْداً بَسَطته ووطّأته، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها.

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي صنفين ونوعين مختلفين. قال ابن زيد: أي ذكراً وأنثى وحلواً وحامضاً ونحو ذلك. مجاهد: يعني الذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسهل والجبل، والجنّ والإنس، والخير والشر، والبكرة والعشيّ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطّعوم والأراييح والأصوات. أي جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة. وقيل: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ لتعلموا أن خالق الأزواج فرد، فلا

يقدّر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ٱبتداء ولا ٱنتهاء؛ إذ هو عز وجل وتر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ لما تقدّم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد؛ أي قل لقومك: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي فِرّوا من معاصيه إلى طاعته. وقال ٱبن عباس: فِروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه فِرّوا منه إليه وٱعملوا بطاعته. وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ٱخرجوا إلى مكة. وقال الحسين بن الفضل: ٱحترزوا من كل شيء دون اللّهِ فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقال أبو بكر الورّاق: فِروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقال الجُنَيد: الشيطان داعٍ إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه. وقال ذو النون المصري: ففِرّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن عثمان: فِرّوا من أنفسكم إلى ربكم. وقال أيضاً: فِروا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم. وقال سهل بن عبد الله: فِرّوا مما سوى الله إلى الله. ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي أنذركم عقابه على الكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أمر محمداً ﷺ أن يقول هذا للناس وهو النذير. وقيل: هو خطاب من الله للخلق. ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من محمد وسيوفه ﴿نَذِيرٌ﴾ أي أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بي؛ قاله ٱبن عباس.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ هذا تسلية للنبيّ ﷺ؛ أي كما كذّبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون، كذّب من قبلهم وقالوا مثل قولهم. والكاف من «كَذَٰلِكَ» يجوز أن تكون نصباً على تقدير أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدّمني من الرسل الذين أنذروا قومهم، أو رفعاً على تقدير الأمر كذلك أي كالأول. والأوّل تخويف لمن عصاه من الموحِّدين، والثاني لمن أشرك به من الملحِدين. والتمام على قوله: «كَذَٰلِكَ» عن يعقوب وغيره.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ أي أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب. وتواطؤوا عليه؛

والألف للتوبيخ والتعجب. ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ ﴾ أي لم يوصِ بعضهم بعضاً بل جَمعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحدّ في الكفر.

قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم وأصفح عنهم ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ ﴾ عند الله لأنك أديت ما عليك من تبليغ الرسالة، ثم نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ ﴾. وقيل: نسخ بآية السيف. والأوّل قول الضحاك؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة. وقال مجاهد: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عنهم ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ ﴾ أي ليس يلومك ربك على تقصير كان منك ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ أي بالعِظة فإن العِظة ﴿ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. قتادة: ﴿وَذَكِّرْ﴾ بالقرآن ﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ به ﴿ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ ﴾. وقيل: ذكرهم بالعقوبة وأيام الله. وخصّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ قيل: إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلا ليوحدون. قال القشيريّ: والآية دخلها التخصيص على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ومن خُلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ [الحجرات: ١٤] وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي. وفي قراءة عبد الله: «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنس مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ» وقال عليّ رضي الله عنه: أي وما خلقت الجنّ والإنس إلا لآمرهم بالعبادة. وٱعتمد الزجاج على هذا القول، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [التوبة: ٣١] فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذللوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه، وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه. وقيل: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ أي إلا ليقروا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً؛ رواه عليّ بن أبي طلحة عن ٱبن عباس. فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصنعة. مجاهد: إلا ليعرفوني. الثعلبي: وهذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده. ودليل هذا

التأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٩] وما أشبه هذا من الآيات. وعن مجاهد أيضاً: إلا لآمرهم وأنهاهم. زيد بن أسلم: هو ما جُبِلوا عليه من الشّقوة والسعادة؛ فخلق السعداء من الجنّ والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء منهم للمعصية. وعن الكلبي أيضاً: إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدّة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدّة والبلاء دون النعمة والرخاء؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان: ٣٢] الآية. وقال عِكْرمة: إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد. وقيل: المعنى إلا لأستعبدهم. والمعنى متقارب؛ تقول: عبد بيِّن العبودة والعبودية، وأصل العبودية الخضوع والذل. والتعبيد التذليل؛ يقال: طريق معبد. قال[1]:

وظِيفاً وَظِيفاً فـوقَ مَـوْرٍ مُعَبَّـدِ

والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخذه عبداً. وكذلك الاعتباد. والعبادة: الطاعة، والتَّعبد التَّنسك. فمعنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليذِلّوا ويخضعوا ويعبدوا. ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ «مِنْ» صلة أي رزقاً بل أنا الرزّاق والمعطي. وقال ابن عباس وأبو الجوزاء: أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها. وقيل: المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ وقرأ ابن مُحيصِن وغيره «الرَّازِقُ». ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي الشديد القوي: . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب والنّخعي «الْمَتِينِ» بالجر على النعت للقوّة. الباقون بالرفع على النعت لـ«الرزّاق»، أو «ذُو» من قوله: ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ﴾ أو يكون خبر ابتداء محذوف؛ أو يكون نعتاً لاسم إنّ على الموضع، أو خبراً بعد خبر. قال الفراء: كان حقّه المتينة فذكَّره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرَم المحكم الفتل؛ يقال: حبل متين وأنشد الفرّاء:

لِكُـلِّ دَهْـرٍ قَـدْ لَبِسْـتُ أَثْـوُبَـا ... حَتَّـى اكْتَسَـى الـرَّأْسُ قِنَـاعـاً أَشْيَبَـا

مِـن ريطـةٍ وَالْيُمْنَـةَ الْمُعَصَّبَـا

فذكَّر المعصَّب؛ لأن اليمنة صنف من الثياب؛ ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي وعظ ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٦٧] أي الصياح والصوت.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي كفروا من أهل مكة ﴿ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾

---

(١) هو طرفة بن العبد.

أي نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة. وقال ٱبن الأعرابي: يقال يوم ذَنُوب أي طويل الشر لا ينقضي. وأصل الذَّنُوب في اللغة الدَّلو العظيمة، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل للذَّنُوب نصيب من هذا؛ قال الراجز:

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ ... فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

وقال عَلْقمة:

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بِنِعْمةٍ ... فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وقال آخر[1]:

لَعَمْرُكَ والمَنَايَا طارِقاتٌ ... لِكلِّ بَنِي أَبٍ منها ذَنُوبُ

الجوهري: والذَّنُوب الفرس الطويل الذَّنب، والذَّنُوب النصيب، والذَّنُوب لحم أسفل المَتْن، والذَّنُوب الدَّلو الملأى ماء. وقال ٱبن السكيت: فيها ماء قريب من الملء يؤنث ويذكر، ولا يقال لها وهي فارغة ذَنُوب؛ والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة والكثير ذَنائِب، مثل قَلُوص وقَلاَئص. ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾ أي فلا يستعجلون نزول العذاب بهم؛ لأنهم قالوا: يا محمد ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢﴾ فنزل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجّل بهم ٱنتقامه، ثم لهم في الآخرة العذاب الدائم، والخزي القائم، الذي لا ٱنقطاع له ولا نفاد، ولا غاية ولا آباد. تم تفسير سورة «والذاريات» والحمد لله.

سورة والطور

مكية كلها في قول الجميع، وهي تسعٌ وأربعون آية

روى الأئمة عن جبير بن مُطْعِم قال سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بالطور في المغرب. متفق عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ الطور ٱسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى؛ أقسم الله به تشريفاً له وتكريماً وتذكيراً لما فيه من الآيات، وهو أحد جبال الجنة. وروى

(١) هو أبو ذؤيب.

إسماعيل بن إسحٰق قال: حدّثنا إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه أنه قال:

[٥٦٦٣] قال رسول الله ﷺ: «أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة مَلاَحم من مَلاَحم الجنة»[(١)] قيل: فما الأجبل؟ قال: «جبل أُحُد يحبنا ونحبه والطُّور جبل من جبال الجنة ولُبْنان جبل من جبال الجنة والجودي جبل من جبال الجنة» وذكر الحديث، وقد استوفيناه في كتاب «التذكرة». قال مجاهد: الطور هو بالسريانية الجبل والمراد به طورسينا. وقاله السدّي. وقال مقاتل بن حيان: هما طوران يقال لأحدهما طُورسينا والآخر طورزيتا؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون. وقيل: هو جبل بمَدْيَن وٱسمه زَبير. قال الجوهري: والزَّبير الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام.

قلت: ومدين بالأرض المقدّسة وهي قرية شعيب عليه السلام. وقيل: إن الطُّور كل جبل أنبت، وما لا ينبت فليس بطور؛ قاله ابن عباس. وقد مضى في «البقرة» مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ ﴾ أي مكتوب؛ يعني القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ ﴾ [الواقعة: ٧٧]. وقيل: يعني سائر الكتب المنزلة على الأنبياء، وكان كل كتاب في رَقّ ينشره أهله لقراءته. وقال الكلبي: هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم. وقال الفراء: هو صحائف الأعمال؛ فمن آخذ كتابه بيمينه، ومن آخذ كتابه بشماله؛ نظيره: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ﴾ [الإسراء: ١٣] وقوله: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ ﴾ [التكوير: ١٠]. وقيل: إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء يقرؤون فيه ما كان وما يكون. وقيل: المراد ما كتب الله في قلوب الأولياء من المؤمنين؛ بيانه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قلت: وفي هذا القول تَجوُّز؛ لأنه عبّر بالقلوب عن الرِّق. قال المبرّد: الرَّق ما رُقِّق من الجلد ليكتب فيه، والمنشور المبسوط. وكذا قال الجوهري في الصحاح، قال: والرَّق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق. ومنه قوله تعالى: ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ ﴾ والرَّق أيضاً العظيم من السَّلاحِف. قال أبو عبيدة: وجمعه رُقُوق. والمعنى المراد ما قاله

[٥٦٦٣] واهٍ بمرة. أخرجه ابن عدي ٦/ ٥٩ ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٤٨ من حديث كثير بن عوف المزني عن أبيه عن جده وقال: لايصح. قال أحمد: كثير منكر الحديث وقال النسائي والدارقطني: متروك. وقال الشافعي: هو ركن من أركان الكذب اهـ.

---

(١) الملاحم هي: بدر وأحد والخندق وخيبر. كما وردت عند ابن عدي وابن الجوزي.

الفراء؛ والله أعلم. وكل صحيفة فهي رَقٌّ لرقة حواشيها؛ ومنه قول المتلمس:

فكأنّما هي من تَقَادُمِ عَهْدِها ... رَقٌّ أتيح كتابُها مَسطور

وأما الرِّق بالكسر فهو المِلك؛ يقال: عبد مرقوق. وحكى الماورديّ عن ٱبن عباس: أن الرَّق بالفتح ما بين المشرق والمغرب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ قال علي وٱبن عباس وغيرهما: هو بيت في السماء حِيَال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملَك، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه. قال علي رضي الله عنه: هو بيت في السماء السادسة. وقيل: في السماء الرابعة؛ روى أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعَة، قال:

[٥٦٦٤] قال رسول الله ﷺ: «أوتي بي إلى السماء الرابعة فرفع لنا البيت المعمور فإذا هو حِيال الكعبة لو خَرَّ خَرَّ عليها يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه» ذكره الماورديّ. وحكى القشيري عن ٱبن عباس أنه في السماء الدنيا. وقال أبو بكر الأنباري: سأل ٱبن الكواء عليًّا رضي الله عنه قال: فما البيت المعمور؟ قال: بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضُّراح. وكذا في «الصحاح»: والضُّراح بالضم بيت في السماء وهو البيت المعمور عن ٱبن عباس. وعُمْرانه كثرة غاشيته من الملائكة. وقال المهدوي عنه: حذاء العرش. والذي في صحيح مسلم عن مالك بن صعصعة عن النبيّ ﷺ في حديث الإسراء:

[٥٦٦٥] «ثم رُفع إليّ البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخرُ ما عليهم» وذكر الحديث. وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال:

[٥٦٦٦] «أُتِيت بالبُرَاق» الحديث؛ وفيه: «ثم عرج بنا إلى السابعة فٱستفتح جبريل عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومَن معك قال محمد ـ ﷺ ـ قيل وقد بُعِث إليه قال قد بُعِث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه». وعن ابن عباس أيضاً قال: لله في السموات والأرضين خمسَة عشرَ بيتاً، سبعة في السموات وسبعة في الأرضين والكعبة، وكلها مقابلة للكعبة. وقال الحسن: البيت المعمور هو الكعبة، البيت الحرام

[٥٦٦٤] حديث مالك بن صعصعة تقدم.

[٥٦٦٥] انظر ما قبله.

[٥٦٦٦] أخرجه البخاري وغيره وتقدم.

الذي هو معمور من الناس، يعمره الله كل سنة بستمائة ألف، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة في الأرض. وقال الربيع بن أنس: إن البيت المعمور كان في الأرض موضع الكعبة في زمان آدم عليه السلام، فلما كان زمان نوح عليه السلام أمرهم أن يحجُّوا فأبوا عليه وعصوه، فلما طغى الماء رفع فجعل بحذائه في السماء الدنيا، فيَعمرُه كلَّ يوم سبعونَ ألفَ ملَك، ثم لا يرجعون إليه حتى ينفخ في الصور، قال: فبوّأ الله جلّ وعز لإبراهيم مكان البيت حيث كان؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]. ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ يعني السماء سماها سقفاً؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت؛ بيانه: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وقال ابن عباس: هو العرش وهو سقف الجنة. ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ قال مجاهد: الموقَد؛ وقد جاء في الخبر:

[٥٦٦٧] «إن البحر يُسجَر يوم القيامة فيكون ناراً». وقال قتادة: المملوء. وأنشد النحويون للنَّمِر بن تَوْلَب:

إذا شـاء طـالـعَ مَسْجـورةً تَـرَى حَـولَهـا النَّبْـعَ والسَّمـاسَمَـا

يريد وَعْلاً يطالع عينا مسجورة مملوءة. فيجوز أن يكون المملوء ناراً فيكون كالقول المتقدّم. وكذا قال الضحاك وشمر بن عطية ومحمد بن كعب والأخفش بأنه المَوْقِد المحميّ بمنزلة التَّنُّور المسجور. ومنه قيل: للمِسْعَر مِسْجَر؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التكوير: ٦] أي أوقدت؛ سَجَرت التَّنُّور أسجره سجراً أي أحميته. وقال سعيد بن المسيِّب: قال عليّ رضي الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. قال ما أُرَاك إلا صادقاً، وتلا: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾. «وَإِذَا البِحَارُ سُجِرتْ» مخففة. وقال عبد الله بن عمرو: لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم. وقال كعب: يُسجَر البحر غداً فيزاد في نار جهنم؛ فهذا قول وقال ابن عباس: المسجور الذي ذهب ماؤه. وقاله أبو العالية. وروى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس قال: خرجت أَمَة لتستقي فقالت: إن الحوض مسجور أي فارغ، قال ابن أبي داود: ليس لذي الرُّمة حديث إلا هذا. وقيل: المسجور أي المفجور؛ دليله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [الانفطار: ٣] أي تنشفها الأرض فلا يبقى فيها ماء. وقول ثالث قاله عليّ رضي الله عنه وعِكرمة. قال أبو مكين: سألت عِكرمة عن البحر المسجور فقال: هو بحر دون العرش. وقال عليّ: تحت العرش

[٥٦٦٧] غريب مرفوعاً. وقد ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢١٥ بقوله وروي من غير عزو لأحد. وذكره الزمخشري في كشافه ٤/ ٤٠٨ أيضاً بقوله روي من غير عزو فلم يخرجه الحافظ وهذا دليل على أنه ليس بحديث مرفوع. والله أعلم.

فيه ماء غليظ. ويقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم. وقال الربيع بن أنس: المسجور المختلط العذب بالملح.

قلت: وإليه يرجع معنى ﴿فُجِّرَتْ ۝٣﴾ [الانفطار: ٣] في أحد التأويلين؛ أي فُجِّرَ عذبُها في مالحها: والله أعلم. وسيأتي. وروى عليّ ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المسجور المحبوس. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ هذا جواب القسم؛ أي واقع بالمشركين. قال جُبَير بن مُطْعِم:

[٥٦٦٨] قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ فكأنما صدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب. وقال هشام بن حسان: انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ فبكى الحسن وبكى أصحابه؛ فجعل مالك يضطرب حتى غُشِي عليه. ولما وُلِّي بكّار القضاء جاء إليه رجلان يختصمان فتوجهت على أحدهما اليمين، فرغب إلى الصلح بينهما، وأنه يعطي خصمه من عنده عوضاً عن يمينه فأبى إلا اليمين، فأحلفه بأوّل «وَالطُّورِ» إلى أن قال له قل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ إن كنت كاذباً؛ فقالها فخرج فكسر من حينه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩﴾ العامل في يوم قوله: «وَاقِعٌ» أي يقع العذاب بهم يوم القيامة وهو اليوم الذي تمور فيه السماء. قال أهل اللغة: مار الشيءُ يَمور مَوْراً، أي تحرّك وجاء وذهب كما تتكفّأ النخلةُ العَيْدانة، أي الطويلة، والتُّمور مثله. وقال الضحاك: يموج بعضها في بعض. مجاهد: تدور دوراً. أبو عبيدة والأخفش: تكفأ، وأنشد للأعشى:

كأنّ مِشْيَتها من بيتِ جارتِها ... مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل تجري جرياً. ومنه قول جرير:

[٥٦٦٨] أخرجه البخاري ٧٦٥ و ٣٠٥٠ و ٤٨٥٤ ومسلم ٤٦٣ وأبو داود ٨١١ والنسائي ٢/ ١٦٩ وابن ماجه ٨٣٢ وأحمد ٤/ ٨٤ من حديث جبير بن مطعم. والسياق للبخاري في روايته الأخيرة دون لفظ «فأسلمت...» فإنه في الرواية ٤٠٢٣ «وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي».

وما زالـتِ القَتْلَـى تَمُـورُ دِمـاؤُهَـا   بِـدجلـةَ حتَّـى مـاءُ دجلـةَ أشْكَـلُ

وقال ابن عباس: تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب. وقيل: يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض. والمور أيضاً الطريق. ومنه قول طَرفة:

... فَـوْقَ مَـوْرٍ مُعَبَّـدِ

والْمَوْرُ الموج. وناقة مَوَّارة اليد أي سريعة. والبعير يمور عضداه إذا ترددا في عَرْض جنبه، قال الشاعر:

على ظَهْـرِ مَوَّارِ المِـلاَطِ حِصَـانِ

المِلاط الجنب. وقولهم: لا أدري أغارَ أم مَارَ؛ أي أتى غوراً أم دار فرجع إلى نجد. والمُور بالضم الغبار بالريح. وقيل: إن السماء هاهنا الفلك وموره اضطراب نظمه واختلاف سيره؛ قاله ابن بحر. ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ قال مقاتل: تسير عن أماكنها حتى تستوي بالأرض. وقيل: تسير كسير السحاب اليوم في الدنيا؛ بيانه ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النحل: ٨٨]. وقد مضى هذا المعنى في «الكهف». ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ «وَيْلٌ» كلمة تقال للهالك، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة. ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ أي في تردد في الباطل، وهو خوضهم في أمر محمد بالتكذيب. وقيل: في خوض في أسباب الدنيا يلعبون لا يذكرون حساباً ولا جزاء. وقد مضى في «براءة».

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ «يَوْمَ» بدل من يومئذ. و«يُدَعُّونَ» معناه يدفعون إلى جهنم بشدّة وعنف، يقال: دَعَعْتُه أدعُّه دعًّا أي دفعته، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾ [الماعون: ٢]. وفي التفسير: إن خزنة جهنم يَغُلُّون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم في النار دفعاً على وجوههم، وزَخًّا في أعناقهم حتى يردوا النار. وقرأ أبو رجاء العطاردي وابن السَّمَيْقَع «يَوْمَ يُدعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً» بالتخفيف من الدعاء فإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع؛ أي يقال لهم: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ الذي ترون الآن بأعينكم ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾. وقيل: «أَمْ» بمعنى بل؛ أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون.

قوله تعالى: ﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ أي تقول لهم الخزنة ذوقوا حرّها بالدخول فيها. ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن فـ«سواء» خبره محذوف، أي سواء عليكم الجزع والصبر فلا ينفعكم شيء، كما أخبر عنهم أنهم

يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]. ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾﴾ لما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين أيضاً ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي ذوي فاكهة كثيرة؛ يقال: رجل فاكه أي ذو فاكهة، كما يقال: لابِنٌ وتامِرٌ؛ أي ذو لبن وتمر؛ قال[1]:

وغَرَرْتَنِي وزعمتَ أنـ ... ـكَ لابِنٌ بالصَّيْفِ تَامِرْ

أي ذو لبن وتمر. وقرأ الحسن وغيره: «فَكِهِينَ» بغير ألف ومعناه معجبين ناعمين في قول ٱبن عباس وغيره؛ يقال: فَكِه الرجلُ بالكسر فهو فِكهٌ إذا كان طيّب النفس مزاحاً. والفكه أيضاً الأشِر البطِر. وقد مضى في «الدخان» القول في هذا. ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ﴾ أي أعطاهم ﴿رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾. ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ أي يقال لهم ذلك. ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر. قال الزجاج: أي ليهنئكم ما صرتم إليه «هَنِيئاً». وقيل: أي مُتِّعتم بنعيم الجنة إمتاعاً هنيئاً. وقيل: أي كلوا وٱشربوا هنئتم «هَنِيئاً» فهو صفة في موضع المصدر. وقيل: «هَنِيئاً» أي حلالاً. وقيل: لا أذى فيه ولا غائلة. وقيل: «هَنِيئاً» أي لا تموتون؛ فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص غير هنيء.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ سُرُر جمع سرير وفي الكلام حذف تقديره: متكئين على نمارق سرر. ﴿مَّصۡفُوفَةٖ﴾ قال ٱبن الأعرابي: أي موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًّا. وفي الأخبار أنها تصفّ في السماء بطول كذا وكذا؛ فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها. قال ٱبن عباس: هي سرر من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدر والياقوت، والسرير ما بين مكة وأيلة. ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾﴾ أي قرنّاهم بهنّ. قال يونس بن حبيب: تقول العرب زوجته ٱمرأة وتزوّجت ٱمرأةً؛ وليس من كلام العرب تزوّجت بامرأة. قال: وقول الله عز وجل: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾﴾ أي قرنّاهم بهنّ؛ من قول الله تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢]

---

(١) هو الحطيئة.

أي وقرناءهم. وقال الفرّاء: تزوّجت بامرأة لغة في أزد شنوءة. وقد مضى القول في معنى الحور العين.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ قرأ العامة ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ﴾ بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء. وقرأ أبو عمرو «وَأَتْبَعْنَاهُمْ» بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون؛ آعتباراً بقوله: ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ﴾؛ ليكون الكلام على نسق واحد. فأما قوله: ﴿ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ الأولى فقرأها بالجمع آبن عامر وأبو عمرو ويعقوب ورواها عن نافع إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول وضم باقيهم. وقرأ الباقون ﴿ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ على التوحيد وضم التاء وهو المشهور عن نافع. فأما الثانية فقرأها نافع وآبن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع. الباقون «ذُرِّيَّتَهُمْ» على التوحيد وفتح التاء. وآختلف في معناه؛ فقيل عن آبن عباس أربع روايات: الأولى أنه قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقَرَّ بهم عينه، وتلا هذه الآية. ورواه مرفوعاً النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد بن جبير عن آبن عباس أن رسول الله ﷺ قال:

[٥٦٦٩] «إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقرَّ بهم عينه» ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِم بِإِيمَانٍ﴾ الآية. قال أبو جعفر: فصار الحديث مرفوعاً عن النبيّ ﷺ وكذا يجب أن يكون؛ لأن آبن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه. الزمخشري: فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وبآجتماع أولادهم ونسلهم بهم. وعن آبن عباس أيضاً أنه قال: إن الله ليلحِق بالمؤمن ذرّيته الصّغار الذين لم يبلغوا الإيمان؛ قاله المهدوي. والذرية تقع على الصغار والكبار، فإن جعلت الذرية ها هنا للصغار كان قوله تعالى: «بِإِيمَانٍ» في موضع الحال من المفعولين، وكان التقدير «بِإِيمَانٍ» من الآباء. وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله: «بِإِيمَانٍ» حالاً من الفاعلين. القول الثالث

[٥٦٦٩] أخرجه البزار ٢٢٦٠ من حديث ابن عباس وقال في المجمع ٧/ ١١٤: فيه قيس بن الربيع وثقه الثوري وشعبة وفيه ضعف اهـ وساقه الطبري ٣٢٣٣٨ و ٣٢٣٣٩ و ٣٢٣٤٠ و ٣٢٣٤١ و ٣٢٣٤٢ بأسانيد صحيحة عن ابن عباس موقوفاً لكن مثله لايقال بالرأي فلعله مع شاهده الآتي يصير حسناً والله أعلم.

عن ٱبن عباس: أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار والذرية التابعون. وفي رواية عنه: إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء؛ فالآباء داخلون في ٱسم الذريّة؛ كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يسۤ: ٤١]. وعن ٱبن عباس أيضاً يرفعه إلى النبيّ ﷺ قال:

[٥٦٧٠] «إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم إنهم لم يدركوا ما أدركت فيقول يا ربّ إني عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به». وقالت خديجة رضي الله عنها:

[٥٦٧١] سألت النبي ﷺ عن ولدين لي ماتا في الجاهلية فقال لي: «هما في النار» فلما رأى الكراهية في وجهي قال: «لو رأيتِ مكانهما لأبغضتِهما» قالت: يا رسول الله فولدي منك؟ قال: «في الجنة» ثم قال «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة والمشركين وأولادهم في النار» ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية. ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً بإلحاق الذريات بهم. والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وقال ٱبن زيد: المعنى ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ ألحقنا بالذّرية أبناءهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل؛ فالهاء والميم على هذا القول للذرّية. وقرأ ٱبن كثير «وَمَا أَلِتْنَاهُمْ» بكسر اللام. وفتح الباقون. وعن أبي هريرة «آلَتْنَاهُمْ» بالمدّ؛ قال ٱبن الأعرابي: أَلَتَه يأْلِته أَلْتاً، وآلَته يُؤْلته إيلاَتاً، ولاَتَه يَلِيته لَيْتاً كلها إذا نَقَصه. وفي الصحاح: ولاَتَه عن وجهه يَلُوته ويَليته أي حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألاَتَه عن وجهه فَعَل وأَفْعَل بمعنى، ويقال أيضاً: ما ألاَتَه من عمله شيئاً أي ما نَقَصه مثل أَلَتَه وقد مضى بـ«الحجرات». ﴿كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ قيل: يرجع إلى أهل النار. قال ٱبن عباس: ٱرتهن أهل جهنم بأعمالهم وصار أهل الجنة إلى نعيمهم؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ

[٥٦٧٠] أخرجه الطبري في الكبير ١٢٢٤٨ والصغير ٦٤٠ من حديث ابن عباس وقال في المجمع ٧/ ١١٤: فيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان ضعيف اهـ وربما يعتضد بما قبله والله أعلم.

[٥٦٧١] أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ١١٣١ من حديث علي، وقال في المجمع ٧/ ٢١٧: فيه محمد بن عثمان ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ وأما الذهبي فذكره في الميزان وقال: لايدري من هو وله خبر منكر. ثم ذكر هذا الحديث اهـ وأخرجه أبو يعلى ٧٠٧٧ والطبراني في الكبير (٢٣/ ١٦) عن عبد الله بن نوفل أو عن عبد الله بن بريدة عن خديجة بنحوه وإسناده ضعيف لانقطاعه ابن نوفل أو ابن بريدة كلاهما لم يدرك خديجة. وفيه رجل شبه مجهول وهو سهل بن زياد الحربي. وقد أعله الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١١٣ بالانقطاع. والخبر منكر كما قال الذهبي رحمة الله عليه.

﴿بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٣٩]. وقيل: هو عام لكل إنسان مُرْتَهن بعمله فلا ينقص أحد من ثواب عمله، فأما الزيادة على ثواب العمل فهي تفضل من الله. ويحتمل أن يكون هذا في الذرّية الذين لم يؤمنوا فلا يلحقون آباءهم المؤمنين بل يكونون مُرْتَهنين بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢﴾ أي أكثرنا لهم من ذلك زيادة من الله، أمدّهم بها غير الذي كان لهم.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاته وخدمه في الجنة. والكأس: إناء الخمر وكل إناء مملوء من شراب وغيره؛ فإذا فرغ لم يسم كأساً. وشاهد التنازع والكأس في اللغة قول الأخطل:

وشَـارِب مُـرْبِـح بـالكـأس نَـادَمَنِـي ... لا بـالْحَصُـور ولا فيهـا بسَـوَّارِ
نَازَعْتُه طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ ... صَاحَ الدَّجَاجُ وحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي

وقال آمرؤ القيس:

فَلَمَّا تَنَازَعْنا الحديثَ وأَسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بغصنٍ ذِي شَمَارِيخَ مَيَّالِ

وقد مضى هذا في «والصافات». ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي في الكأس أي لا يجري بينهم لغو ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣﴾ ولا ما فيه إثم. والتأثيم تفعيل من الإثم؛ أي تلك الكأس لا تجعلهم آثمين لأنه مباح لهم. وقيل: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي في الجنة . قال آبن عطاء: أيُّ لغوٍ يكون في مجلس محلّه جنة عدن، وسقاتهم الملائكة، وشربهم على ذكر الله، وريحانهم وتحيتهم من عند الله، والقوم أضياف الله! ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣﴾ أي ولا كذب؛ قاله آبن عباس. الضحاك: يعني لا يكذب بعضهم بعضاً. وقرأ آبن كثير وآبن محيصن وأبو عمرو: «لاَ لَغْوَ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمَ» بفتح آخره. الباقون بالرفع والتنوين. وقد مضى هذا في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي بالفواكه والتُّحف والطعام والشراب؛ ودليله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥﴾ [الصافات: ٤٥]. ثم قيل: هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم، فأقرّ الله تعالى بهم أعينهم. وقيل: إنهم من أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم. وقيل: هم غلمان خلقوا في الجنة. قال الكلبي: لا يكبرون أبداً ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الحسن والبياض ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤﴾ في الصَّدَف، والمكنون المصون. وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ

﴿عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾. قيل: هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة. وليس في الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم. وعن عائشة رضي الله عنها:

[٥٦٧٢] أن نبيّ الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدمه فيجيبه ألفٌ كلّهم لبّيك لبّيك». وعن عبد الله بن عمر قال:

[٥٦٧٣] قال النبيّ ﷺ: «ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه». وعن الحسن أنهم قالوا:

[٥٦٧٤] يا رسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فيكف يكون المخدوم؟ فقال: «ما بينهما كما بين القمر ليلة البدر وبين أصغر الكواكب». قال الكسائي: كننت الشيء سترته وصنته من الشمس، وأكننته في نفسي أسررته. وقال أبو زيد: كننته وأكننته بمعنًى في الْكِنّ وفي النفس جميعاً؛ تقول: كننت العلم وأكننته فهو مكنون ومُكَنّ. وكننت الجارية وأكننتها فهي مكنونة ومُكَنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥﴾ قال ابن عباس: إذا بعثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضاً. وقيل: في الجنة ﴿يَتَسَآءَلُونَ ٢٥﴾ أي يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم. وقيل: يقول بعضهم لبعض بم صرت في هذه المنزلة الرفيعة؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾ أي قال كل مسؤول منهم لسائله: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ أي في الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بالجنة والمغفرة. وقيل: بالتوفيق والهداية. ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ قال الحسن: «السَّمُوم» اسم من أسماء النار وطبقة من

[٥٦٧٢] أخرجه الديلمي ٨٣١ والثعلبي كما في تخريج الكشاف ٤/ ٤١٢ من حديث عائشة، وهو من رواية عمر بن عبد العزيز البصري عن يوسف بن أبي طيبة ولم أجد لهما ترجمة والله أعلم.

[٥٦٧٣] ذكره المصنف على أنه مرفوع ولم أعثر عليه وإنما ساقه البغوي في تفسيره ٤/ ٢١٨ عن عبد الله بن عمرو موقوفاً وهو الصواب.

[٥٦٧٤] ضعيف. ذكره البغوي ٤/ ٢١٨ عن الحسن مرسلاً بدون إسناد وأسنده الطبري ٣٢٣٦٩ و ٣٢٣٧٠ عن قتادة بلاغاً وهو ضعيف لإرساله.

طِباق جهنم. وقيل: هو النار كما تقول جهنم. وقيل: نار عذاب السَّمُوم. والسَّمُوم الريح الحارة تؤنث؛ يقال منه: سُمَّ يومُنَا فهو مسموم والجمع سَمَائم قال أبو عبيدة: السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار؛ وقد تستعمل السَّمُوم في لفح البرد وهو في لفح الحرّ والشمس أكثر، قال الراجز:

اليـــوم يـــومٌ بـــاردٌ سَمُـــومُـــهُ مَـــنْ جَـزِع اليـــومَ فـــلا أَلُـــومـــهْ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي في الدنيا بأن يمنّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: «نَدْعُوهُ» أي نعبده. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ وقرأ نافع والكسائي «أنّه» بفتح الهمزة؛ أي لأنه. الباقون بالكسر على الابتداء. و«الْبَرُّ» اللطيف؛ قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: أنه الصادق فيما وعد. وقاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فذكر يا محمد قومك بالقرآن. ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ يعني برسالة ربك ﴿بِكَاهِنٍ﴾ تبتدع القول وتخبر بما في غد من غير وَحْي. ﴿وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا ردّ لقولهم في النبيّ ﷺ؛ فعقبة بن أبي مُعَيْط قال: إنه مجنون، وشيبة بن ربيعة قال: إنه ساحر، وغيرهما قال: كاهن؛ فأكذبهم الله تعالى وردّ عليهم. ثم قيل: إن معنى ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ القسم؛ أي وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون. وقيل: ليس قسماً، وإنما هو كما تقول: ما أنت بحمد الله بجاهل؛ أي قد برأك الله من ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي بل يقولون محمد شاعر. قال سيبويه: خوطب العباد بما جرى في كلامهم. قال أبو جعفر النحّاس: وهذا كلام حسن إلا أنه غير مبيّن ولا مشروح؛ يريد سيبويه أن «أَمْ» في كلام العرب لخروج من حديث إلى حديث؛ كما قال[1]:

أَتَهْجُـر غَانيـةً أَمْ تُلِـمْ

فتم الكلام ثم خرج إلى شيء آخر فقال:

أَمِ الْحَبْـلُ وَاهٍ بهـا مُنْجَـذِمْ

(١) هو الأعشى.

فما جاء في كتاب الله تعالى من هذا فمعناه التقرير والتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث، والنحويون يمثلونها ببل. ﴿تَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ قال قتادة: قال قوم من الكفار تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بني فلان. قال الضحاك: هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر؛ أي يهلك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأن أباه مات شابًا فربما يموت كما مات أبوه. وقال الأخفش: نتربص به إلى ريب المنون فحذف حرف الجر، كما تقول: قصدت زيداً وقصدت إلى زيد. والمنون: الموت في قول ٱبن عباس. قال أبو الغَوِل الطُّهوِي[1]:

هُـم مَنَعُـوا حِمَـى الْـوَقَبَـى بِضَـرْبٍ يُــؤَلِّــف بيــن أَشْتَــاتِ الْمَنُــونِ

أي المنايا؛ يقول: إن الضرب يجمع بين قوم متفرّقي الأمكنة لو أتتهم مناياهم في أماكنهم لأتتهم متفرقة، فاجتمعوا في موضع واحد فأتتهم المنايا مجتمعة. وقال السدّي عن أبي مالك عن ٱبن عباس: «رَيْبَ» في القرآن شكٌّ إلا مَكاناً واحداً في الطور ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ يعني حوادث الأمور؛ وقال الشاعر:

تَـرَبَّـصْ بها رَيْـبَ الْمَنُـونِ لَعَلَّهـا تُطَلَّـقُ يـومـاً أو يَمـوتُ حَلِيلُهـا

وقال مجاهد: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ حوادث الدهر، والمنون هو الدهر؛ قال أبو ذُؤَيْب:

أَمِـنَ الْمَنُـونِ ورَيْبِـه تَتَـوجَّـعُ والـدَّهْـرُ لَيس بمُعْتِـبٍ مَـنْ يَجـزَعُ

وقال الأعشى:

أَأَنْ رأَتْ رجـلاً أَعْشَـى أَضَـرَّ بِـهِ رَيْـب المنـونِ ودَهـرٌ مُتْبِـلٌ خَبِـلُ

قال الأصمعي: المنون الليل والنهار؛ وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال. وعنه: أنه قيل للدهر منون، لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان أي قوته وكذلك المنِيَّة. أبو عبيدة: قيل للدهر منون؛ لأنه مُضْعِف، من قولهم حَبْلٌ مِنِين أي ضعيف، والمنين الغبار الضعيف. قال الفراء: والمنون مؤنثة وتكون واحداً وجمعاً. الأصمعي: المنون واحد لا جماعة له. الأخفش: هو جماعة لا واحد له، والمنون يذكر ويؤنّث؛ فمن ذكّره جعله الدهر أو الموت، ومن أنّثه فعلى الحمل على المعنى كأنه أراد المنية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ﴾ أي قل لهم يا محمد تربصوا أي ٱنتظروا. ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي من المنتظرين بكم العذاب؛ فعُذِّبوا يوم بدر بالسيف.

---

(١) اسمه علباء بن جوشن.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي بالكذب عليك. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي أم طَغَوْا بغير عقول. وقيل: «أَمْ» بمعنى بل؛ أي بل كفروا طغياناً وإن ظهر لهم الحق. وقيل لعمرو بن العاص: ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل؟ فقال: تلك عقول كادها الله؛ أي لم يصحبها بالتوفيق. وقيل: ﴿أَحْلَٰمُهُم﴾ أي أذهانهم؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر ولو كان له عقل لآمن. وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة. والذِّهن يقبل العلم جملةً، والعقل يميّز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهي. وروي عن النبيّ ﷺ أن رجلاً قال:

[٥٦٧٥] يا رسول الله، ما أعقل فلاناً النصراني! فقال: «مَهْ إنّ الكافر لا عقل له أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].» وفي حديث ابن عمر: فزجره النبيّ ﷺ، ثم قال: «مَهْ فإن العاقل من يعمل بطاعة الله»[1] ذكره الترمذي الحكيم أبو عبد الله بإسناده. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي ٱفتعله وٱفتراه، يعني القرآن. والتقوّل تكلُّف القول، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر. ويقال قوّلتني ما لم أقل! وأقْوَلتني ما لم أقل؛ أي ٱدّعيته عليّ. وتَقَوَّل عليه أي كذب عليه. وٱقتال عليه تحكَّم قال[2]:

ومَنْزِلَـةٌ فـي دارِ صِـدْقٍ وغِبْطَـةٍ ... ومَـا ٱقْتَـالَ مِـن حُكْـمٍ عَلَـيَّ طَبِيـبُ

فأم الأولى للإنكار والثانية للإيجاب أي ليس كما يقولون. ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ جَحداً وٱستكباراً. ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ في أن محمداً ٱفتراه. وقرأ الجحدري «فَلْيَاتُوا بحديثِ مِثلهِ» بالإضافة. والهاء في «مثله» للنبيّ ﷺ، وأضيف الحديث الذي يراد به القرآن إليه لأنه المبعوث به. والهاء على قراءة الجماعة للقرآن.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ

[٥٦٧٥] لم أجده، ولايصح. فالحكيم الترمذي يروي الموضوعات. وإن لم يكن للكافر عقل فبأي شيء يفكر ويدبر ويمكر ويخترع؟! والمراد بالآية: لو كنا سمعنا، لو كنا عقلنا.

---

(١) هو المتقدم.

(٢) هو كعب بن سعد الغنوي.

فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ «أَمْ» صلة زائدة والتقدير أخلقوا من غير شيء. قال ابن عباس: من غير ربّ خلقهم وقدّرهم. وقيل: من غير أمّ ولا أب؛ فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم للّهِ عليهم حجة؛ ليسوا كذلك! أليس قد خُلِقوا من نطفة وعلقة ومضغة؟ قاله ابن عطاء. وقال ابن كيسان: أم خُلِقوا عبثاً وتُركوا سُدًى ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي لغير شيء فـ«ـمن» بمعنى اللام. ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله وهم لا يقولون ذلك، وإذا أقرّوا أن ثَمَّ خالقاً غيرهم فما الذي يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث. ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئاً ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ بالحق ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أَم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله ويُعرِضوا عن أمره. وقال ابن عباس: خزائن ربك المطر والرزق. وقيل: مفاتيح الرحمة. وقال عكرمة: النبوة. أي أفبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاؤوا. وضرب المثل بالخزائن؛ لأن الخزانة بيت يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر؛ ومقدورات الربّ كالخزائن التي فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها. ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ قال ابن عباس: المسلّطون الجبّارون. وعنه أيضاً: المبطلون. وقاله الضحاك. وعن ابن عباس أيضاً: أم هم المتولّون. عطاء: أم هم أرباب قاهرون. قال عطاء: يقال تسيطرت عليّ أي اتخذتني خَوَلاً لك. وقاله أبو عبيدة. وفي الصحاح: المسيطر والمصيطر المسلّط على الشيء ليُشرِف عليه ويتعهدَ أحوالَه ويكتب عمله، وأصله من السَّطر؛ لأن الكتاب يُسَطِّر والذي يفعله مُسَطِّر ومُسَيْطِر. يقال سَيْطرتَ علينا. ابن بحر: ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي هم الحفظة؛ مأخوذ من تسطير الكتاب الذي يحفظ ما كتب فيه؛ فصار المسيطر ها هنا حافظاً ما كتبه الله في اللوح المحفوظ. وفيه ثلاث لغات: الصاد وبها قرأت العامة، والسين وهي قراءة ابن مُحيصِن وحُميد ومجاهد وقُنْبُل وهشام وأبي حَيْوة، وبإشمام الصاد الزاي وهي قراءة حمزة كما تقدّم في «الصِّراط».

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ أي أيدّعون أن لهم مُرتقىً إلى السماء ومصعداً وسبباً ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي عليه الأخبارَ ويَصِلون به إلى علم الغيب، كما يصل إليه محمد ﷺ بطريق الوحي. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي بحجة بيّنة أن هذا الذي هم عليه حقّ. والسُّلم واحد السلالم التي يرتقى عليها. وربما سمي الغرز بذلك؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبي يصف ناقته:

مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنى الرِّجْلَ ربُّها   بِسُلَّمِ غَرْزٍ في مُنَاخٍ يُعاجلُه

وقال زهير:

ومَنْ هابَ أسبابَ المنِيَّةِ يَلْقَها   ولَوْ رَامَ أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

وقال آخر:

تَجَنَّيت لي ذنباً وما إنْ جَنَيْتُه   لِتَتَّخِذِي عُذْراً إلى الهَجْرِ سُلَّما

وقال ٱبن مُقبل في الجمع:

لا تُحْرِزُ المرءَ أَحْجاءُ البِلَادِ وَلاَ   يُبْنَى له في السَّمَواتِ السَّلاَلِيمُ

الأحجاء النواحي مثل الأرجاء واحدها حَجًا ورَجًا مقصور. ويروى: أعْناء البلاد، والأعْناء أيضاً الجوانب والنواحي واحدها عِنْو بالكسر. وقال ٱبن الأعرابي: واحدها عَناً مقصور. وجاءنا أعناء من الناس واحدهم عِنْو بالكسر، وهم قوم من قبائل شتَّى. ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي عليه؛ كقوله تعالى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي عليها؛ قاله الأخفش. وقال أبو عبيدة: يستمعون به. وقال الزجاج: أي ألهم كجبريل الذي يأتي النبيّ ﷺ بالوحي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩﴾ سَفَّه أحلامهم توبيخاً لهم وتقريعاً. أي أتضيفون إلى الله البنات مع أَنَفَتكم منهن، ومن كان عقله هكذا فلا يُستبعد منه إنكار البعث. ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾ أي فهم من المغرم الذي تطلبهم به «مُثْقَلُونَ» مجهدون لما كلفتهم به. ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١﴾ أي يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب. وقيل: أي أم عندهم علم ما غاب عن الناس حتى علموا ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل. وقال قتادة: لما قالوا نتربص به ريب المنون قال الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يؤول إليه أمره. وقال ٱبن عباس: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه. وقال القتبي: يكتبون يحكمون والكتاب الحكم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] أي حكم، وقوله عليه الصلاة والسلام:

[٥٦٧٦] «والذي نفسي بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله» أي بحكم الله.

[٥٦٧٦] صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٢٤ و ٦٦٣٣ ومسلم ١٦٩٧ ومالك ٢/ ٨٨٢ من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في أثناء خبر العسيف الذي زنى بامرأة، وقد تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي مكراً بك في دار النَّدْوة. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢)﴾ أي الممكور بهم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وذلك أنهم قتلوا ببدر. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويمنع. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾ نزّه نفسه أن يكون له شريك. قال الخليل: كل ما في سورة «والطور» من ذِكر «أَمْ» فكلمة ٱستفهام وليس بعطف.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ قال ذلك جواباً لقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] فأعلم أنه لو فعل ذلك لقالوا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤)﴾ أي بعضه فوق بعض سقط علينا وليس سماء؛ وهذا فعل المعاند أو فعل من ٱستولى عليه التقليد، وكان من المشركين القسمان. والكِسَف جمع كِسْفة وهي القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كِسْفة من ثوبك، ويقال في جمعها أيضاً: كِسَف: ويقال: الكِسْف والكِسْفة واحد. وقال الأخفش: من قرأ كِسْفاً جعله واحداً، ومن قرأ «كِسَفا» جعله جمعاً. وقد تقدم القول في هذا في «سبحان» وغيرها والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ منسوخ بآية السيف. ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥)﴾ بفتح الياء قراءة العامة، وقرأ ٱبن عامر وعاصم بضمها. قال الفرّاء: هما لغتان صَعِق وصُعق مثل سَعِد وسُعد. قال قتادة: يوم يموتون. وقيل: هو يوم بدر. وقيل: يوم النفخة الأولى. وقيل: يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم. وقيل: «يُصْعَقُون» بضم الياء من أصعقه الله.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي ما كادوا به النبيّ ﷺ في الدنيا. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦)﴾ من الله. و«يَوْمَ» منصوب على البدل من ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي كفروا ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قيل: قبل موتهم. ٱبن زيد: مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد. مجاهد: هو الجوع والجَهْد سبع سنين. ٱبن عباس: هو القتل. وعنه: عذاب القبر. وقاله البَرَاء بن

عازِب وعليّ رضي الله عنهم. فـ«دُونَ» بمعنى غير. وقيل: عذاباً أخفّ من عذاب الآخرة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أن العذاب نازل بهم وقيل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ما يصيرون إليه.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ قيل: لقضاء ربك فيما حمَّلك من رسالته. وقيل: لبلائه فيما أبتلاك به من قومك؛ ثم نسخ بآية السيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى ومنظر منّا نرى ونسمع ما تقول وتفعل. وقيل: بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك. والمعنى واحد. ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ أي بحفظي وحراستي وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ أختلف في تأويل قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ فقال عون بن مالك وأبن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو الأحوص: يسبح الله حين يقوم من مجلسه؛ فيقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحانك اللهم وبحمدك؛ فإن كان المجلس خيراً أزددت ثناءً حسناً، وإن كان غير ذلك كان كفارةً له؛ ودليل هذا التأويل ما خرّجه الترمذي عن أبي هريرة قال:

[٥٦٧٧] قال رسول الله ﷺ: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك» قال: حديث حسن صحيح غريب. وفيه عن أبن عمر قال:

[٥٦٧٧] صحيح. أخرجه الترمذي ٣٤٣٣ وصححه ابن حبان ٥٩٤ والحاكم ١/ ٥٣٦ من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وأخرجه الحاكم ١/ ٥٣٧ من حديث جبير بن مطعم وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قالا وله شواهد أخرى، انظر الإحسان بتحقيق الشيخ شعيب، وجامع الأصول ٤/ ٢٧٧.

[٥٦٧٨] كنا نعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «رب ٱغفر لي وتب علي إنك أنت التوّاب الغفور» قال حديث حسن صحيح غريب. وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع: المعنى حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحاك يقول: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً. قال الكِيا الطبري: وهذا فيه بُعد؛ فإن قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴿٢١٨﴾﴾ لا يدل على التسبيح بعد التكبير، فإن التكبير هو الذي يكون بعد القيام، والتسبيح يكون وراء ذلك، فدلّ على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال ٱبن مسعود رضي الله عنه. وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية: المعنى حين تقوم من منامك. قال حسان: ليكون مفتتحاً لعمله بذكر الله. وقال الكلبي: وٱذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهي صلاة الفجر. وفي هذا روايات مختلفات صحاح؛ منها حديث عُبادة عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٦٧٩] «من تَعارَّ في الليل فقال لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله ثم قال اللهم ٱغفر لي أو دعا ٱستجيب له فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته» خرّجه البخاري. تعارّ الرجل من الليل: إذا هبّ من نومه مع صوت؛ ومنه عَارَّ الظَّلِيمُ يُعَارُّ عِرَاراً وهو صوته؛ وبعضهم يقول: عَرَّ الظَّلِيمُ يَعِرُّ عِرَاراً، كما قالوا زَمَر النَّعَامُ يَزْمِرُ زِمَاراً. عن ٱبن عباس.

[٥٦٨٠] أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت قَيُّوم السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهنّ أنت الحقّ ووعدك الحقّ وقولك الحقّ ولقاؤك الحقّ والجنة حقّ والنار حقّ والساعة حقّ والنبيون حقّ ومحمد حقّ اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فٱغفر لي ما قدّمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إلٰه إلا أنت ولا إلٰه غيرك» متفق عليه. وعن ٱبن عباس أيضاً:

[٥٦٨١] أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا ٱستيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه؛

[٥٦٧٨] جيد. أخرجه أبو داود ١٥١٦ والترمذي ٣٤٣٠ من حديث ابن عمر، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وصححه شيخنا في جامع الأصول ٤/ ٢٢٧٥.

[٥٦٧٩] تقدم برقم.

[٥٦٨٠] صحيح. أخرجه البخاري ١١٢٠ ومسلم ٧٦٩ وابن حبان ٢٥٩٧ من حديث ابن عباس وتقدم.

[٥٦٨١] صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٦٩ ومسلم ٧٦٣ من حديث ابن عباس.

ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة «آل عمران». وقال زيد بن أسلم: المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر. قال ٱبن العربي: أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل. وقال الضحاك: إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها. الماوردي: وفي هذا التسبيح قولان: أحدهما وهو قوله سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود. الثاني أنه التوجه في الصلاة يقول: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إلٰه غيرك. قال ٱبن العربي: من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله، والآثار في ذلك كثيرة أعظمها ما ثبت عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

[٥٦٨٢] عن النبيّ ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجَّهت وجهي» الحديث. وقد ذكرناه وغيره في آخر سورة «الأنعام». وفي البخاري عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه قال:

[٥٦٨٣] قلت يا رسول الله عَلِّمني دعاء أدعو به في صلاتي؛ فقال: «قل اللّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك وٱرحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ تقدّم في «قٓ» مستوفًى عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [قٓ: ٤٠]. وأما ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ فقال عليّ وٱبن عباس وجابر وأنس: يعني ركعتي الفجر. فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على الندب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس. وعن الضحاك وٱبن زيد: أن قوله: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ يريد به صلاة الصبح وهو ٱختيار الطبريّ. وعن ٱبن عباس: أنه التسبيح في آخر الصلوات. وبكسر الهمزة في ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ قرأ السبعة على المصدر حسب ما بيناه في «قٓ». وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السَّمَيْقَع «وَأَدْبَارَ» بالفتح، ومثله روي عن يعقوب وسلام وأيوب؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر. ودُبْر الأمر ودُبُره آخره. وروى الترمذي من حديث محمد بن فضيل، عن رِشْدِين بن كريب عن أبيه عن ٱبن عباس عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٦٨٤] «إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب» قال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه من حديث محمد بن فضيل عن

[٥٦٨٢] تقدم برقم.

[٥٦٨٣] تقدم برقم.

[٥٦٨٤] مضى برقم ٥٦٤٩ و ٥٦٥٠.

رِشدِين بن كريب. وسألت محمد بن إسماعيل عن محمد بن فضيل ورِشْدِين بن كريب أيهما أوثق؟ فقال: ما أقربهما، ومحمد عندي أرجح. قال: وسألت عبد الله بن عبد الرحمن عن هذا فقال: ما أقربهما، ورِشدِين بن كريب أرجحهما عندي. قال الترمذي: والقول ما قال أبو محمد ورِشدين بن كريب عندي أرجح من محمد وأقدم، وقد أدرك رِشدِين ٱبن عباس ورآه. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت:

[٥٦٨٥] لم يكن النبيّ ﷺ على شيء من النوافل أشدّ معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح. وعنها عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٦٨٦] «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها». تم تفسير سورة «والطور» والحمد لله.

سورة والنجم

مكّيّة، وهي إحدى وستون آية

مكّية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ٱبن عباس وقتادة: إلا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ [النجم: ٣٢] الآية. وقيل: ٱثنتان وستون آية. وقيل: إن السورة كلها مدنية. والصحيح أنها مكية لما روى ٱبن مسعود أنه قال: هي أوّل سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة. وفي «البخاري» عن ٱبن عباس:

[٥٦٨٧] أن النبيّ ﷺ سجد بالنَّجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. وعن عبد الله:

[٥٦٨٨] أن النبيّ ﷺ قرأ سورة النجم فسجد لها، فما بقي أحد من القوم إلا

[٥٦٨٥] صحيح. أخرجه البخاري ١١٦٩ ومسلم ٧٢٤ ح ٩٤ وأبو داود ١٢٥٤ وابن خزيمة ١١٠٩ وابن حبان ٢٤٥٦ من حديث عائشة.

[٥٦٨٦] صحيح. أخرجه أحمد ٦/ ٥٠ وابن أبي شيبة ٢/ ٢٤١ ومسلم ٧٢٥ والترمذي ٤١٦ والنسائي ٣/ ٢٥٢ والطيالسي ١٤٩٨ وابن حبان ٢٤٥٨ واستدركه الحاكم ١/ ٣٠٦ كلهم من حديث عائشة.

[٥٦٨٧] صحيح. أخرجه البخاري ١٠٧١ و ٤٨٦٢ والترمذي ٥٧٥ والدارقطني ١/ ٤٠٩ وابن حبان ٢٧٦٣ من حديث ابن عباس. والظاهر أن ابن عباس أخذه عن ابن مسعود وإلا فالخبر مكي ولم يدركه ابن عباس. والله أعلم.

[٥٦٨٨] صحيح. أخرجه البخاري ١٠٦٧ و ١٠٧٠ و ٣٨٥٣ ومسلم ٥٧٦ وأبو داود ١٤٠٦ وأحمد ١/ ٤٠١ من=

سجد؛ فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بعدُ قُتِل كافراً، متفق عليه. الرجل يقال هو[1] أمية بن خلف. وفي الصحيحين عن زيد بن ثابت رضي الله عنه:

[٥٦٨٩] أنه قرأ على النبيّ ﷺ سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ فلم يسجد. وقد مضى في آخر «الأعراف» القول في هذا والحمد لله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معنى ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ والثُّرَيَّا إذا سقطت مع الفجر؛ والعرب تسمي الثُّرَيَّا نجماً وإن كانت في العدد نجوماً؛ يقال: إنها سبعة أنجم، ستة منها ظاهرة وواحد خفيّ يَمتحِن الناس به أبصارهم. وفي «الشِّفا» للقاضي عياض: أن النبيّ ﷺ كان يرى في الثُّريا أحد عشر نجماً. وعن مجاهد أيضاً أن المعنى والقرآن إذا نزل؛ لأنه كان ينزل نجوماً. وقاله الفرّاء. وعنه أيضاً: يعني نجوم السماء كلها حين تغرب. وهو قول الحسن قال: أقسم الله بالنجوم إذا غابت. وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جمْع؛ كقول الراعي:

فَبَـاتَـتْ تَعُـدُّ النَّجْـمَ فـي مُسْتَحِيـرةٍ ... سَـرِيـعٍ بِـأيـدي الآكلِيـن جمُـودُهـا

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أَحْسَـنُ النَّجْـمِ فـي السمـاءِ الثُّـرَيَّـا ... وَالثُّـرَيَّـا فـي الأرضِ زَيْـنُ النِّسـاءِ

وقال الحسن أيضاً: المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة. وقال السدّي: إن

= حديث ابن مسعود.

[٥٦٨٩] صحيح. أخرجه البخاري ١٠٧٢ و ١٠٧٣ ومسلم ٥٧٧ وأبو داود ١٤٠٤ و ١٤٠٥ والترمذي ٥٧٦ والدارمي ٢/ ٣٤٣ وأحمد ٥/ ١٨٦ والنسائي ٢/ ١٦٠ وابن حبان ٢٧٦٢ من حديث زيد بن ثابت.

---

(١) وقع في الأصل «يقال له» والمثبت من نسخة «ل» وهو الصواب.

تنبيه: ذكره المصنف بقوله: يقال. مع أنه جاء صريحاً في رواية البخاري ٤٨٦٣ أنه أمية بن خلف وصوبه الحافظ في الفتح ٨/ ٦١٥.

النجم ههنا الزُّهرَة لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها. وقيل: المراد به النجوم التي ترجم بها الشياطين؛ وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد ﷺ رسولاً كثر انقضاض الكواكب قبل مولده، فذُعر أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريراً، كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال: انظروا البروج الاثني عشر فإن انقضّ منها شيء فهو ذهاب الدنيا، فإن لم ينقضّ منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم، فاستشعروا ذلك؛ فلما بُعِث رسولُ الله ﷺ كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ أي ذلك النجم الذي هوى هو لهذه النبوّة التي حدثت. وقيل: النجم هنا هو النبت الذي ليس له ساق، وهَوَى أي سقط على الأرض. وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم: «وَالنَّجْمِ» يعني محمداً ﷺ «إِذَا هَوَى» إذا نزل من السماء ليلة المعراج. وعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما:

[٥٦٩٠] أن عُتبة بن أبي لهب وكان تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام فقال: لآتينّ محمداً فلأوذينّه، فأتاه فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى. ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ، وردّ عليه ابنته وطَلّقها؛ فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم سَلِّط عليه كلباً من كلابك» وكان أبو طالب حاضراً فوجم لها وقال: ما كان أغناك يا بن أخي عن هذه الدعوة، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام، فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مسبعة. فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة! فإني أخاف على ابني من دعوة محمد؛ فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم، وأحدقوا بعتبة، فجاء الأسد يتَشمّم وجوههم حتى ضرب عُتْبة فقتله. وقال حسان:

مَنْ يَرْجِعِ العامَ إلى أَهْلِهِ ... فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ

وأصل النَّجْم الطلوع؛ يقال: نَجَم السنُّ ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا أي خرج على السلطان. والهُوِيّ النزول والسقوط؛ يقال: هَوَى يَهْوِي هُوِيّاً مثل مَضَى يَمْضِي مُضِيًّا؛ قال زهير:

فَشَجَّ بِهَا الأماعِزَ وهْيَ تَهْوِي ... هُوِيَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَها الرِّشَاءُ(١)

[٥٦٩٠] ورد مرسلاً عن جماعة من التابعين فقد أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٠٢١ وأبو نعيم في الدلائل ٣٨٣ عن طاوس مرسلاً وأخرجه أبو نعيم ٣٨١ من طريق ابن إسحق عن عثمان بن عروة عن جماعة من أهل بيته. وكرره ٣٨٠ عن هبار بن الأسود وانظر الدر ٦/ ١٥٤ فهذه المراسيل تعتضد بمجموعها.

---

(١) شجَّ: علا. والأماعز: الأرض كثيرة الحصى.

وقال آخر[1]:

بَيْنَما نَحْنُ بالبَلاكِثِ فالْقَا ع سِراعاً والعِيسُ تَهْوي هُوِيّاً
خَطَرتْ خَطْرَةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ ـرَاكِ وَهْناً فما اسْتطعْتُ مُضيَّا

الأصمعي: هَوَى بالفتح يَهْوِي هُوِيًّا أي سقط إلى أسفل. قال: وكذلك أنهوى في السير إذا مضى فيه، وهَوَى وأنْهَوى فيه لغتان بمعنًى، وقد جمعهما الشاعر في قوله[2]:

وكَمْ مَنْزِلٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى بأَجرامِهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مَنْهَوِي

ويقال في الحُبّ: هَوِيَ بالكسر يَهْوَى هَوًى؛ أي أحبّ.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ هذا جواب القسم؛ أي ما ضلّ محمد ﷺ عن الحق وما حاد عنه. ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ الغيّ ضد الرشد أي ما صار غاوياً. وقيل: أي ما تكلم بالباطل. وقيل: أي ما خاب مما طلب والغيّ الخيبة؛ قال الشاعر[3]:

فمن يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ومَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائِمَا

أي مَن خاب في طلبه لامه الناس. ثم يجوز أن يكون هذا إخباراً عما بعد الوحي. ويجوز أن يكون إخباراً عن أحواله على التعميم؛ أي كان أبداً موحداً لله. وهو الصحيح على ما بيناه في «الشورى» عند قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ قال قتادة: وما ينطق بالقرآن عن هواه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ إليه. وقيل: «عَنِ الْهَوَى» أي بالهوى؛ قاله أبو عبيدة؛ كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ أي فاسأل عنه. النحاس: قول قتادة أولى، وتكون «عن» على بابها، أي ما يخرج نطقه عن رأيه، إنما هو بوحي من الله عز وجل؛ لأن بعده: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

الثانية: قد يحتج بهذه الآية من لا يجوّز لرسول الله ﷺ الاجتهاد في الحوادث. وفيها أيضاً دلالة على أن السُّنة كالوحي المنزل في العمل. وقد تقدّم في مقدّمة الكتاب

---

(١) هو أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة.

(٢) هو يزيد بن الحكم الثقفي.

(٣) هو المرقش.

حديث المقدام بن معدي كرب[1] في ذلك والحمد لله. قال السجستاني: إن شئت أبدلت ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ من ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن «إِنْ» الخفيفة لا تكون مبدلة من «ما» الدليل على هذا أنك لا تقول: والله ما قمت إن أنا لقاعد.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾ يعني جبريل عليه السلام في قول سائر المفسرين؛ سوى الحسن فإنه قال: هو الله عز وجل، ويكون قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ على قول الحسن تمام الكلام، ومعناه ذو قوّة والقوة من صفات الله تعالى؛ وأصله من شدّة فتل الحبل، كأنه استمر به الفتل حتى بلغ إلى غاية يصعب معها الحل. ثم قال: ﴿فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ يعني الله عز وجل؛ أي استوى على العرش. روي معناه عن الحسن. وقال الربيع بن أنس والفراء: ﴿فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ أي استوى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام. وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ «ـهو». وأكثر العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه؛ فيقولون: استوى هو وفلان؛ وقلما يقولون استوى وفلان؛ وأنشد الفرّاء:

أَلَـمْ تَـرَ أَنّ النَّبْـعَ[2] يَصلُـبُ عُـودُهُ ... ولا يَسْتـوِي والخِـرْوَعُ المتقصِّـفُ

أي لا يستوي هو والخِروع؛ ونظير هذا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ﴾ والمعنى أئذا كنا تراباً نحن وآباؤنا. ومعنى الآية: استوى جبريل هو ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء بالأفق الأعلى. وأجاز العطف على الضمير لئلا يتكرر. وأنكر ذلك الزجاج إلا في ضرورة الشعر. وقيل: المعنى فاستوى جبريل بالأفق الأعلى، وهو أجود. وإذا كان المستوي جبريل فمعنى «ذُو مِرَّةٍ» في وصفه ذو منطق حسن؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن. وقيل: معناه ذو صحة جسم وسلامة من الآفات؛ ومنه قول النبيّ ﷺ:

[٥٦٩١] «لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ». وقال امرؤ القيس:

كنـــتُ فيهـــم أبـــداً ذا حِيلـــة ... مُحْكَـمَ المِـرَّةِ مـأمُـونَ الْعُقَـد

وقد قيل: «ذُو مِرَّةٍ» ذو قوة. قال الكلبي: وكان من شدّة جبريل عليه السلام: أنه اقتلع مدائن قوم لوطٍ من الأرض السفلى، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء،

[٥٦٩١] تقدم برقم.

---

(١) راجع ١/ ٣٧.
(٢) النبع: شجر جبلي تؤخذ منه القسي.

حتى سمع أهل السماء نبح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها. وكان من شدّته أيضاً: أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدّسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل في الهند، وكان من شدّته: صيحته بثمود في عددهم وكثرتهم، فأصبحوا جاثمين خامدين. وكان من شدته: هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها في أسرع من الطرف. وقال قُطْرُب: تقول العرب لكل جَزل الرأي حصيف العقل: ذُو مِرّةٍ. قال الشاعر:

قد كنتُ قبلَ لِقاكُمُ ذا مِرَّةٍ ... عندي لِكلّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحصَافة عقله: أن الله ٱئتمنه على وحيه إلى جميع رسله. قال الجوهري: والمِرَّة إحدى الطبائع الأربع، والمِرّة القوّة وشدّة العقل أيضاً. ورجل مرير أي قويّ ذو مرةٍ. قال[1]:

تَرى الرَّجُل النَّحيفَ فتزدريه ... وحَشْوُ ثِيابِه أسدٌ مَرِيرٌ

وقال لَقِيط:

حتى ٱستمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرتهُ ... مُرُّ العزيمةِ لا رَتًّا ولا ضَرَعَا

وقال مجاهد وقتادة: «ذُو مِرَّةٍ» ذو قوّة؛ ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة:

إنّي ٱمرؤٌ ذو مِرّةٍ فاستبقِني ... فِيما يَنُوبُ مِن الخُطُوبِ صَلِيبُ

فالقوة تكون من صفة الله عز وجل، ومن صفة المخلوق. ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ يعني جبريل على ما بينا؛ أي ٱرتفع وعلا إلى مكان في السماء بعد أن علّم محمداً ﷺ، قاله سعيد بن المسيِّب وٱبن جبير. وقيل: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ أي قام في صورته التي خلقه الله تعالى عليها.

[٥٦٩٢] لأنه كان يأتي إلى النبيّ ﷺ في صورة ٱلآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسأله النبيّ ﷺ أن يريه نفسه التي جبله الله عليها فأراه نفسه مرتين:

مرة في الأرض ومرة في السماء؛ فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى، وكان النبيّ ﷺ بحراءٍ، فطلع له جبريل من المشرق فسد الأرض إلى المغرب، فخر النبيّ ﷺ مغشيًا عليه، فنزل إليه في صورة الآدميين وضمّه إلى صدره، وجعل يمسح الغبار عن وجهه؛ فلما أفاق النبيّ ﷺ قال: «يا جبريل ما ظننت أن الله خلق أحداً على مثل هذه الصورة». فقال: يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتي وإن لي ستمائة جناح

[٥٦٩٢] لم أجده. وأمارة الوضع لائحة عليه.

---

(١) هو العباس بن مرداس.

سَعَة كل جناح ما بين المشرق والمغرب. فقال: «إن هذا لعظيم» فقال: وما أنا في جنب ما خلقه الله إلا يسيراً، ولقد خلق الله إسرافيل له ستمائة جناح، كل جناح منها قدر جميع أجنحتي، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوصَع. يعني العصفور الصغير؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ وأما في السماء فعند سِدرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمداً ﷺ. وقول ثالث أن معنى ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ أي ٱستوى القرآن في صدره. وفيه على هذا وجهان: أحدهما في صدر جبريل حين نزل به عليه. الثاني في صدر محمد ﷺ حين نزل عليه. وقول رابع أن معنى ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ فاعتدل يعني محمداً ﷺ. وفيه على هذا وجهان: أحدهما فاعتدل في قوّته. الثاني في رسالته. ذكرهما الماوردي.

قلت: وعلى الأوّل يكون تمام الكلام ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، وعلى الثاني ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾. وقول خامس أن معناه فارتفع. وفيه على هذا وجهان: أحدهما أنه جبريل عليه السلام ٱرتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفاً. الثاني أنه النبيّ ﷺ ٱرتفع بالمعراج. وقول سادس ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ يعني الله عز وجل، أي ٱستوى على العرش على قول الحسن. وقد مضى القول فيه في «الأعراف».

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ جملة في موضع الحال، والمعنى فاستوى عالياً، أي ٱستوى جبريل عالياً على صورته ولم يكن النبيّ ﷺ قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إياها على ما ذكرنا. والأفق ناحية السماء وجمعه آفاق. وقال قتادة: هو الموضع الذي تأتي منه الشمس. وكذا قال سفيان: هو الموضع الذي تطلع منه الشمس. ونحوه عن مجاهد. ويقال: أفْق وأُفُق مثل عُسْر وعُسُر. وقد مضى في «حم السجدة». وفرس أُفُق بالضم أي رائع وكذلك الأنثى؛ قال الشاعر[١]:

أرجِّلُ لِمَّتِي وَأَجُرُّ ذَيْلِي وتَحمِلُ شِكَّتِي أُفُقٌ كُمَيْتُ[٢]

وقيل: «وَهُوَ» أي النبيّ ﷺ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ يعني ليلة الإسراء وهذا ضعيف؛ لأنه يقال: ٱستوى هو وفلان، ولا يقال ٱستوى وفلان إلا في ضرورة الشعر. والصحيح ٱستوى جبريل عليه السلام وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية؛ لأنه كان يتمثل للنبيّ ﷺ إذا نزل بالوحي في صورة رجل، فأحبّ النبيّ ﷺ أن يراه على صورته الحقيقية، فاستوى في أفق المشرق فملأ الأفق.

(١) هو عمرو بن قنعاس المرادي.
(٢) الشكة: السلاح.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ أي دنا جبريل بعد ٱستوائه بالأفق الأعلى من الأرض ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ فنزل على النبيّ ﷺ بالوحي. المعنى أنه لما رأى النبيّ ﷺ من عظمته ما رأى، وهاله ذلك ردّه الله إلى صورة آدمي حين قرب من النبيّ ﷺ بالوحي، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ يعني أوحي الله إلى جبريل وكان جبريل ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ قاله ٱبن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم. وعن ٱبن عباس أيضاً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ أن معناه أن الله تبارك وتعالى «دَنَا» من محمد ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾[1]. وروى نحوه أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ. والمعنى دنا منه أمره وحكمه. وأصل التدلي النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب؛ قال لبيد:

فتَدَلَّيْت عليه قافِلاً وعلى الأرض غيَابَات الطَّفَل

وذهب الفرّاء إلى أن الفاء في «فَتَدَلَّى» بمعنى الواو، والتقدير ثم تدلى جبريل عليه السلام ودنا. ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً أو كالواحد قدمت أيهما شئت، فقلت فدنا فقرب وقّرب فدنا، وشتمني فأساء وأساء فشتمني؛ لأن الشتم والإساءة شيء واحد. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١] المعنى والله أعلم: ٱنشق القمر وٱقتربت الساعة. وقال الجرجاني: في الكلام تقديم وتأخير أي تدلى فدنا؛ لأن التدلّي سبب الدنوّ. وقال ٱبن الأنباري: ثم تدلّى جبريل أي نزل من السماء فدنا من محمد ﷺ. وقال ٱبن عباس: تدلّى الرفرف لمحمد ﷺ ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه. وسيأتي. ومن قال: المعنى فٱستوى جبريل ومحمد بالأفق الأعلى قد يقول: ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلّى أي هَوَى للسجود. وهذا قول الضحاك. قال القشيري: وقيل على هذا تدلّى أي تَدلّلَ؛ كقولك تَظَنَّى بمعنى تَظَنَّنَ، وهذا بعيد؛ لأن الدلال غير مرضيّ في صفة العبودية.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ أي «كان» محمد من ربه أو من جبريل ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي قدر قوسين عربيتين. قاله ٱبن عباس وعطاء والفرّاء. الزمخشري: فإن قلت كيف تقدير قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قلت: تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله:

---

(١) يشير المصنف لما أخرجه البخاري ٧٥١٧ عن شريك عن أنس في خبر المعراج وفيه «ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى...» الحديث. وهو حديث شاذ مع كونه في الصحيح. انفرد شريك بأشياء لايتابعه عليها الثقات. وهذه الفقرة منها، راجع الفتح ١٣/ ٤٨٠ ـ ٤٨١ ـ ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِن حَزِيمَةَ إِصْبَعَا[1]

أي ذا مقدار مسافة إصبع ﴿أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ أي على تقديركم؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ [الصافات: ١٤٧]. وفي الصحاح: وتقول بينهما قابُ قَوْس، وقِيبُ قَوْس وقادَ قَوْس، وقِيدُ قَوْس؛ أي قَدْر قَوْسٍ. وقرأ زيد بن علي «قَادَ» وقرىء «قِيدَ» و «قَدْرَ». ذكره الزمخشري. والقابُ ما بين المَقْبِض والسِّيَة. ولكل قوس قابان. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أراد قابي قوس فقلبه. وفي الحديث:

[٥٦٩٣] «ولَقابُ قوسِ أحدِكم من الجنة وموضع قِدّه خيرٌ من الدنيا وما فيها» والقِدّ السوط. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال النبيّ ﷺ:

[٥٦٩٤] «ولَقابُ قوسِ أحدِكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها». وإنما ضرب المثل بالقوس، لأنها لا تختلف في القاب. والله أعلم. قال القاضي عِياض: أعلم أن ما وقع من إضافة الدنوّ والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنوّ مكانٍ ولا قرب مَدًى، وإنما دنوّ النبيّ ﷺ من ربه وقرْبه منه: إبانةُ عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته. ومِن الله تعالى له: مبرةٌ وتأنيس وبسط وإكرام. ويتأوّل في قوله عليه السلام:

[٥٦٩٥] «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»[2] على أحد الوجوه: نزول إجمال وقبول وإحسان. قال القاضي: وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ فمن جعل الضمير عائداً إلى الله تعالى لا إلى جبريل كان عبارة عن نهاية القرب، ولطف المحل، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفّي، وإنافة المنزلة والقرب من الله؛ ويتأوّل فيه ما يتأوّل في قوله عليه السلام:

[٥٦٩٣] صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٩٦ وأحمد ١٢٠٢٨ كلاهما من حديث أنس في أثناء الحديث.

[٥٦٩٤] صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٩٣ و ٣٢٥٣ ومسلم ١٨٨٢ والترمذي ١٦٤٩ وابن ماجه ٢٧٥٥ من حديث أبي هريرة بأتم منه.

[٥٦٩٥] صحيح. أخرجه البخاري ١١٤٥ ومسلم ٧٥٨ ومالك ١/ ٢١٤ من حديث أبي هريرة، وتقدم تخريجه برقم ٤/ ٣٩.

---

(١) حزيمة: اسم فارس من فرسان العرب.

(٢) ذهب السلف إلىٰ أن الله عز وجل ينزل نزولاً يليق به من غير تكييف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

[٥٦٩٦] «من تقرّب مني شبراً تقرّبت منه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً» قربٌ بالإجابة والقبول، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول. وقد قيل: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من ربه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ قاله مجاهد. ويدلّ عليه ما روي في الحديث:

[٥٦٩٧] «إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام». وقيل: «أو» بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى. وقيل: بمعنى بل أي بل أدنى. وقال سعيد بن المسيّب: القاب صدر القوس العربية حيث يشدّ عليه السير الذي يتنكّبه صاحبه، ولكل قوس قاب واحد. فأخبر أن جبريل قرب من محمد ﷺ كقرب قاب قوسين. وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهَمْداني وأبو وائل شقيق بن سلمة: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي قدر ذراعين، والقوس الذراع يقاس بها كل شيء، وهي لغة بعض الحجازيين. وقيل: هي لغة أزد شَنُوءة أيضاً. وقال الكسائي: قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ أراد قوساً واحداً؛ كقول الشاعر:

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ ... قَطَعْتُهُ بالسَّمْتِ لا بالسَّمْتَيْنِ[1]

أراد مهمهاً واحداً. والقوس تذكر وتؤنث فمن أنث قال في تصغيرها قويسة ومن ذكر قال قويس؛ وفي المثل هو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْماً، والجمع قِسِيّ وقُسِيّ وأقواس وقِياس؛ وأنشد أبو عبيدة:

ووَتَّرَ الأساورُ القِياسَا[2]

والقَوْس أيضاً بقية التّمْر في الجُلَّة أي الوعاء، والقَوْس برج في السماء. فأما القُوسُ بالضم فصومعة الراهب؛ قال الشاعر وذكر امرأة:

لاسْتَفْتَنَتْنِي وذَا المِسْحَينِ في القُوسِ[3]

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ تفخيم للوحي الذي أوحى إليه. وتقدّم معنى الوحي وهو إلقاء الشيء بسرعة ومنه الوَحَاء الوَحَاء. والمعنى فأوحى الله تعالى إلى

[٥٦٩٦] صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٧٥ ح ٢٠ وأحمد ٢/ ٥٠٩ وابن حبان ٣٧٦ من حديث أبي هريرة بأتم منه. وهو عند البخاري ٧٥٣٧ مختصراً.

[٥٦٩٧] ضعيف. أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» ٢٧٧ من حديث جابر، وإسناده ضعيف لضعف الأحوص بن حكيم العنسي.

---

(١) السمت: الطريق.

(٢) قائله القلاخ بن حزن.

(٣) قائله جرير.

عبده محمد ﷺ ما أوحى. وقيل: المعنى ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾. وقيل: المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه. قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة. قال قتادة: أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد. ثم قيل: هذا الوحي هل هو مبهم؟ لا نَطَّلِع عليه نحن وتُعُبِّدْنَا بالإيمان به على الجملة، أو هو معلوم مفسر؟ قولان. وبالثاني قال سعيد بن جبير، قال: أوحى الله إلى محمد: ألم أجدك يتيماً فآويتك! ألم أجدك ضالاً فهديتك! ألم أجدك عائلاً فأغنيتك! ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح: ١ـ ٤]. وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

قوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ أي لم يكذب قلب محمد ﷺ ليلة المعراج؛ وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. وقيل: كانت رؤية حقيقة بالبصر. والأوّل مرويّ عن ابن عباس. وفي صحيح مسلم أنه رآه بقلبه[1]. وهو قول أبي ذرّ وجماعة من الصحابة. والثاني قول أنس وجماعة. وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: أتعجبون أن تكون الخُلّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ. وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: أما نحن بني هاشم فنقول إن محمداً رأى ربه مرتين. وقد مضى القول في هذا في «الأنعام» عند قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وروى محمد بن كعب [عن بعض أصحاب النبي ﷺ][2] قال:

[٥٦٩٨] قلنا يا رسول الله صلى الله عليك رأيت ربك؟ قال: «رأيته بفؤادي مرتين» ثم قرأ: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾. وقول: ثالث أنه رأى جلاله وعظمته؛ قاله الحسن. وروى أبو العالية قال:

[٥٦٩٨] أخرجه الطبري ٣٢٤٥٢ بسنده عن محمد بن كعب القرظي عن بعض أصحاب النبي ﷺ به، وإسناده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة الربذي.

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٦ عن ابن عباس قال: رآه بقلبه. وكرره عنه بلفظ: رآه بقلبه مرتين اهـ فهذا الذي صح عن ابن عباس أنه رآه بقلبه.

(٢) ما بين المعقوفتين مستدرك عن تفسير الطبري.

[٥٦٩٩] سئل رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نهراً ورأيت وراء النهر حجاباً ورأيت وراء الحجاب نوراً لم أر غير ذلك». وفي صحيح مسلم عن أبي ذرّ قال:

[٥٧٠٠] سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نورٌ أَنَّى أراه» المعنى غلبني من النور وبهرني منه ما منعني من رؤيته. ودلّ على هذا الرواية الأخرى «رأيت نوراً»[1]. وقال ٱبن مسعود:

[٥٧٠١] رأى جبريل على صورته مرتين. وقرأ هشام عن ٱبن عامر وأهل الشام «مَا كَذَّبَ» بالتشديد أي ما كذّب قلبُ محمد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدّقه. فـ «ما» مفعوله بغير حرف مقدّر؛ لأنه يتعدّى مشدّداً بغير حرف. ويجوز أن تكون «ما» بمعنى الذي والعائد محذوف، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً. الباقون مخففاً؛ أي ما كذب فؤاد محمد فيما رأى؛ فأسقط حرف الصفة. قال حسان رضي الله عنه:

لـو كنـتِ صـادقـة الـذي حـدّثتِنـي ... لنجـوتِ مَنْجَـا الحـارِثِ بـنِ هِشـامِ

أي في الذي حدّثتِني. ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً. ويجوز أن يكون بمعنى الذي؛ أي ما كذب فؤاد محمد ﷺ الذي رأى.

قوله تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ قرأ حمزة والكسائي «أَفَتَمْرُونَهُ» بفتح التاء من غير ألف على معنى أفتجحدونه. وٱختاره أبو عبيد؛ لأنه قال: لم يماروه وإنما جحدوه. يقال: مراه حقه أي جحده ومريته أنا؛ قال الشاعر:

لِئـن هجـرت أخـا صِـدقٍ ومَكْـرُمَـةٍ ... لقـد مَـرَيْـتَ أخـاً مـا كـان يَمْـرِيكَـا

[٥٦٩٩] ضعيف. أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٤/٢٦٨ عن أبي العالية وهو ضعيف لكونه مرسلاً ومراسل أبي العالية واهية. ولذا قال ابن كثير عقبه: غريب جداً.

[٥٧٠٠] صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨ والطيالسي ٤٧٤ والترمذي ٣٢٨٢ وأبو عوانة ١/١٤٦ وابن حبان ٥٨ وابن مندة في «الإيمان» ٧٧٢ و ٧٧٣ و ٧٧٤ وابن خزيمة في التوحيد ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ كلهم من حديث أبي ذر. وهذا حديث لاشك في صحته يجب المصير إليه ونبذ الرأي وهو يوافق ما ذهبت إليه السيدة عائشة من إنكار الرؤية، وقد أخرجه البخاري ٤٨٥٥ ومسلم ١٧٨ بل روت ذلك عن النبي ﷺ ففي الحديث « فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين. . . » الحديث وهو من رواية مسروق عنها. ويؤيده ما يأتي عن أبي هريرة وابن مسعود.

[٥٧٠١] صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٥٦ ومسلم ١٧٤ والترمذي ٣٢٧٧ وابن حبان ٥٩ من حديث ابن مسعود. وأسند مسلم ١٧٥ عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ قال: رأى جبريل عليه السلام.

---

(١) هو في رواية مسلم ١٧٨ ح ٢٩٢.

أي جحدته. وقال المبرّد: يقال مراه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منه ودفعه عنه. قال: ومثل على بمعنى عن قول بني كعب بن ربيعة: رضي الله عليك؛ أي رضي عنك. وقرأ الأعرج ومجاهد «أَفَتُمْرُونَهُ» بضم التاء من غير ألف من أمريت؛ أي تريبونه وتشككونه. الباقون ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ بألف، أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؛ والمعنيان متداخلان؛ لأن مجادلتهم جحود. وقيل: إن الجحود كان دائماً منهم وهذا جدال جديد؛ قالوا: صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عِيرنا التي في طريق الشام. على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ ﴿نَزْلَةً﴾ مصدر في موضع الحال كأنه قال: ولقد رآه نازلاً نزلةً أخرى. قال ابن عباس: رأى محمد ﷺ ربه مرة أخرى بقلبه. روى مسلم عن أبي العالية عنه قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين؛ فقوله: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ يعود إلى محمد ﷺ؛ فإنه كان له صعود ونزول مراراً بحسب أعداد الصلوات المفروضة، فلكل عَرْجة نَزْلة. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ أي ومحمد ﷺ عند سدرة المنتهى وفي بعض تلك النزلات. وقال ابن مسعود وأبو هريرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أنه جبريل[1]. ثبت هذا أيضاً في صحيح مسلم. وقال ابن مسعود: قال النبيّ ﷺ:

[٥٧٠٢] «رأيت جبريل بالأفق الأعلى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه الدر والياقوت» ذكره المهدوي.

قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ «عِنْدَ» من صلة «رَآهُ» على ما بينا. والسِّدْر شجر النَّبِق وهي في السماء السادسة، وجاء في السماء السابعة. والحديث بهذا في صحيح مسلم؛ الأوّل ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال:

[٥٧٠٣] لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ انتهي به إلى سِدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسولُ الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفِر

[٥٧٠٢] أخرجه الطبري ٣٢٤٧١ من حديث ابن مسعود وإسناده حسن لأجل عاصم بن أبي النجود.

[٥٧٠٣] صحيح. أخرجه مسلم ١٧٣ عن ابن مسعود به.

---

(١) انظر الحديث المتقدم.

لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحِمات[1]. الحديث الثاني رواه قتادة عن أنس أن النبيّ ﷺ قال:

[٥٧٠٤] «لما رُفعتُ إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة نَبِقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفِيَلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبريل ما هذا قال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات» لفظ الدَّارَقُطْني. والنَّبِق بكسر الباء: ثمر السِّدْر الواحد نَبِقة. ويقال: نَبْق بفتح النون وسكون الباء؛ ذكرهما يعقوب في الإصلاح وهي لغة المصريين، والأولى أفصح وهي التي ثبتت عن النبيّ ﷺ. وروى الترمذيّ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت:

[٥٧٠٥] سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى ـ قال: «يسير الراكب في ظل الغصن منها مائة سنة أو يستظل بظلها مائة راكب ـ شك يحيى ـ فيها فَرَاش الذهب كأن ثمرها القِلال» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

قلت: وكذا لفظ مسلم من حديث ثابت عن أنس:

[٥٧٠٦] «ثم ذُهِب بي إلى سِدْرة المنتهَى وإذا ورقها كآذان الفِيلة وإذا ثمرها كالقِلال فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشِي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها». وٱختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتهى على أقوال تسعة: الأوّل: ما تقدّم عن ٱبن مسعود أنه ينتهي إليها كلما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها. الثاني: أنه ينتهي علم الأنبياء إليها ويعزب علمهم عما وراءها؛ قاله ٱبن عباس. الثالث: أن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها؛ قاله الضحاك. الرابع: لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها؛ قاله كعب. الخامس: سميت سِدْرة المنتهَى لأنه ينتهي إليها أرواح الشهداء؛ قاله الربيع بن أنس. السادس: لأنه تنتهي إليها أرواح المؤمنين؛ قاله قتادة. السابع: لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة محمد ﷺ ومنهاجه؛ قاله عليّ رضي الله عنه والربيع بن أنس أيضاً. الثامن: هي شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي علم الخلائق؛ قاله كعب أيضاً.

قلت: يريد ـ والله أعلم ـ أن ٱرتفاعها وأعالي أغصانها قد جاوزت رؤوس حملة

[٥٧٠٤] أخرجه مسلم ١٦٢ وغيره من حديث أنس في أثناء خبر الإسراء المطول وقد تقدم.

[٥٧٠٥] حسن. أخرجه الترمذي ٢٥٤٤ من حديث أسماء وقال: حسن غريب. وهو حسن راجع جامع الأصول ٨٠٣٨/١٠ ويشهد له ما بعده.

[٥٧٠٦] صحيح. أخرجه مسلم ١٦٢ ح ٢٥٩ وقد مضى آنفاً.

(١) الذنوب العظام التي تقحم صاحبها في النار.

العرش؛ ودليله ما تقدّم من أن أصلها في السماء السادسة وأعلاها في السماء السابعة، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رؤوس حملة العرش. والله أعلم. التاسع: سُمِّيت بذلك لأن من رفع إليها فقد أنتهى في الكرامة. وعن أبي هريرة:

[٥٧٠٧] لما أسرى برسول الله ﷺ أنتهي به إلى سِدرة المنتهى فقيل له هذه سدرة المنتهى ينتهي إليها كل أحد خَلاَ من أمتك على سنّتك؛ فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسِنٍ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفًّى، وإذا هي شجرة يسير الرّاكب المسرع في ظلّها مائة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمّة كلها؛ ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥﴾ تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سِدرة المنتهى. وقرأ عليّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبرة الجهني وعبد الله بن الزبير ومجاهد «عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى» يعني جَنّة المبيت. قال مجاهد: يريد أجنة. والهاء للنبيّ ﷺ. وقال الأخفش: أدركه كما تقول جنة الليل أي ستره وأدركه. وقراءة العامة ﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥﴾ قال الحسن: هي التي يصير إليها المتقون. وقيل: إنها الجنة التي يصير إليها أرواح الشهداء؛ قاله أبن عباس. وهي عن يمين العرش. وقيل: هي الجنة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها وهي في السماء السابعة. وقيل: إن أزواج المؤمنين كلهم في جنة المأوى. وإنما قيل لها: جنة المأوى لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين وهي تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها. وقيل: لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦﴾ قال أبن عباس والضحاك وأبن مسعود وأصحابه: فراش من ذهب[(١)]. ورواه مرفوعاً أبن مسعود وأبن عباس إلى النبيّ ﷺ. وقد تقدّم في صحيح مسلم عن أبن مسعود قوله. وقال الحسن: غشيها نور ربّ العالمين فاستنارت. قال القشيري: وسئل رسول الله ﷺ ما غشيها؟ قال: «فراش من ذهب»[(٢)]. وفي خبر آخر «غشيها نور من الله حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها»[(٣)]. وقال الربيع بن

[٥٧٠٧] أخرجه الطبري ٣٢٥٠٣ من حديث أبي هريرة وإسناده غير قوي لأجل أبي جعفر الرازي.

---

(١) مضى برقم ٥٧٠٣.

(٢) تقدم في حديث ابن مسعود برقم ٥٧٠٣ وهو عند الطبري ٣٢٥١٥ و ٣٢٥١٦ عن ابن عباس مرفوعاً لكن فيه جويبر واه جداً.

(٣) هو عند الطبري ٣٢٥٠١ من حديث أنس بنحوه وإسناده حسن.

أنس: غشيها نور الربّ والملائكة تقع عليها كما يقع الغربان على الشجرة. وعن النبيّ ﷺ قال:

[٥٧٠٨] «رأيت السّدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة مَلَكاً قائماً يسبّح الله تعالى وذلك قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾» ذكره المهدويّ والثعلبيّ. وقال أنس بن مالك: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قال جراد من ذهب(١) وقد رواه مرفوعاً. وقال مجاهد: إنه رَفْرَف أخضرُ. وعنه عليه السلام: «يغشاها رَفْرَف من طير خضر»(٢). وعن ٱبن عباس: يغشاها ربُّ العزة؛ أي أمره كما في صحيح مسلم مرفوعاً: «فلما غشيها من أمر الله ما غشى»(٣). وقيل: هو تعظيم الأمر؛ كأنه قال: إذ يغشى السِّدْرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته. وهكذا قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٤] ومثله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾ [الحاقة: ١ ـ ٢]. وقال الماوردي في معاني القرآن له: فإن قيل لم ٱختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأن السِّدْرة تختص بثلاثة أوصاف: ظلّ مديد، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية؛ فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً وعملاً ونيّةً؛ فظلُّها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النية لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره. وروى أبو داود في سننه قال: حدّثنا نصر بن علي قال حدّثنا أبو أسامة عن ٱبن جريج عن عثمان بن أبي سليمان عن سعيد بن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم عن عبد الله بن حُبشي، قال: قال رسول الله ﷺ:

[٥٧٠٩] «من قطع سِدْرةً صَوَّب اللَّهُ رأسَه في النار» وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر يعني من قطع سِدْرة في فلاة يستظل بها ٱبن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حقّ يكون له فيها صَوَّب اللَّهُ رأسَه في النار.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ قال ٱبن عباس: أي ما عدل يميناً ولا شمالاً، ولا تجاوز الحدّ الذي رأى. وقيل: ما جاوز ما أُمر به. وقيل: لم يمدّ بصره إلى

[٥٧٠٨] ضعيف. أخرجه الطبري ٣٢٥١٩ عن عبد الرحمن بن زيد، وهذا معضل وابن زيد واهٍ.

[٥٧٠٩] حسن. أخرجه أبو داود ٥٢٣٩ من حديث عبد الله بن حُبْشي وإسناده ضعيف وكرره ٥٢٤٠ و ٥٢٤١ عن عروة مرسلاً وله شاهد عند البيهقي ٦/١٤٠ من حديث عائشة، واختلف في وصله وإرساله وشاهد آخر في ٦/١٤١ من حديث معاوية بن حيدة، وهو حديث حسن.

---

(١) تقدم برقم ٧٠٣ وعن ابن مسعود.

(٢) لم أره والراجح ما تقدم. وانظر تفسير البغوي ٤/٢٢٦.

(٣) هو بعض حديث أنس تقدم آنفاً.

غير ما رأى من الآيات. وهذا وصف أدب للنبيّ ﷺ في ذلك المقام؛ إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ قال ابن عباس: رأى رَفْرَفاً سدّ الأفق. وذكر البيهقي عن عبد الله قال: «رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» قال ابن عباس: رأى رَفْرَفاً أخضَر سدّ أفق السماء. وعنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام في حُلّة رفرف أخضر، قد ملأ ما بين السماء والأرض. قال البيهقي: قوله في الحديث «رأى رَفْرَفاً» يريد جبريل عليه السلام في صورته في رفرف، والرفرف البساط. ويقال: فِراش. ويقال: بل هو ثوب كان لباساً له؛ فقد روي أنه رآه في حُلّة رفرف.

قلت: خرّجه الترمذي عن عبد الله قال:

[٥٧١٠] ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريلَ عليه السلام في حُلّة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض. قال: هذا حديث حسن صحيح.

قلت: وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ أنه على التقديم والتأخير؛ أي تدلى الرفرف لمحمد ﷺ ليلة المعراج فجلس عليه ثم رُفع فدنا من ربه. قال[1]: «فارقني جبريل وانقطعت عني الأصوات وسمعت كلام ربّي» فعلى هذا الرَّفْرَفُ ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره. وهو بالمعنى الأول جبريل. قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بن حيان: رأى جبريَل عليه السلام في صورته التي يكون فيها في السموات؛ وكذا في صحيح مسلم عن عبد الله قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ قال رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح[2]. ولا يبعد مع هذا أن يكون في حُلّة رفرف وعلى رفرف. والله أعلم. وقال الضحاك: رأى سِدْرة المنتهى. وعن ابن مسعود: رأى ما غشي السِّدرة من فراش الذهب؛ حكاه الماوردي. وقيل: رأى المعراج. وقيل: هو ما رأى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه؛ وهو أحسن؛ دليله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ و «مِن» يجوز أن تكون للتبعيض، وتكون «الْكُبْرَى» مفعولة لـ «رأى» وهي في الأصل صفة الآيات ووحدت لرؤوس الآيات. وأيضاً يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾. وقيل: «الْكُبْرَى» نعت لمحذوف؛ أي رأى من آيات ربه الكبرى. ويجوز

[٥٧١٠] أخرجه الترمذي ٣٢٨٣ من حديث ابن سعود، وإسناده صحيح. وتقدم.

---

(١) لم أره وهو غريب.
(٢) مضى آنفاً.

أن تكون «مِن» زائدة؛ أي رأى آيات ربه الكبرى. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي رأى الكبرى من آيات ربه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ لما ذكر الوحي إلى النبيّ ﷺ، وذكر من آثار قدرته ما ذكر، حاجَ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقِل وقال: أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئاً كما أُوحِي إلى محمد. وكانت اللَّاتُ لثَقِيف، والعُزَّى لقريش وبني كِنانة، ومَناةُ لبني هلال. وقال هشام: فكانت مناة لِهُذَيْل وَخُزَاعة؛ فبعث رسول الله ﷺ عليًّا رضي الله عنه فهدمها عام الفتح. ثم ٱتخذوا اللات بالطائف، وهي أحدث من مَنَاة وكانت صخرةً مُرَبَّعة، وكان سَدَنتها من ثَقِيف، وكانوا قد بنوا عليها بناء، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها. وبها كانت العرب تسمى زيد الّلات وتيمَ الّلات. وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيفٌ، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار. ثم ٱتخذوا العُزَّى وهي أحدث من الّلات، ٱتخذها ظالم بن أسعد، وكانت بوادي نَخْلة الشامية فوق ذات عِرْق، فبنوا عليها بيتاً وكانوا يسمعون منها الصوت. قال ٱبن هشام: وحدّثني أبي عن أبي صالح عن ٱبن عباس قال:

[٥٧١١] كانت العُزَّى شيطانة تأتي ثلاث سَمُرات ببطن نَخْلة، فلما ٱفتتح رسول الله ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال: «أيتِ بَطْن نخلة فإنك تجد ثلاث سَمُرات فٱعْضِد الأولى» فأتاها فَعضَدها فلما جاء إليه قال: «هل رأيت شيئاً» قال: لا. قال: «فٱعضِد الثانية» فأتاها فعضَدها، ثم أتى النبيّ ﷺ فقال: «هل رأيت شيئاً» قال: لا. قال: «فٱعضِد الثالثة» فأتاها فإذا هو بحبشيّة نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها تُصَرِّفُ بأنيابها، وخلفها دُبَيَّةُ السُّلَمّي وكان سادِنَها فقال:

يـا عُـزّ كُفْـرَانَـك لا سبْحـانَـك ... إنـي رَأَيْـتُ اللَّـهَ قَـد أهـانَـكِ

[٥٧١١] ذكره البغوي في تفسيره ٤/٢٢٧ عن الكلبي. وقال الحافظ في تخريج الكشاف ٤/٤٢٣: أخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عن ابن عباس. ورواه الواقدي في المغازي عن سعيد بن عمرو الهذلي. وأصل هذه القصة رواها النسائي وأبو يعلى وغيرهما عن أبي الطفيل اهـ أخرجه أبو يعلى ٩٠٢ وقال الهيثمي في المجمع ٦/١٧٦. فيه يحيى بن المنذر ضعيف اهـ قلت: توبع عند أبي يعلى بإسناد على شرط مسلم لكن الوليد بن جميع يهم قليلاً.

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حُمَمَة، ثم عَضَد الشجرة وقتل دُبَيَّة السادن، ثم أتى النبيّ ﷺ فأخبره فقال: «تلك العُزَّى ولن تُعبَد أبداً» وقال ٱبن جُبير: العُزَّى حجر أبيض كانوا يعبدونه. قتادة: بيت[1] كان ببطن نَخْلة. ومَنَاة: صنم لخزاعة. وقيل: إن اللّات فيما ذكر بعض المفسرين أخذه المشركون من لفظ الله، والعُزَّى من العزيز، ومَنَاة مِن مَنَى الله الشيءَ إذا قدّره. وقرأ ٱبن عباس وٱبن الزبير ومجاهد وحُميد وأبو صالح «اللّاتّ» بتشديد التاء وقالوا: كان رجلاً يَلُتّ السَّويق للحاجّ ـ ذكره البخاري عن ٱبن عباس ـ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. ٱبن عباس: كان يبيع السَّوِيق والسَّمْن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثَقِيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السَّوِيق. أبو صالح: إنما كان رجلاً بالطائف فكان يقوم على آلهتهم ويَلُتّ لهم السَّوِيق فلما مات عبدوه. مجاهد: كان رجل في رأس جبل له غُنَيْمة يَسْلي[2] منها السَّمْن ويأخذ منها الأَقِط ويجمع رِسْلَها، ثم يتخذ منها حَيْساً[3] فيطعم الحاج، وكان ببطن نَخْلة فلما مات عبدوه وهو اللّات. وقال الكلبيّ كان رجلاً من ثَقِيف يقال له صِرمة بن غنم. وقيل: إنه عامر بن ظَرِب العَدْوانيّ. قال الشاعر[4]:

لا تَنْصُروا اللّاتَ إنَّ اللّه مُهْلِكُهَا ... وكيف يَنْصُرُكُمْ مَنْ ليس يَنْتَصِرُ

والقراءة الصحيحة «اللاَّتَ» بالتخفيف ٱسم صنم والوقوف عليها بالتاء وهو ٱختيار الفراء.

قال الفرّاء: وقد رأيت الكسائيّ سأل أبا فَقْعَس الأَسَديّ فقال ذاه لذات ولاه للات وقرأ «أَفَرَأَيْتُمُ اللّاهَ». وكذا قرأ الدُّوريّ عن الكسائيّ والبَزِّي عن ٱبن كثير «اللّاه» بالهاء في الوقف، ومن قال: إن «اللّات» من الله وقف بالهاء أيضاً. وقيل: أصلها لاهة مثل شاة أصلها شاهة وهي من لاَهَت أي اختفت؛ قال الشاعر:

لاَهَتْ فما عُرِفت يوماً بخارجةٍ ... يا ليتها خَرجتْ حتّى رأيناها

وفي الصحاح: اللات ٱسم صنم كان لِثَقيف وكان بالطائف، وبعض العرب يقف عليها بالتاء، وبعضهم بالهاء؛ قال الأخفش: سمعنا من العرب من يقول اللّاتِ والعُزَّى، ويقول هي اللّاتْ فيجعلها تاء في السّكوت وهي اللّاتِ فأَعْلَمَ أنه جُرَّ في موضع الرفع؛

---

(١) وقع في الأصل «نبت» والتصويب عن تفسير الطبري ٣٢٥٣٣ و ٣٢٥٣٤ والبغوي ٤/ ٢٢٨.

(٢) أي يجمع.

(٣) الحيس: الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن.

(٤) هو شداد بن عارض الجشمي.

فهذا مثل أمسِ مكسورٌ على كل حال وهو أجودُ منه؛ لأن الألف واللام اللتان في الّلات لا تسقطان وإن كانتا زائدتين؛ وأما ما سمعنا من الأكثر في الّلاتِ والعُزَّى في السّكوت عليها فالّلاهْ لأنها هاء فصارت تاء في الوصل وهي في تلك اللغة مثل كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسرها؛ إلا أنه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة ولا يجوز ذلك في الّلاتِ؛ لأن التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف، وإن جعلت الألف والتاء زائدتين بقي الاسم على حرف واحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحيْصن وحُميد ومجاهد والسُّلَمي والأعشى عن أبي بكر «وَمَنَاءَةَ» بالمدّ والهمز. والباقون بترك الهمز لغتان. وقيل: سمي بذلك؛ لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقرّبون بذلك إليه. وبذلك سميت منًى لكثرة ما يراق فيها من الدماء. وكان الكسائي وابن كثير وابن مُحَيْصِن يقفون بالهاء على الأصل. الباقون بالتاء اتباعاً لخط المصحف. وفي الصحاح: ومناة اسم صنم كان لهُذَيل وخُزَاعة بين مكة والمدينة، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهي لغة، والنسبة إليها مَنَوِيّ. وعبدُ مَناةَ ابنُ أُدّ بن طابِخة، وزيدُ مناة ابن تميم بن مُرٍّ يُمدّ ويقصر؛ قال هَوْبَر الحارثي:

أَلاَ هَـلْ أَتَـى التَّيْـمَ بـنَ عبـدِ مَنَـاءةٍ   علـى الشَّـنْءِ فِيمـا بيننـا ابْـنُ تَمِيـم

قوله تعالى: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ العرب لا تقول للثالثة أخرى وإنما الأخرى نعت للثانية، واختلفوا في وجهها فقال الخليل: إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآي؛ كقوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ ولم يقل آخر. وقال الحسين بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير مجازها أفرأيتم اللاّت والعُزَّى الأخرى ومَنَاة الثالثة. وقيل: إنما قال﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ لأنها كانت مرتبة عند المشركين في التعظيم بعد اللاّت والعُزَّى فالكلام على نسقه. وقد ذكرنا عن ابن هشام: أن مَناةَ كانت أولاً في التقديم، فلذلك كانت مقدّمة عندهم في التعظيم؛ والله أعلم. وفي الآية حذف دل عليه الكلام؛ أي أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرّت حتى تكون شركاء لله. ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ردًّا عليهم قولهم: الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا﴾ يعني هذه القسمة ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحق. يقال: ضَازَ في الحكم أي جار، وضَازَ حقّه يَضِيزه ضَيْزاً ـ عن الأخفش ـ أي نقصه وبخسه. قال: وقد يهمز فيقال ضأزه يَضْأَزُه ضَأْزًا وأنشد:

فَإِنْ تَنْأَ عنَّا نَنْتقِصْكَ وإنَ تُقِمْ ... فقِسْمُكَ مَضْؤوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ

وقال الكسائي: يقال ضازَ يَضِيز ضَيْزاً، وضازَ يَضُوز ضَوْزاً، وضَأَز يَضْأَز ضأْزاً إذا ظلم وتعدّى وبخس وانتقص؛ قال الشاعر[1]:

ضَازَتْ بنو أَسَدٍ بِحُكمِهِمُ ... إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ

قوله تعالى: ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي جائرة، وهي فُعْلى مِثل طُوبَى وحُبْلى؛ وإنما كسروا الضاد لتسلم الياء؛ لأنه ليس في الكلام فِعْلي صفة، وإنما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى. قال الفرّاء: وبعض العرب تقول ضُوْزى وضِئْزى بالهمز. وحكى أبو حاتم عن أبي زيد: أنه سمع العرب تهمز «ضِيزى». قال غيره: وبها قرأ ابن كثير؛ جعله مصدراً مثل ذِكرى وليس بصفة؛ إذ ليس في الصفات فِعْلى ولا يكون أصلها فُعْلى؛ إذ ليس فيها ما يوجب القلب، وهي من قولهم ضأزته أي ظلمته. فالمعنى قسمة ذات ظلم. وقد قيل هما لغتان بمعنًى. وحكى فيها أيضاً سواهما ضَيْزَى وضَأْزى وضُوزَى وضُؤْزى. وقال المؤرِّج: كرهوا ضم الضاد في ضِيزى، وخافوا انقلاب الياء واواً وهي من بنات الواو؛ فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا في جمع أبيض بِيضٌ والأصل بُوضٌ؛ مثل حُمْرٍ وصُفْر وخُضْر. فأما من قال: ضاز يَضُوز فالاسم منه ضُوزَى مثل شُورَى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي ما هي يعني هذه الأوثان ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ يعني نحتموها وسميتموها آلهة. ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي قلدتموهم في ذلك. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر أي ما يتبع هؤلاء إلى الظن. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي تميل إليه. وقراءة العامة ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ بالياء. وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السَّمَيْقَع «تَتَّبِعُونَ» بالتاء على الخطاب. وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ أي البيان من جهة الرسول أنها ليست بآلهة. ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي اشتهى أي ليس ذلك له. وقيل: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ من البنين؛ أي يكون له دون

---

(١) هو امرؤ القيس.

البنات. وقيل: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ من غير جزاء! ليس الأمر كذلك. وقيل: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ من النبوّة أن تكون فيه دون غيره. وقيل: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ من شفاعة الأصنام؛ نزلت في النضر بن الحرث. وقيل: في الوليد بن المغيرة. وقيل: في سائر الكفار. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ يعطي من يشاء ويمنع من يشاء لا ما تمنى أحد.

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام، وزعم أن ذلك يقرّبه إلى اللّه تعالى، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له. قال الأخفش: الملَك واحد ومعناه جمع؛ وهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾. وقيل: إنما ذكر ملَكاً واحداً، لأن كَمْ تدل على الجمع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ هم الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله. ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ أي كتسمية الأنثى، أي يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله. ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي إنهم لم يشاهدوا خلقه الملائكة، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله ﷺ، ولم يروه في كتاب. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعونَ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في أن الملائكة إناث. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني القرآن والإيمان. وهذا منسوخ بآية السيف. ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ نزلت في النَّضر. وقيل: في الوليد. ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم. قال الفراء: صغّرهم وأزدرى بهم؛ أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي حاد عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ فيجازي كُلًّا بأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ

﴿إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾﴾ اللام متعلقة بالمعنى الذي دلّ عليه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كأنه قال: هو مالك ذلك يهدي من يشاء ويضل من يشاء ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وقيل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معترض في الكلام؛ والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن ٱهتدى ليجزي. وقيل: هي لام العاقبة، أي ولله ما في السموات وما في الأرض؛ أي وعاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم مسيء ومحسن؛ فللمسيء السوءى وهي جهنم، وللمحسن الحسنى وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ هذا نعت للمحسنين؛ أي هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك؛ لأنه أكبر الآثام. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائي «كَبِيرَ» على التوحيد وفسره ٱبن عباس بالشرك. ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ الزنى: وقال مقاتل: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ كل ذنب ختم بالنار. ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ كل ذنب فيه الحدّ. وقد مضى في «النساء» القول في هذا. ثم ٱستثنى ٱستثناءً منقطعاً وهي:

المسألة الثانية: فقال: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه. وقد ٱختلف في معناها؛ فقال أبو هريرة وٱبن عباس والشعبي: «اللَّمَمُ» كل ما دون الزنى. وذكر مقاتل بن سليمان: أن هذه الآية نزلت في رجل كان يسمى نبهان التمار؛ كان له حانوت يبيع فيه تمراً فجاءته امرأة تشتري منه تمراً فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها فأبت وٱنصرفت فندم نبهان؛ فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع؛ فقال: «لعل زوجها غازٍ» فنزلت هذه الآية[1]، وقد مضى في آخر «هود» وكذا قال ٱبن مسعود وأبو سعيد الخُدري وحذيفة ومسروق: إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة. وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: زنى العينين النظر، وزنى اليدين البطش، وزنى الرِّجلين المشي، وإنما يصدِّق ذلك أو يكذِّبه الفرج؛ فإن تقدّم كان زنًى وإن تأخر كان لمَماً. وفي صحيح البخاري ومسلم عن ٱبن عباس قال:

---

(١) مضى في أواخر سورة هود.

[٥٧١٢] ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظّه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدِّق ذلك أو يكذِّبه». والمعنى: أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو في الفرج وغيرهُ له حظٌّ من الإثم. والله أعلم. وفي رواية أبي صالح عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٧١٣] «كُتِب على ٱبن آدم نصيبه من الزنى مُدْرِكٌ لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرِّجل زناها الخُطَا والقلب يَهْوَى ويتمنى ويصدِّق ذلك الفرج ويكذِّبه». خرجه مسلم. وقد ذكر الثعلبي حديث طاوس عن ٱبن عباس فذكر فيه الأُذن واليد والرِّجل، وزاد فيه بعد العينين واللسان: «وزنى الشفتين القُبلة»[١]. فهذا قول. وقال ٱبن عباس أيضاً: هو الرجل يُلِمُّ بذنب ثم يتوب. قال: ألم تسمع النبيّ ﷺ كان يقول:

إن يَغفِــر اللَّــهُ يغفــر جَمّــا ... وأيُّ عبــدٍ لــكَ لا ألَمَّــا

رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن ٱبن عباس. قال النحاس: هذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسناداً. وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن ٱبن عباس في قول الله عز وجل «إلاَّ اللَّمَمَ» قال: هو أن يلمّ العبد بالذنب ثم لا يعاوده؛ قال الشاعر[٢]:

إن تَغفِــرِ اللهــم تغفــر جَمّــا ... وأيُّ عبــدٍ لــكَ لا ألَمَّــا

وكذا قال مجاهد والحسن: هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده، ونحوه عن الزهري، قال: اللمم أن يزني ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود. ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية. ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فضمن لهم المغفرة؛ كما قال عقيب اللمم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فعلى هذا التأويل يكون ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ ٱستثناء متصل. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللمم ما

[٥٧١٢] صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٤٣ ومسلم ٢٦٥٧ وعبد الرزاق في التفسير ٣٠٣٧ من حديث ابن عباس عن أبي هريرة.

[٥٧١٣] صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٧ ح ٢١ وأحمد ٢/ ٣٧٩ وأبو داود ٢١٥٤ وابن حبان ٤٤٢٣ من حديث أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً.

---

(١) عزاه المصنف للثعلبي ولم أره عند غيره.

(٢) هو أمية بن الصلت.

دون الشرك. وقيل: اللمم الذنب بين الحدّين وهو ما لم يأت عليه حدّ في الدنيا، ولا تُوعِّد عليه بعذاب في الآخرة تكفِّره الصلوات الخمس. قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة. ورواه العوفي والحكم بن عتيبة عن ٱبن عباس. وقال الكلبي: اللمم على وجهين: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّاً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة؛ فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلمّ به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه. وعن ٱبن عباس أيضاً وأبي هريرة وزيد بن ثابت: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت وقاله زيد بن أسلم وٱبنه[1]؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]. وقيل: اللّمم هو أن يأتي بذنب لم يكن له بعادة؛ قاله نفطويه. قال: والعرب تقول ما يأتينا إلاَّ لِمَاماً؛ أي في الحين بعد الحين. قال: ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل، لأن العرب لا تقول ألـمّ بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا همّ ولم يفعله. وفي الصحاح: وألمّ الرجل من اللمم وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة. وأنشد غير الجوهري:

بِزينَب أَلْمِمْ قَبْلَ أن يَرْحَلَ الرَّكبُ وقُـلْ إنْ تَمَلِّينَـا فمـا مَلَّـكِ الْقَلْـبُ

أي ٱقرب. وقال عطاء بن أبي رباح: اللّمم عادة النفس الحين بعد الحين. وقال سعيد بن المسيّب: هو ما ألمّ على القلب؛ أي خطر. وقال محمد بن الحنفية: كلّ ما هممت به من خير أو شر فهو لَمَم. ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام:

[٥٧١٤] «إن للشيطان لَمّة وللملَك لَمَّة» الحديث. وقد مضى في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾. وقال أبو إسحاق الزجاج: أصل اللّمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه ولا يقيم عليه؛ يقال: ألممت به إذا زرته وٱنصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لمَماً وإلماماً؛ أي الحين بعد الحين. وإنما زيارتك إلمام، ومنه إلمام الخيال؛ قال الأعشى:

أَلَـمّ خَيَـالٌ مِـن قُتَيْلَـةَ بَعْـدَمَـا وَهَـى حَبْلُهـا مِـن حَبْلِنَـا فَتَصَـرَّمَـا

وقيل: إلا بمعنى الواو. وأنكر هذا الفرّاء وقال: المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب. وقيل: اللّمم النظرة التي تكون فجأة.

[٥٧١٤] مضى برقم ٣/٣٢٩.

---

(١) هو عبد الرحمن بن زيد من علماء التفسير إلا أنه ضعيف الحديث.

قلت: هذا فيه بعدٌ إذ هو معفوّ عنه ٱبتداء غير مؤاخذ به؛ لأنه يقع من غير قصد وٱختيار، وقد مضى في «النور» بيانه. واللّمم أيضاً طرف من الجنون، ورجل ملموم أي به لَمَمٌ. ويقال أيضاً: أصابت فلان لمّةٌ من الجنّ وهي المسّ والشيء القليل؛ قال الشاعر[1]:

فــإذا وذَلِــك يــا كُبَيْشَــةُ لَــمْ يَكُــنْ إلاَّ كَلَمَّــــةِ حــــالِــــمٍ بِخَيــــالِ

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ لمن تاب من ذنبه وٱستغفر؛ قاله ٱبن عباس. وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب ٱبن مسعود: رأيت في المنام كأني دخلت الجنة فإذا قِباب مضروبة، فقلت: لمن هذه؟ فقالوا: لذي الكَلاَع وحَوْشَب، وكانا ممن قتل بعضهم بعضاً، فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: إنهما لقيا الله فوجداه واسع المغفرة. فقال أبو خالد: بلغني أن ذا الكَلاَع أعتق ٱثني عشر ألف بنت.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني أباكم آدم من الطين وخرج اللفظ على الجمع. قال الترمذيّ أبو عبد الله: وليس هو كذلك عندنا، بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض، وكنا جميعاً في تلك التربة وفي تلك الطينة، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْوِ النفوس على ٱختلاف هيئتها، ثم ٱستخرجها من صُلْبها على ٱختلاف الهيئات؛ منهم كالدرّ يتلألأ، وبعضهم أنور من بعض، وبعضهم أسود كالحُمَمَة، وبعضهم أشدّ سواداً من بعض؛ فكان الإنشاء واقعاً علينا وعليه. حدّثنا عيسى بن حماد العسقلاني قال: حدّثنا بِشر بن بَكرٍ، قال: حدّثنا الأوزاعي، قال:

[٥٧١٥] قال رسول الله ﷺ: «عُرِض عليّ الأوّلون والآخرون بين يدي حجرتي هذه الليلة» فقال قائل: يا رسول الله! وَمن مضى من الخلق؟ قال: «نعم عُرِض عليّ آدم فمن دونه فهل كان خُلِقَ[2] أحد» قالوا: ومن في أصلاب الرجال وبطون الأمهات؟ قال: «نعم مثلوا في الطين فعرفتهم كما علم آدم الأسماء كلها».

قلت: وقد تقدّم في أوّل «الأنعام» أن كل إنسان يخلق من طين البقعة التي يدفن فيها. ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جَنِين وهو الولد ما دام في البطن، سمي جنِيناً لاجتنانه وٱستتاره. قال عمرو بن كُلْثوم:

[٥٧١٥] هذا معضل الأوزاعي في عداد تابع التابعين فالخبر ضعيف.

---

(١) هو ابن مقبل.

(٢) في بعض النسخ «فهل كان قبله أحد»؟.

هِجانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا

وقال مكحول: كنا أجنّة في بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنا فيمن بقي، ثم صرنا رُضَّعاً فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا يَفَعةً فهلك منا من هلك، وكنا فيمن بقي، ثم صرنا شباباً فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا شيوخاً ـ لا أبا لك! ـ فما بعد هذا ننتظر؟!. وروى ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال:

[٥٧١٦] كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبيّ صغير: هو صِدِّيق؛ فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال: «كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخرها. ونحوه عن عائشة: «كان اليهود». بمثله. ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تمدحوها ولا تثنوا عليها، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ أي أخلص العمل وأتقى عقوبة الله؛ عن الحسن وغيره. قال الحسن: قد علم الله سبحانه كل نفس ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة. وقد مضى في «النساء» الكلام في معنى هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [النساء: ٤٩] فتأمله هناك. وقال ابن عباس: ما من أحد من هذه الآمة أزكّيه غير رسول الله ﷺ. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾ الآيات لما بيّن جهل المشركين في عبادة الأصنام ذكر واحداً منهم معيناً بسوء فعله. قال مجاهد وابن زيد ومقاتل[1]: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فعيّره بعض المشركين، وقال: لِمَ تركتَ دين الأشياخ وضَلَّلتهم وزعمت أنهم في النار؟! قال: إني خشيت عذاب الله؛ فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل: كال الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ أي

[٥٧١٦] أخرجه الواحدي ٧٧٠ والطبراني في الكبير (٢/ ٨١) من حديث ثابت بن الحارث الأنصاري، وإسناده لابأس به لأن الراوي عن ابن لهيعة ابن وهب وقد سمع منه قبل احتراق كتبه. قال القرطبي: وورد عن عائشة بنحوه.

(١) راجع أسباب النزول للواحدي ٧٧٢.

من الخير بلسانه «وَأَكْدَى» أي قطع ذلك وأمسك عنه. وعنه أنه أعطى رسول الله ﷺ عقد الإيمان ثم تولى فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣﴾ الآية. وقال ٱبن عباس والسُّدي والكلبي والمسيّب بن شريك[1]: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يتصدّق وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألاّ يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايَا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه! فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها. فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾ فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله. ذكر ذلك الواحديّ والثعلبيّ. وقال السّديّ أيضاً[2]: نزلت في العاص بن وائل السَّهْميّ، وذلك أنه كان ربما يوافق النبيّ ﷺ. وقال محمد بن كعب القرظيّ: نزلت في أبي جهل بن هشام، قال: واللّهِ ما يأمر محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾. وقال الضحاك: هو النَّضْر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ٱرتد عن دينه، وضمن له أن يتحمل عنه مأثم رجوعه. وأصل «أَكْدَى» من الكُدْية يقال لمن حَفَر بئراً ثم بلغ إلى حجر لا يتهيّأ له فيه حَفْر: قد أَكْدَى، ثم ٱستعملته العرب لمن أعطى ولم يُتمِّم، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره. وقال الحُطَيْئة:

فأعطى قليلاً ثم أَكْدَى عطاءَه ... ومن يَبْذُلِ المعروفَ في الناسِ يُحَمدِ

قال الكسائيّ وغيره: أَكْدَى الحافرُ وأَجبْل إذا بلغ في حَفْره كُدْية أو جبلاً فلا يمكنه أن يَحفِر. وحفر فأَكْدَى إذا بلغ إلى الصُّلْب. ويقال: كدِيت أصابعه إذا كَلَّتْ من الحفر. وكَدِيت يدهُ إذا كَلَّتْ فلم تعمل شيئاً. وأَكْدَى النَّبتُ إذا قلّ رَيْعه، وكَدَتِ الأرض تَكْدُو كَدْواً وكُدُوّاً فهي كَادِيَةٌ إذا أبطأ نباتها؛ عن أبي زيد. وأَكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء رددته عنه. وأَكْدَى الرجلُ إذا قلّ خيره. وقوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾ أي قطع القليل.

قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾ أي أعند هذا المكدِي علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب؟. ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾ أي يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل العذاب عن غيره، وكفى بهذا جهلاً وحمقاً. وهذه الرؤية هي المتعدية إلى مفعولين والمفعولان محذوفان؛ كأنه قال: فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة.

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ٧٧٢.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ٢٣١ عن السدي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أي صحف ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ كما في سورة «الأعلى» ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ أي لا تؤخذ نفس بدلاً عن أخرى؛ كما قال: ﴿أَنْ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وخصّ صحف إبراهيم وموسى بالذكر؛ لأنه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة أخيه وابنه وأبيه؛ قاله الهذيل بن شرحبيل. «وأنْ» هذه المخففة من الثقيلة وموضعها جرٌّ بدلاً من «ما» أو يكون في موضع رفع على إضمار هو. وقرأ سعيد بن جبير وقتادة «وَفَى» خفيفة ومعناها صدق في قوله وعمله، وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة «وَفَّى» بالتشديد أي قام بجميع ما فرض عليه فلم يَخْرِم منه شيئاً. وقد مضى في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ والتوفية الإتمام. وقال أبو بكر الورّاق: قام بشرط ما ادعى؛ وذلك أن الله تعالى قال له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ فطالبه الله بصحة دعواه، فابتلاه في ماله وولده ونفسه فوجده وافياً بذلك؛ فذلك قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أي ادّعى الإسلام ثم صحح دعواه. وقيل:

[٥٧١٧] وفّى عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار؛ رواه الهيثم عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ. وروى سهل بن سعد الساعدي عن أبيه:

[٥٧١٨] «ألاَ أخبركم لِمَ سَمَّى اللَّه تعالى خليلَه إبراهيمَ ﴿الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾» الآية. ورواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبيّ ﷺ. وقيل: «وفّى» أي وَفّى ما أرسل به، وهو قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ قال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره، ويأخذون الوليَّ بالوليِّ في القتل والجراحة؛ فيقتل الرجل بأبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده، فبلغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾. وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير في

[٥٧١٧] ضعيف. أخرجه الطبري ٣٢٦١٨ والبغوي ٤/ ٢٣١ من حديث أبي أمامة، وإسناده ضعيف لضعف جعفر بن الزبير وبه أعله ابن كثير في تفسيره ٤/ ٢٥٨ وضعفه السيوطي في الدر ٦/ ١٦٨.

[٥٧١٨] لم أره من حديث سهل بن سعد الساعدي. وإنما أخرجه الطبري ٣٢٦١٧ وأحمد ٣/ ٢٣٩ والطبراني كما المجمع ١٠/ ١١٧ من حديث سهل بن معاذ عن أبيه به مرفوعاً. ومداره على زبان بن فائد وهو ضعيف، وأعله الهيثمي باسماعيل بن يعلى وأنه ضعيف.

قوله تعالى «وَفَّى»: عمل بما أمر به وبلّغ رسالات ربه. وهذا أحسن؛ لأنه عام. وكذا قال مجاهد: «وَفَّى» بما فرض عليه. وقال أبو مالك الغفاريّ قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: ٥٥] في صحف إبراهيم وموسى، وقد مضى في آخر «الأنعام» القول في ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ روي عن ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويشفّع الله تعالى الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء؛ يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾. وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة ولا ينفع أحداً عملُ أحدٍ، وأجمعوا أنه لا يصلّي أحد عن أحد. ولم يُجز مالك الصيام والحج والصدقة عن الميت، إلا أنه قال: إن أوصى بالحج ومات جاز أن يحج عنه. وأجاز الشافعي وغيره الحج التطوّع عن الميّت. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه. وروي أن سعد بن عبادة قال للنبيّ ﷺ:

[٥٧١٩] إن أمِّي توفيت أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم» قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء». وقد مضى جميع هذا مستوفًى في «البقرة» و «آل عمران» «والأعراف». وقد قيل: إن الله عز وجل إنما قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ ولام الخفض معناها في العربية الملك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى، فإذا تصدّق عنه غيره فليس يجب له شيء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل. وقال الربيع بن أنس: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ يعني الكافر وأما المؤمن فله ما سَعَى وما سَعَى له غيره.

قلت: وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره[1]، وقد تقدّم كثير منها لمن تأملها، وليس في الصدقة اختلاف، كما في

[٥٧١٩] أخرجه أبو داود ١٦٧٩ والنسائي ٦/ ٢٥٤ وابن ماجه ٣٦٨٤ وابن خزيمة ٢٤٩٧ وابن حبان ٣٣٤٨ والحاكم ١/٤١٤ من حديث سعد بن المسيب عن سعد بن عبادة، وصححه الحاكم على شرطهما وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: لا. فإنه غير متصل وهو كما قال فإن ابن المسيب لم يسمع سعد بن عبادة. وأخرجه أحمد ٥/ ٢٨٥ وأبو داود ١٦٨٠ عن الحسن عن سعد بن عبادة وهو منقطع أيضاً.
وكرره أبو داود ١٦٨١ عن رجل عن سعد بن عبادة وهذا ضعيف لجهالة الرجل لكن الحديث بمجموعه طرقه يصير حسناً ومراسيل ابن المسيب صحيحة والله أعلم.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٤/٢٧٦: ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن قراءة القرآن=

صدر كتاب مسلم عن عبد الله بن المبارك. وفي الصحيح:

[٥٧٢٠] «إذا مات الإنسان أنقطع عمله إلا من ثلاث» وفيه «أو ولد صالح يدعو له» وهذا كله تفضل من الله عز وجل، كما أن زيادة الأضعاف فضل منه؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة؛ كما قيل لأبي هريرة: أسمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٥٧٢١] «إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة» فقال سمعته يقول: «إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة» فهذا تفضل. وطريق العدل ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قلت: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ خاص في السيئة؛ بدليل ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

[٥٧٢٢] «قال الله عز وجل إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضِعف وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئةً واحدة». وقال أبو بكر الورّاق: ﴿ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ إلا ما نوى؛ بيانه قوله ﷺ:

[٥٧٢٣] «يُبعث الناس يوم القيامة على نياتهم».

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي يُريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ﴾ أي يجزى به ﴿ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾. قال الأخفش: يقال جزيته الجزاء، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما؛ قال الشاعر:

[٥٧٢٠] تقدم برقم.

[٥٧٢١] تقدم برقم ١٠/٢٣٦.

[٥٧٢٢] مضى برقم.

[٥٧٢٣] صحيح بشواهده. أخرجه القضاعي ٥٧٨ والديلمي ٨٧٧١ وابن ماجه ٤٢٢٩ وأحمد ٢/ ٣٩٢ من حديث أبي هريرة، وفيه ليث واهٍ لكن له شواهد فقد أخرجه ابن ماجه ٤٢٣٠ والحاكم ٢/ ٤٥٢ من حديث جابر، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو كما قالا، وفي الباب من حديث أم سلمة.

= لايصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولو كان خيراً لسبقونا إليه. وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما اهـ.

إنْ أَجْـزِ عَلْقَمَـة بـنَ سْعـدٍ سَعْيَـه   لـم أَجْـزِهِ ببَـلاءِ يَـوْمٍ واحِـدِ

فجمع بين اللغتين.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ أي المرجع والمردّ والمصير فيعاقب ويثيب. وقيل: منه ٱبتداء المِنَّة وإليه ٱنتهاء الأمان. وعن أبيّ بن كعب قال:

[٥٧٢٤] قال النبيّ ﷺ في قوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ قال: «لا فكرة في الربّ». وعن أنس: قال النبيّ ﷺ:

[٥٧٢٥] «إذ ذكر الله تعالى فانْته».

قلت: ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام:

[٥٧٢٦] «يأتي الشيطان أحدَكم فيقول من خَلَق كذا وكذا حتى يقول له من خَلَق ربَّكَ فإذا بلغ ذلك فلْيستعِذْ بالله ولْيَنْته» وقد تقدّم في آخر «الأعراف». ولقد أحسن من قال:

ولا تُفْكِرنْ في ذِي العُلاَ عَزَّ وجهُهُ   فـإنَّـكَ تُـردَى إنْ فعلـتَ وتُخْـذَلُ
ودونَـك مصنـوعَـاتِـه فـاعتَبِـرْ بِهـا   وقُلْ مِثلَ ما قال الخلِيلُ المبَجَّلُ

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعل إلا هو؛ وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت:

[٥٧٢٧] لا والله ما قال رسول الله قطُّ وإنّ الميّت يعذَّب ببكاء أحدٍ، ولكنه قال: «إنّ الكافرَ يزيدهُ الله ببكاء أهله عذاباً وإنّ الله لهو أضحك وأبْكى وما تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى». وعنها قالت:

[٥٧٢٤] أخرجه البغوي ٤/ ٢٣٢ من حديث أُبي بن كعب وفيه عيسى بن أبي عيسى وثقه يحيى ولينه أحمد، وقال الفلاس: سيىء الحفظ وضعفه ابن حبان وفيه الثعلبي غير قوي فإنه يرفع الموقوف ويصل المنقطع.

[٥٧٢٥] لم أره من حديث أنس وورد نحوه من حديث ابن عباس وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم بأسانيد ضعاف تتقوى بمجموعها انظر الصحيحة ١٧٨٨ والشذرة ٣٠٣ والمقاصد الحسنة ٣٤٢ ويشهد لذلك الحديث الآتي.

[٥٧٢٦] مضى في سورة الأعراف ٨/ ٢١٧.

[٥٧٢٧] صحيح. أخرجه مسلم ٩٢٩ من حديث عائشة.

[٥٧٢٨] مَرَّ النبيُّ ﷺ على قوم من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فنزل عليه جبريل فقال: يا محمد! إن الله يقول لك: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾. فرجع إليهم فقال: «ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال أيت هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول: ﴿ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي قضى أسباب الضحك والبكاء. وقال عطاء بن أبي مسلم: يعني أفرح وأحزن؛ لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء. وقيل لعمر: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم! والإيمان والله أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي. وقد تقدّم هذا المعنى في «النمل» و «براءة». قال الحسن: أضحك الله أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار. وقيل: أضحك من شاء في الدنيا بأن سَرَّه وأبكى من شاء بأن غَمَّه. الضحاك: أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر. وقيل: أضحك الأشجار بالنَّوَّار، وأبكى السحاب بالأمطار. وقال ذو النون: أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته. وقال سهل بن عبد الله: أضحك الله المطيعين بالرحمة وأبكى العاصين بالسخط. وقال محمد بن علي الترمذي: أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا. وقال بسام بن عبد الله: أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم. وأنشد:

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحْتَرِقُ ... وإنما ضِحْكُها زُورٌ ومُخْتَلَقُ
يا رُبَّ باكٍ بِعَيْنٍ لا دموعَ لها ... ورُبَّ ضاحِكِ سنٍّ ما بِهِ رَمَقُ

وقيل: إن الله تعالى خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان، وليس في سائر الحيوان من يضحك ويبكي غير الإنسان. وقد قيل: إن القرد وحده يضحك ولا يبكي، وإن الإبل وحدها تبكي ولا تضحك. وقال يوسف بن الحسين: سئل طاهر المقدسي أتضحك الملائكة؟ فقال: ما ضحكوا ولا كلّ من دون العرش منذ خلقت جهنم. ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ أي قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: خلق الموت والحياة كما قال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ قاله آبن بحر. وقيل: أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآية. وقال: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٣٦] على ما تقدّم، وإليه يرجع قول عطاء: أمات بعدله وأحيا بفضله. وقول من قال: أمات بالمنع والبخل

[٥٧٢٨] أخرجه الواحدي ٧٧٣ من حديث عائشة رضي الله عنها. وفي الإسناد مجاهيل، ودلال بنت أبي المدلّ والصهباء لم أعثر لهما على ترجمة والله أعلم.

وأحيا بالجود والبذل. وقيل: أمات النطفة وأحيا النَّسَمة. وقيل: أمات الآباء وأحيا الأبناء. وقيل: يريد بالحياة الخصب وبالموت الجدب. وقيل: أنام وأيقظ. وقيل: أمات في الدنيا وأحيا للبعث. ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ أي من أولاد آدم ولم يرد آدم وحوّاء بأنهما خلقا من نُطْفة. والنطفة الماء القليل، مشتق من نطفَ الماءُ إذا قَطَر. ﴿تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ تُصبّ في الرحم وتراق؛ قال الكلبي والضحاك وعطاء بن أبي رباح. يقال: مَنَى الرجل وأَمْنى من الْمَنِيّ، وسميت مِنًى بهذا الاسم لما يُمْنَى فيها من الدماء أي يُراق. وقيل: ﴿تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ تُقدَّر؛ قاله أبو عبيدة. يقال: مَنَيت الشيء إذا قَدّرته، ومُنِي له أي قُدّر له؛ قال الشاعر(١):

حَتّى تُلاَقِيَ ما يَمْنِي لَكَ الْمَانِي

أي ما يقدر لك القادر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أي إعادة الأرواح في الأشباح للبعث. وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾ بفتح الشين والمدّ؛ أي وعد ذلك ووعده صدق. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ قال ابن زيد: أغنى من شاء وأفقر من شاء؛ ثم قرأ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢] وقرأ ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وٱختاره الطبري. وعن ٱبن زيد أيضاً ومجاهد وقتادة والحسن: «أَغْنَى» مَوّلَ «وأَقْنَى» أَخْدم. وقيل: «أَقْنَى» جعل لكم قِنْية تقتنونها، وهو معنى أخدم أيضاً. وقيل: معناه أرضى بما أعطى أي أغناه ثم رضّاه بما أعطاه؛ قاله ٱبن عباس. وقال الجوهري: قَنِيَ الرجل يَقْنَى قِنًى؛ مثل غَنِي يَغْنَى غِنًى، وأقناه الله أي أعطاه الله ما يُقتنى من القِنْية والنَّشَب. وأقناه الله أيضاً أي رضّاه. والقِنَى الرضا، عن أبي زيد؛ قال وتقول العرب: من أُعِطي مائةً من المعز فقد أعطِي القِنَى، ومن أُعِطي مائةً من الضأن فقد أُعِطَي الغِنى، ومن أُعِطيَ مائة من الإبل فقد أعطِي المُنى. ويقال: أغناه الله وأقناه أي أعطاه ما يسكن إليه. وقيل: ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي أغْنَى نفسه وأفقر خلقه إليه؛ قاله سليمان التيمي. وقال سفيان: أغنى بالقناعة وأقنى بالرضا. وقال الأخفش: أقنى أفقر. قال ٱبن كيسان: أولد. وهذا راجع لما تقدّم. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ «الشِّعْرَى» الكوكب المضيء الذي يطلع بعد

---

(١) هو أبو قلابة الهذلي.

الجوزاء، وطلوعه في شدّة الحرّ، وهما الشّعريان العَبُور التي في الجوزاء والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التي في الذراع؛ وتزعم العرب أنهما أختا سُهَيل. وإنما ذكر أنه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغيره؛ لأن العرب كانت تعبده؛ فأعلمهم الله جل وعز أنّ الشِّعْرى مربوب وليس بربّ. وٱختلف فيمن كان يعبده؛ فقال السدي: كانت تعبده حِمْير وخُزَاعة. وقال غيره: أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبيّ ﷺ من قبل أمهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبيّ ﷺ ٱبن أبي كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهم؛ وقالوا: ما لقينا من ٱبن أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله ﷺ تمرّ عليه: لقد أَمِرَ أَمْرُ ٱبنِ أبي كبشة. وقد كان من لا يعبد الشِّعْرى من العرب يعظّمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضَــى أَيْلُــولُ وٱرتفــعَ الحَــرُورُ وأَخْبَــتْ نــارَهــا الشِّعــرى العَبُــورُ

وقيل: إن العرب تقول في خرافاتها: إن سُهيْلاً والشِّعرى كانا زوجين، فانحدر سُهَيل فصار يمانياً، فاتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرة فسميت العبور، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سُهَيل حتى غَمِصت عيناه؛ فسمِّيت غميصاء لأنها أخفى من الأخرى. ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ سماها الأولى لأنهم كانوا مِن قبل ثمود. وقيل: إن ثمود مِن قبل عاد. وقال ٱبن زيد: قيل لها عاد الأولى لأنها أوّل أمة أهلكت بعد نوح عليه السلام. وقال ٱبن إسحاق: هما عادان فالأولى أهلكت بالريح الصّرصر، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة. وقيل: عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى؛ والمعنى متقارب. وقيل: إن عاد الآخرة الجبارون وهم قوم هود. وقراءة العامة «عَاداً الأُولَى» ببيان التنوين والهمز. وقرأ نافع وٱبن مُحَيصن وأبو عمرو «عَاداً الأُولَى» بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها، إلا أنّ قالون والسوسي يظهران الهمزة الساكنة. وقلبها الباقون واواً على أصلها؛ والعرب تقلب هذا القلب فتقول: قُم الأَن عنّا وضُمَّ لِثْنَينِ أي قم الآن وضم الاثنين ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١﴾ ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة. قرىء «ثُموداً» «وَثَمُود» وقد تقدّم. وٱنتصب على العطف على عاد. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ وذلك لطول مدّة نوح فيهم، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ٱبنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول: ٱحذر هذا فإنه كذّاب، وإن أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي مثل ما قلت لك؛ فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصية أبيه. وقيل: إن الكناية ترجع إلى كلّ مَن ذُكر من عاد وثمود وقوم نوح؛ أي كانوا أكفر من مشركي العرب وأطغى. فيكون فيه تسلية وتعزية للنبيّ ﷺ؛ فكأنه يقول له: فٱصبر أنت

أيضاً فالعاقبة الحميدة لك. ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ يعني مدائن قوم لوط عليه السلام ٱئتفكت بهم، أي انقلبت وصار عاليها سافلها. يقال: أَفَكْته أي قلبته وصرفته. «أَهْوَى» أي خسف بهم بعد رفعها إلى السماء؛ رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض. وقال المبرّد: جعلها تهوي. ويقال: هَوَى بالفتح يَهْوِي هُوِيًا أي سقط و «أَهْوَى» أي أسقط. ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي ألبسها ما ألبسها من الحجارة؛ قال الله تعالى: ﴿ جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود: ٨٢] وقيل: إن الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم؛ أي غَشَّاها من العذاب ما غشاهم، وأبهم لأن كلاً منهم أهلِك بضرب غير ما أُهْلِك به الآخر. وقيل: هذا تعظيم الأمر. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي فبأي نِعَم ربّك تشكّ. والمخاطبة للإنسان المكذب. والآلاء النعم واحدها أَلىً وإِلىً وإِلْيٌ. وقرأ يعقوب «تَمَّارَى» بإدغام إحدى التاءين في الأخرى والتشديد.

قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾ قال ٱبن جُرَيج ومحمد بن كعب: يريد أن محمداً ﷺ نذير بالحق الذي أنذر به الأنبياء قبله، فإن أطعتموه أفلحتم، وإلاّ حلّ بكم ما حلّ بمكذّبي الرسل السالفة. وقال قتادة: يريد القرآن، وأنه نذير بما أُنذرت به الكتب الأولى. وقيل: أي هذا الذي أخبرنا به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر أي مثل النذر؛ والنذر في قول العرب بمعنى الإنذار كالنُّكُر بمعنى الإنكار؛ أي هذا إنذار لكم. وقال أبو مالك: هذا الذي أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو في صحف إبراهيم وموسى. وقال السديّ أخبرني أبو صالح قال: هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم: ٣٦] إلى قوله: ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾ كل هذه في صحف إبراهيم وموسى.

قوله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي قربت الساعة ودنت القيامة. وسماها آزفة لقرب قيامها عنده؛ كما قال: ﴿ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج: ٧]. وقيل: سماها آزفة لدنوّها من الناس وقربها منهم ليستعدّوا لها؛ لأن كل ما هو آت قريب. قال:

أَزِفَ التَّـرَحُّـلُ غيـرَ أنّ رِكَـابَنَـا ... لمَّـا تَـزَلْ بِـرِحـالنـا وكـأَنْ قَـدِ

وفي الصحاح: أَزِف الترحل يَأْزَف أَزَفاً أي دنا وأَفِد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ

﴿ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧﴾ يعني القيامة، وأزِف الرجل أي مَجِل فهو آزِف على فاعل، والمتآزِف القصير وهو المتداني. قال أبو زيد: قلت لأعرابي ما الْمُحْبَنْطِيءُ؟ قال: المتكَأْكِيءُ. قلت: ما الْمُتكَأْكِيُء؟ قال: المتآزِف. قلت: ما المتآزف؟ قال: أنت أحمق وتركني وَمَّر. ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ أي ليس لها من دون الله من يؤخرها أو يقدّمها. وقيل: كاشفة أي ٱنكشاف أي لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله؛ فالكاشفة ٱسم بمعنى المصدر والهاء فيه كالهاءِ في العاقبة والعافية والداهية والباقية؛ كقولهم: ما لفلان من باقية أي من بقاء. وقيل: أي لا أحد يردّ ذلك؛ أي إن القيامة إذا قامت لا يكشفها أحد من آلهتهم ولا ينجيهم غير الله تعالى. وقد سميت القيامة غاشية، فإذا كانت غاشية كان ردّها كشفاً، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف؛ أي نفس كاشفة أو فرقة كاشفة أو حال كاشفة. وقيل: إن «كاشِفة» بمعنى كاشف والهاء للمبالغة مثل راوية وداهية.

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني القرآن. وهذا ٱستفهام توبيخ ﴿تَعۡجَبُونَ ۝٥٩﴾ تكذيباً به ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾ استهزَاء ﴿وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠﴾ ٱنزجاراً وخوفاً من الوعيد. وروي:

[٥٧٢٩] أن النبيّ ﷺ ما رؤي بعد نزول هذه الآية ضاحكاً إلا تبسُّماً. وقال أبو هريرة:

[٥٧٣٠] لما نزلت ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩﴾ قال أهل الصفة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦] ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع النبيّ ﷺ بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه؛ فقال النبيّ ﷺ: «لا يلِج النارَ مَن بكى من خشية الله ولا يدخل الجنة مُصِرٌّ على معصية الله ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم». وقال أبو حازم:

[٥٧٣١] نزل جبريل على النبيّ ﷺ وعنده رجل يبكي، فقال له: من هذا؟ قال: هذا فلان؛ فقال جبريل: إنا نزِن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء، فإن الله تعالى ليطفيء بالدمعة الواحدة بحوراً من جهنم.

[٥٧٢٩] قال السيوطي في الدر ٦/ ١٧٣: أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل مرفوعاً وهو ضعيف لكونه مرسلاً. صالح هذا تابعي. ضعفه ابن عبد البر ووثقه يحيى والنسائي. قال الحافظ في تخريج الكشاف ٤/ ٤٣٠: وأخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

[٥٧٣٠] أخرجه البيهقي في «الشعب» ٧٩٨ من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ. وانظر الدر المنثور ٦/ ١٧٣.

[٥٧٣١] لم أره وهو ضعيف أبو حازم تابعي وأخرج البيهقي في «الشعب» ٨١١ عن مسلم بن يسار نحوه مرفوعاً وهو مرسل وفيه راو لم يسم وكرره ٨١٢ عن الحسن بنحوه من قوله وهو الصواب كما قال المنذري في ترغيبه ٤/ ٢٣١.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ أي لاهون معرضون. عن ٱبن عباس؛ رواه الوالبيّ والعوفيّ عنه. وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة حِمْيَر؛ يقال: سمِّد لنا أي غنِّ لنا، فكانوا إذا سمعوا القرآن يتلى تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوا. وقال الضحاك: سامدون شامخون متكبرون. وفي الصحاح: سمَدَ سُمُوداً رفع رأسه تكبُّراً وكل رافع رأسه فهو سامد؛ قال[1]:

سَوَامِدُ اللَّيْلِ خِفَافُ الأَزْوَادْ

يقول: ليس في بطونها علف. وقال ٱبن الأعرابي: سَمَدت سُمُوداً علوت. وسَمَدَت الإبلُ في سيرها جدّت. والسُّمُود اللّهو، والسامد اللّاهي؛ يقال للقَيْنة: أَسمِدينا؛ أي ألهينا بالغناء. وتسميد الأرض أن يجعل فيها السماد وهو سِرْجين ورَمَاد. وتسميد الرأس ٱستئصال شعره، لغة في التّسبيد. وٱسمأدّ الرجل بالهمز ٱسْمِئْداداً أي وَرِم غضباً. وروي عن عليّ رضي الله عنه أن معنى «سَامِدُونَ» أن يجلسوا غير مصلّين ولا منتظرين الصلاة. وقال الحسن: واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام؛ ومنه ما روي عن النبيّ ﷺ أنه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال:

[٥٧٣٢] «ما لي أراكم سامدين» حكاه الماوردي. وذكره المهدوي عن عليّ، وأنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قياماً ينتظرونه فقال: «ما لكم سامدون» قاله المهدوي. والمعروف في اللغة: سَمَد يَسْمُد سُمُوداً إذا لَهَا وأعرض. وقال المبرّد: سامدون خامدون؛ قال الشاعر:

أَتَى الحِدْثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ ... بِمَقْدُورٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُوداً

وقال صالح أبو الخليل: لما قرأ النبيّ ﷺ ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ لم يُرَ ضاحكاً إلا مبتسماً حتى مات ﷺ[2]. ذكره النحاس.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. وهو

[٥٧٣٢] لا أصل له في المرفوع. وإنما أخرجه عبد الرزاق كما في الدر ٦/ ١٧٤ والطبري ٣٢٦٧٩ و ٣٢٦٨٠ و ٣٢٦٨١ من طرق عدة عن علي موقوفاً. وورد نحو هذا الحديث عن جابر بن سمرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ فرآنا حِلقاً فقال: ما لي أراكم عِزين». أي جماعات شتى. وورد هذا من حديث أبي هريرة ١٦٥٤ بمثل حديث جابر بن سمرة.

---

(١) هو رؤبة بن العجاج يصف إبلاً.
(٢) تقدم آنفاً برقم ٥٧٢٩.

قول ٱبن مسعود. وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقد تقدّم أوّل السورة من حديث ابن عباس أن النبيّ ﷺ سجد فيها وسجد معه المشركون. وقيل: إنما سجد معه المشركون لأنهم سمعوا أصوات الشياطين في أثناء قراءة رسول الله ﷺ عند قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ وأنه قال: تلك الغَرَانِيقُ العُلاَ وشفاعتهنّ تُرْتَجَى[٢]. كذا في رواية سعيد بن جُبير ترتجى. وفي رواية أبي العالية وشفاعتهنّ ترتضى، ومثلهنّ لا يُنْسى[١]. ففرح المشركون وظنوا أنه من قول محمد ﷺ على ما تقدّم بيانه في «الحج». فلما بلغ الخبر بالحبشة مَن كان بها من أصحاب النبيّ ﷺ رجعوا ظنًّا منهم أنّ أهل مكة آمنوا؛ فكان أهل مكة أشدّ عليهم وأخذوا في تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم. وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة وهو قول ٱبن عمر؛ كان لا يراها من عزائم السجود. وبه قال مالك. وروى أبيّ بن كعب رضي الله عنه: كان آخر فعل النبيّ ﷺ ترك السجود في المفصّل[٢]. والأوّل أصح وقد مضى القول فيه آخر «الأعراف» مبيناً والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة «والنجم».

سورة القمر

مكية كلها في قول الجمهور. وقال مقاتل: إلا ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [القمر: ٤٤] إلى قوله: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦] ولا يصح على ما يأتي. وهي خمس وخمسون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ «ٱقْتَرَبَتِ» أي قربت مثل ﴿أَزِفَتِ

---

(١) هذه القصة تعرف بقصة الغرانيق وقد تقدم بطلانها في أواخر سورة الحج. والله الموفق.

(٢) راجع أواخر سورة الأعراف.

﴿ٱلْآزِفَةُ ۝﴾ [النجم: ٥٧] على ما بيناه. فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا كما روى قتادة عن أنس قال:

[٥٧٣٣] خطب رسول الله ﷺ وقد كادت الشمس تغيب فقال: «ما بقي من دنياكم فيما مضى إلاّ مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى» وما نرى من الشمس إلا يسيراً. وقال كعب ووهب: الدنيا ستة آلاف سنة. قال وهب: قد مضى منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة(1). ذكره النحاس.

ثم قول تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝﴾ أي وقد ٱنشق القمر. وكذا قرأ حُذيفة «ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدِ ٱنْشَقَّ الْقَمَرُ» بزيادة «قد» وعلى هذا الجمهور من العلماء؛ ثبت ذلك في صحيح البخاري وغيره من حديث ٱبن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مُطْعِم وابن عباس رضي الله عنهم. وعن أنس قال:

[٥٧٣٤] سأل أهل مكة النبيّ ﷺ آية، فٱنشقَّ القمر بمكة مرتين فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾ يقول ذاهب قال أبو عيسى الترمذيّ: هذا حديث حسن صحيح. ولفظ البخاريّ عن أنس قال:

[٥٧٣٥] ٱنشق القمر فرقتين. وقال قوم: لم يقع ٱنشقاق القمر بعدُ وهو منتظر؛ أي ٱقترب قيام الساعة وٱنشقاق القمر؛ وأن الساعة إذا قامت ٱنشقت السماء بما فيها من القمر وغيره. وكذا قال القشيري. وذكر الماورديّ: أن هذا قول الجمهور، وقال: لأنه إذا ٱنشق ما بقي أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء. وقال الحسن: ٱقتربت الساعة فإذا جاءت ٱنشق القمر بعد النفخة الثانية. وقيل: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝﴾ أي وضح الأمر وظهر؛ والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضَحَ؛ قال:

[٥٧٣٣] حسن. أخرجه البزار كما في المجمع ١٠/٣١١ من حديث أنس، وقال الهيثمي: فيه خلف بن موسى عن أبيه وقد وُثقا. وبقية رجاله رجال الصحيح. وورد من حديث أبي هريرة وابن عمر وغيرهما. راجع المجمع ١٠/ ٣١١ فالحديث حسن بشواهده.

[٥٧٣٤] صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٦٧ ومسلم ٢٨٠٢ من حديث أنس.

[٥٧٣٥] صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٦٨ ومسلم ٢٨٠٢ ح ٤٧ من حديث أنس.

وورد من حديث ابن مسعود أخرجه البخاري ٤٨٦٤ و ٤٨٦٥ ومسلم ٢٨٠٠ وأحمد ١/ ٤٤٧ ومسلم ٢٨٠١ والطيالسي ١٨٩١ من حديث ابن عمر. والترمذي ٣٢٨٩ وأحمد٤/ ٨١ وصححه ابن حبان ٦٤٩٧ من حديث جبير بن مطعم وفي الباب أحاديث تبلغ به حد الشهرة.

---

(1) هذا من الإسرائيليات، باطل لاحجة فيه البتة، ومما يدل على بطلانه أنه قد مضى عشرات الآلاف من السنين.

أقيمُـوا بَنـي أمـيِّ صُـدُورَ مَطِيِّكُـمْ   فـإنّـي إلـى حَـيٍّ سـواكـم لأَمْيَـلُ
فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ   وشُـدَّت لِطيَّـاتٍ مَطـايـا وأَرْحُـلُ

وقيل: ٱنشقاق القمر هو ٱنشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يسمى الصبح فلقاً؛ لانفلاق الظلمة عنه. وقد يعبر عن ٱنفلاقه بٱنشقاقه كما قال النابغة:

فلمَّـــا أدْبَـــرُوا ولَهُـــمْ دَوِيٌّ   دعـانـا عِنـد شَـقِّ الصُّبـحِ داعِ

قلت: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر ٱنشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها؛ لأنها كانت آية ليلية؛ وأنها كانت باستدعاء النبيّ ﷺ من الله تعالى عند التحدّي. فروي أنّ حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضباً من سبّ أبي جهل الرسول ﷺ طلب أن يريه آية يزداد بها يقيناً في إيمانه. وقد تقدّم في الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية، فأراهم ٱنشقاق القمر فلقتين كما في حديث ٱبن مسعود وغيره[1]. وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إن الساعة قد ٱقتربت، وأن القمر قد ٱنشق على عهد نبيكم ﷺ. وقد قيل: هو على التقديم والتأخير، وتقديره ٱنشق القمر وٱقتربت الساعة؛ قاله ٱبن كيسان. وقد مرّ عن الفرّاء أن الفعلين إذا كانا متقاربي المعنى فلك أن تقدّم وتؤخر عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ [النجم: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ هذا يدل على أنهم رأوا ٱنشقاق القمر. قال ٱبن عباس:

[٥٧٣٦] ٱجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: إن كنت صادقاً فٱشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبي قُبَيس ونصف على قُعَيْقِعَان؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن فعلت تؤمنون» قالوا: نعم؟ وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربّه أن يعطيه ما قالوا؛ فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ﷺ ينادي المشركين: «يا فلان يا فلان ٱشهدوا». وفي حديث ٱبن مسعود:

[٥٧٣٧] ٱنشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا من سحر ٱبن أبي

[٥٧٣٦] ذكره السيوطي في الدر ٦/ ١٧٧ فقال: أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس بهذا اللفظ اهـ. ولم أره في الحلية وإنما رأيته عند أبي نعيم في «الدلائل» ٢٠٩ عن عطاء عن ابن عباس وعن الضحاك عنه وضعفه الحافظ في الفتح ٨/ ١٨١ لكن أصل الحديث صحيح.

[٥٧٣٧] صحيح. أخرجه الطيالسي ٢٤٤٧ والطبري ٣٢٦٩٩ وأبو نعيم في «الدلائل» ٢١١ و ٢١٢ والواحدي ٧٧٤=

---

(١) انظر الحديث المتقدم.

كبشة؛ سَحَرَكم فأسألوا السُّفَّار؛ فسألوهم فقالوا: قد رأينا القمر أنشق فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ أي إن يروا آية تدل على صدق محمد ﷺ أعرضوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ أي ذاهب؛ من قولهم: مَرَّ الشيءُ وأستمر إذا ذهب؛ قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء والكسائي وأبو عبيدة، وأختاره النحاس. وقال أبو العالية والضحاك: محكَم قويّ شديد، وهو من المِرَّة وهي القوّة؛ كما قال لقيط:

حتى أستمرّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتهُ مُرُّ العَزِيمَةِ لاَ قحما ولا ضَرَعاً

وقال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شدّة فتله. وقيل: معناه مُرٌّ من المرارة. يقال: أَمَرَّ الشيء صار مُرًّا، وكذلك مَرَّ الشيءُ يَمَرُّ بالفتح مرارة فهو مُرٌّ، وأمَرَّه غيره ومَرَّهُ. وقال الربيع: مستمر نافذ. يمان: ماضٍ. أبو عبيدة: باطل. وقيل: دائم. قال[1]:

وليس على شيء قوِيم بمَسْتمرْ

أي بدائم. وقيل: يشبه بعضه بعضاً؛ أي قد أستمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيء له حقيقة بل الجميع تخييلات. وقيل: معناه قد مر من الأرض إلى السماء. ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ نبيّنا ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ضلالاتهم وأختياراتهم. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ أي يستقر بكل عامل عمله، فالخير مستقرّ بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار.

وقرأ شيبة «مُسْتَقَر» بفتح القاف؛ أي لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدّم وتأخر. وقد روي عن أبي جعفر بن القَعْقَاع «وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍّ» بكسر القاف والراء جعله نعتاً لأمر و «كُلُّ» على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء والخبر محذوف، كأنه قال: وكل أمر مستقر في أمّ الكتاب كائن. ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة؛ المعنى: أقتربت الساعة وكل أمرٍ مستقر؛ أي أقترب أستقرار الأمور يوم القيامة. ومن رفعه جعله خبراً عن «كلّ».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي من بعض الأنباء؛ فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنهم يحتاجون إليه، وأن لهم فيه شفاء. وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك، وإنما أقتص علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك؛ وذلك قوله تعالى:

= من طرق عن مغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود به وإسناده صحيح. رجاله كلهم ثقات. وانظر الفتح ٨/ ١٣٨.

(١) هو امرؤ القيس.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنبَآءِ ﴾ أي جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ ﴾ أي ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه، وأصله مُزْتَجَر فقلبت التاء دالاً؛ لأن التاء حرف مهموس والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء دالاً توافقها في المخرج وتوافق الزاي في الجهر. و «مُزْدجَر» من الزجر وهو الانتهاء، يقال: زجره وأزدجره فأنزجر وأزدجر، وزجرته أنا فانزجر أي كففته فكف، كما قال:

فأصبحَ ما يطلبُ الغانيا ... تُ مُزْدَجَراً عن هواه أزدجاراً

وقرىء «مُزّجَرٌ» بقلب تاء الأفتعال زايا وإدغام الزاي فيها؛ حكاه الزمخشري.

﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ يعني القرآن وهو بدل من «ما» من قوله: ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ ﴾. ويجوز أن يكون خبر أبتداء محذوف؛ أي هو حكمة. ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ ﴾ إذا كذّبوا وخالفوا كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١ ﴾ [يونس: ١٠١] فـ «ـمَا» نفي أي ليست تغني عنهم النذر. ويجوز أن يكون أستفهاماً بمعنى التوبيخ؛ أي فأي شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها. و ﴿ وَٱلنُّذُرُ ﴾ يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير.

قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم. قيل: هذا منسوخ بآية السيف. وقيل: هو تمام الكلام. ثم قال: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾ العامل في «يَوْمَ» ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ أو ﴿ خُشَّعًا ﴾ أو فعل مضمر تقديره وأذكر يوم. وقيل: على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر، تقديره: فتولّ عنهم فإن لهم يوم يدعو الداعي. وقيل: تَوَلَّ عنهم يا محمد فقد أقمت الحجة وأبصرهم يوم يدعو الداعي. وقيل: أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، فإنهم يدعون ﴿ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾ وينالهم عذاب شديد. وهو كما تقول: لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم. وقيل: أي وكلّ أمر مستقرّ يوم يدعو الداعي. وقرأ أبن كثير «نُكْرٍ» بإسكان الكاف، وضمها الباقون وهما لغتان كعُسْر وعُسُر وشُغْل وشُغُل، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة. والداعي هو إسرافيل عليه السلام. وقد روي عن مجاهد وقتادة أنهما قرأا «إِلَى شَيْءٍ نُكِرَ» بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول. ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ الخشوع في البصر الخضوع والذلة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العزّ والذّل يتبين في ناظر الإنسان؛ قال الله تعالى: ﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ ﴾ [النازعات: ٩] وقال تعالى: ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥]. ويقال: خَشَع وٱختَشَع إذا ذلَّ. وخَشَع ببصره أي غضّه. وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمر «خَاشِعاً»

بالألف ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد، نحو: «خَاشِعاً أَبْصَارُهُمْ» والتأنيث نحو: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ ويجوز الجمع نحو: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ قال[1]:

وَشَبَـــابٍ حَسَـــنٍ أَوْجُهُهُـــمْ   مِـــنْ إيَـــادِ بـــنِ نِـــزارِ بـــنِ مَعَـــد

و «خُشَّعاً» جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الهاء والميم في «عَنْهُمْ» فيقبح الوقف على هذا التقدير على «عَنْهُمْ». ويجوز أن يكون حالاً من المضمر في «يَخْرُجُونَ» فيوقف على «عَنْهُمْ». وقرىء «خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ» على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال، كقوله:

وجدته حَاضِـرَاه الجـودُ والْكَـرَمُ

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور واحدها جدث. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾. وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ٤] فهما صفتان في وقتين مختلفين؛ أحدهما ـ عند الخروج من القبور، يخرجون فزِعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض؛ فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها الثاني ـ فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد له جهة يقصدها. و «مُهْطِعِينَ» معناه مسرعين؛ قاله أبو عبيدة. ومنه قول الشاعر:

بِـدِجْلَـةَ دَارُهـمْ ولقـد أراهـم   بـدِجْلَـةَ مُهْطِعِيـنَ إلـى السَّمـاعِ

الضحاك: مقبلين. قتادة: عامدين. ابن عباس: ناظرين. عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت. والمعنى متقارب. يقال: هَطَع الرجلُ يَهْطَعُ هُطُوعاً إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه؛ وأهطع إذا مدّ عنقه وصوّب رأسه. قال الشاعر[2]:

تَعَبَّدَنِـي نِمْـرُ بـنُ سَعْـدٍ وقـد أرى   ونِمْرُ بنُ سَعْدٍ لي مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

وبعير مُهْطِع: في عنقه تصويبٌ خِلْقةً. وأهطع في عَدْوه أي أسرع. ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ يعني يوم القيامة لما ينالهم فيه من الشدّة.

قوله تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن

(١) هو الحارث بن دوس الإيادي.

(٢) قائله تبّع.

مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكر جملاً من وقائع الأمم الماضية تأنيساً للنبيّ ﷺ وتعزية له. ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك. ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ يعني نوحاً. الزَّمَخْشَرِيُّ: فإن قلت ما معنى قوله: ﴿فَكَذَّبُوا﴾ بعد قوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾؟ قلت: معناه كذّبوا فكذَّبوا عبدنا؛ أي كذّبوه تكذيباً على عقب تكذيب؛ كلما مضى منهم قَرْن مكذِّب تبعه قَرْن مكذّب، أو كذّبت قوم نوح الرسل فكذّبوا عبدنا؛ أي لما كانوا مكذِّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً كذّبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل. ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي هو مجنون ﴿وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ أي زجر عن دعوى النبوة بالسبّ والوعيد بالقتل. وقيل إنما قال: ﴿وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ بلفظ ما لم يسم فاعله لأنه رأس آية. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ أي دعا عليهم حينئذ نوح وقال: رَبِّ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ أي غلبوني بتمردهم ﴿فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ أي فانتصر لي. وقيل: إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه. ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ﴾ أي فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء ﴿بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ أي كثير؛ قاله السدّي. قال الشاعر:

أعينيّ جُودَا بالدُّموعِ الهَوَامرِ على خيرِ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضِرِ

وقيل: إنه المنصبّ المتدفّق؛ ومنه قول آمرىء القيس يصف غيثاً:

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثم ٱنْتَحَى فيه شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ

الهَمْر الصبّ؛ وقد هَمَر الماءَ والدَّمْعَ يَهْمِرُ هَمْراً. وهَمَر أيضاً إذا أكثر الكلام وأسرع. وهَمَر له من ماله أي أعطاه. قال ٱبن عباس: ففتحنا السماء بماء مُنْهَمِرٍ من غير سحاب لم يقلع أربعين يوماً. وقرأ ٱبن عامر ويعقوب: «فَفَتَّحْنَا» مشدّدة على التكثير. الباقون «فَفَتَحْنَا» مخفّفاً. ثم قيل: إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها. وقيل: إنه المجرّة وهي شَرَج السماء ومنها فتحت بماء منهمر؛ قاله عليّ رضي الله عنه. ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ قال عُبَيد بن عُمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجّرت بالعيون، وإن عيناً تأخّرت فغضب عليها فجعل ماءها مُرّاً أُجاجاً إلى يوم القيامة. ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ أي على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر؛ حكاه ٱبن قتيبة. أي كان ماء السماء والأرض سواء. وقيل: «قُدِر» بمعنى قضي عليهم. قال قتادة: قدر لهم إذا كفروا أن يَغْرَقُوا. وقال محمد بن كعب: كانت الأقوات قبل الأجساد، وكان القدر قبل البلاء؛ وتلا هذه الآية. وقال: ﴿ٱلْتَقَى ٱلْمَاءُ﴾ والالتقاء إنما يكون في ٱثنين فصاعداً؛ لأن الماء يكون جمعاً وواحداً. وقيل: لأنهما لما

أجتمعا صارا ماء واحداً. وقرأ الجحدري: «فَالْتَقَى الْمَاءَانِ». وقرأ الحسن: «فَالْتَقَى الْمَاوَانِ» وهما خلاف المرسوم. القُشيري: وفي بعض المصاحف «فَالْتَقَى الْمَاوَانِ» وهي لغة طيّيء. وقيل: كان ماء السماء بارداً مثل الثلج وماء الأرض حاراً مثل الحميم. ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أي على سفينة ذات ألواح. ﴿وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ قال قتادة: يعني المسامير التي دُسِرت بها السفينة أي شدّت؛ وقاله القُرَظِيّ وأبن زيد وأبن جبير، ورواه الوالبي عن أبن عباس. وقال الحسن وشَهْر بن حَوْشَب وعكرمة: هي صدر السفينة التي تضرب بها المَوْج سُمِّيت بذلك لأنها تَدْسُر الماء أي تدفعه، والدَّسْرُ الدّفع والمَخْر؛ ورواه العَوْفي عن أبن عباس قال: الدَّسْر كَلْكَلُ[1] السفينة.

وقال الليث: الدِّسار خيط من ليف تُشد به ألواح السفينة. وفي الصحاح: الدِّسار واحد الدُّسر وهي خيوط تشدّ بها ألواح السفينة، ويقال: هي المسامير، وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾. ودُسْر أيضاً مثل عُسُر وعُسْر. والدَّسْر الدفع؛ قال أبن عباس في العنبر: إنما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْراً أي يدفعه. ودَسَره بالرمح. ورجل مِدْسر. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأىً منّا. وقيل: بأمرنا. وقيل: بحفظ منّا وكِلاَءة: وقد مضى في «هود». ومنه قول الناس للمودَّع: عين الله عليك؛ أي حفظه وكِلاءته. وقيل: بِوَحينا. وقيل: أي بالأعين النابعة من الأرض. وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها، وكل ما خلق الله تعالى يمكن أن يضاف إليه. وقيل: أي تجري بأوليائنا، كما في الخبر: مرض عين من عيوننا فلم تعده. ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾ أي جعلنا ذلك ثواباً وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به؛ فاللام في «لِمَنْ» لام المفعول له؛ وقيل: «كُفِرَ» أي جحد؛ فـ«ـمن» كناية عن نوح. وقيل: كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب؛ أي عقاباً لكفرهم بالله تعالى. وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد «جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ» بفتح الكاف والفاء بمعنى: كان الغرق جزاءً وعقاباً لمن كفر بالله، وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق[2]؛ كان الماء إلى حُجْزته. وسبب نجاته أن نوحاً أحتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها، فحمل عُوجٌ تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك، ونَجّاه من الغرب. ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ يريد هذه الفعلة عبرةً. وقيل: أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذّبون الرسل. قال قتادة: أبقاها الله ببَاقِرْدَى من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه

---

(١) الكلكل: الصدر.

(٢) خبر عوج بن عنق من مجازفات بني إسرائيل وأباطيلهم لا حجة فيه البتة بل كما قال الحافظ ابن كثير. بل وفي صحة وجوده نظر، وتقدم الكلام فيه.

الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رماداً. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾ مُتَّعظ خائف، وأصله مُذْتَكِر مُفْتَعِل من الذكر، فثقلت على الألسنة فقلبت التاء دالاً لتوافق الذال في الجهر وأدغمت الذال فيها. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾ أي إنذاري؛ قال الفراء: الإنذار والنذر مصدران. وقيل: «نُذُر» جمع نذير ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلناه للحفظ وأعنّا عليه من أراد حفظه؛ فهل من طالب لحفظه فيعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيّأناه للذكر مَأخوذ من يَسَّر ناقته للسَّفر: إذا رَحَلها، ويَسَّر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه؛ قال:

وقُمْتُ إليهِ باللِّجامِ مُيَسِّراً ... هُنَالكَ يَجْزِيني الذي كنتُ أَصْنَعُ

وقال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن؛ وقال غيره: ولم يكن هذا لبني إسرائيل، ولم يكونوا يقرؤون التوراة إلا نظراً، غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعزير صلوات الله عليهم، ومن أجل ذلك ٱفتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت؛ على ما تقدّم بيانه في سورة «براءة» فيسّر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذّكّروا ما فيه؛ أي يفتعلوا الذّكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ قارىء يقرؤه. وقال أبو بكر الوراق وٱبن شَوْذب: فهل من طالب خير وعلم فيعانَ عليه، وكرّر في هذه السورة للتنبيه والإفهام. وقيل: إن الله تعالى ٱقتص في هذا السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين، وما عاملتهم به الأمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين، فكان في كل قصة ونبأ ذكْر للمستمع أن لو ٱدّكر، وإنما كرّر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ لأن «هَلْ» كلمة ٱستفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم وجعلها حجة عليهم؛ فاللام من «هَلْ» للاستعراض والهاء للاستخراج.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هم قوم هود. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨﴾ وقعت «نُذُر» في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين، وورش في الوصل لا غير، وحذف الباقون. ولا خلاف في حذف الياء من قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾ والواو من قوله: ﴿يَدْعُ﴾ فأما الياء من ﴿الدَّاعِ﴾ الأول فأثبتها في الحالين ٱبن مُحيصن ويعقوب وحُميد والبَزّي، وأثبتها ورش وأبو عمرو

في الوصل، وحذف الباقون. وأما ﴿ٱلدَّاعِ﴾ الثانية فأثبتها يعقوب وٱبن مُحَيْصن وٱبن كثير في الحالين، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل، وحذفها الباقون. ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ أي شديدة البرد؛ قاله قتادة والضحاك. وقيل: شديدة الصوت. وقد مضى في «حم السجدة». ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾ أي في يوم كان مشؤوماً عليهم. وقال ٱبن عباس: أي في يوم كانوا يتشاءمون به. الزجاج: قيل في يوم أربعاء. ٱبن عباس: كان آخر أربعاء في الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم. وقرأ هارون الأعور «نَحِسٍ» بكسر الحاء وقد مضى القول فيه في حم السجدة ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ [فصلت: ١٦]. و ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾ أي دائم الشؤم ٱستمرّ عليهم بنحوسه، وٱستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك. وقيل: ٱستمر بهم إلى نار جهنم. وقال الضحاك: كان مُرًّا عليهم. وكذا حكى الكسائي أن قوماً قالوا هو من المرارة؛ يقال: مُرَّ الشيء وأَمرَّ أي كان كالشيء المرّ تكرهه النفوس. وقد قال: «فَذُوقُوا» والذي يذاق قد يكون مُرّاً. وقد قيل: هو من المِرّة بمعنى القوّة. أي في يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه. فإن قيل: فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء؟ وقد جاء أن النبيّ ﷺ ٱستجيب له فيه فيما بين الظهرِ والعصرِ[1]. وقد مضى في «البقرة» حديث جابر بذلك. فالجواب ـ والله أعلم ـ ما جاء في خبر يرويه مسروق عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٥٧٣٨] «أتاني جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر» ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين؛ كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن؛ نحسات على الكفار من قوم عاد لا على نبيهم والمؤمنين به منهم، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أوّل يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة ٱستجيب دعاء المظلوم عليه، فكان اليوم نحساً على الظالم؛ ودعاء النبيّ ﷺ إنما كان على الكفار، وقول جابر في حديثه «لم ينزل بي أمر غليظ»[2] إشارة إلى هذا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ في موضع الصفة للريح أي تَقْلَعهم من مواضعهم.

[٥٧٣٨] ضعيف. أخرجه ابن عدي في «الكامل» ١/٢٣٨ من حديث جابر، وفيه إبراهيم بن أبي حية ضعيف الحديث. وذكره الحافظ في التلخيص ٤/٢٠٦ وقال: إبراهيم ضعيف جداً اهـ ولم أره عن مسروق ولو صح فهو مرسل، وانظر الدر ٦/١٨١.

---

(١) تقدم في ٢/٣١٣.

(٢) هو المتقدم في ٢/٣١٣.

قيل: قلعتهم من تحت أقدامهم ٱقتلاع النخلة من أصلها. وقال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم فتندقّ أعناقهم وتَبِين رؤوسهم عن أجسادهم. وقيل: تنزع الناس من البيوت. وقال محمد بن كعب عن أبيه قال النبيّ ﷺ:

[٥٧٣٩] «ٱنتزعت الريح الناس من قبورهم». وقيل: حفروا حُفَراً ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منها وتكسرهم، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل قد هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة. ويروى أن سبعة منهم حفروا حفراً وقاموا فيها ليردُّوا الريح. قال ٱبن إسحاق: لما هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمى لنا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمرو بن الحلي والحرث بن شداد والهِلْقام وٱبنا تِقْن وخلجان بن سعد فأولجوا العيال في شِعب بين جبلين، ثم ٱصطفوا على باب الشِّعب ليردّوا الريح عمن في الشِّعب من العيال، فجعلت الريح تَجْعَفهم[1] رجلاً رجلاً، فقالت ٱمرأة من عاد:

ذهـبَ الـدهـرُ بعمـرِو بـ ـن حلًّـي والهنيّـات
ثـم بـالحـرث والهِلْـ ـقـامِ طَـلاَّعِ الثنِّيـات
والـذي سـدّ مهـبّ الـر يـح أيـام البلِيّـات

الطبريّ: في الكلام حذف، والمعنى تنزع الناس فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر؛ فالكاف في موضع نصب بالمحذوف. الزجاج: الكاف في موضع نصب على الحال، والمعنى تنزع الناس مشبهين بأعجاز نخل. والتشبيه قيل إنه للحُفَر التي كانوا فيها. والأعجاز جمع عَجُز وهو مؤخر الشيء، وكانت عاد موصوفين بطول القامة، فشُبِّهوا بالنخل ٱنكبت لوجوهها. وقال: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠﴾ للفظ النخل وهو من الجمع الذي يذكّر ويؤنّث. والمنقعر: المنقلع من أصله؛ قعرت الشجرة قعراً قلعتها من أصلها فٱنقعرت. الكسائي: قعرت البئر أي نزلت حتى ٱنتهيت إلى قعرها، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى ٱنتهيت إلى قعره. وأقعرت البئر جعلت لها قعراً. وقال أبو بكر بن الأنباري: سئل المبرِّد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة هذه من جملتها، فقيل له: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾ [الأنبياء: ٨١] و ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧﴾ [الحاقة: ٧] و ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠﴾؟ فقال: كلما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ

[٥٧٣٩] ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٨ بدون إسناد ومن غير عزوٍ لأحد. فلا يصح مرفوعاً.

---

(١) جعفه: صرعه وضرب به الأرض.

تذكيراً، أو إلى المعنى تأنيثاً. وقيل: إن النخل والنخيل بمعنًى يذكّر ويؤنث كما ذكرنا.
﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾ هم قوم صالح كذبوا الرسل ونبيهم، أو كذّبوا بالآيات التي هي النذر ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ ونذع جماعة. وقرأ أبو الأشهب وٱبن السَّمَيْقَع وأبو السَّمَّال العدويّ «أَبَشَرٌ» بالرفع «وَاحِدٌ» كذلك رفع بالابتداء والخبر «نَتَّبِعُهُ». الباقون بالنصب على معنى أنتبع بشراً منا واحداً نتبعه. وقرأ أبو السَّمَّال: «أَبَشَرٌ» بالرفع «مِنَّا واحِداً» بالنصب، رفع «أَبَشَرٌ» بإضمار فعل يدل عليه ﴿ أَأُلْقِيَ ﴾ كأنه قال: أينبأ بشر منّا، وقوله: «وَاحِداً» يجوز أن يكون حالاً من المضمر في «مِنَّا» والناصب له الظرف، والتقدير أينبأ بشر كائن منّا منفرداً؛ ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ نَتَّبِعُهُ ﴾ منفرداً لا ناصر له. ﴿ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ ﴾ أي ذهاب عن الصواب ﴿ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي جنون، من قولهم: ناقة مسعورة، أي كأنها من شدة نشاطها مجنونة، ذكره ٱبن عباس. قال الشاعر يصف ناقته:

تَخالُ بها سُعْراً إذا السَّفْرُ هَزَّهَا ... ذَمِيلٌ وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ

الذميل ضرب من سير الإبل. قال أبو عبيد: إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلاً فهو التزيُّد، فإذا ٱرتفع عن ذلك فهو الذميل، ثم الرَّسيم؛ يقال: ذَمَل يَذْمُل ويَذمِل ذميلاً. قال الأصمعي: ولا يَذمُل بعير يوماً وليلةً إلا مَهْرِيٌّ قاله ج. وقال ٱبن عباس أيضاً: السُّعر العذاب، وقاله الفراء. مجاهد: بعد الحق. السديّ: في ٱحتراق. قال[1]:

أصحوتَ اليومَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرّ ... ومِنَ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ

أي متقد ومحترق. أبو عبيدة: هو جمع سعير وهو لهيب النار. والبعير المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدّة. ومعنى الآية: إنَّا إذاً لفي شقاء وعناء مما يلزمنا.

قوله تعالى: ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ أي خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً؟! وهو استفهام معناه الإنكار. ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي ليس كما يدّعيه، وإنما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبر علينا من غير ٱستحقاق.

---

(١) هو طرفة.

والأَشَر المَرَح والتَجَبُّر والنّشاط. يقال: فرس أَشِر إذا كان مرحاً نشيطاً؛ قال ٱمرؤ القيس يصف كلباً:

فيـــدركنـــا فَغِـــمٌ[1] داجِـــنٌ سمِيـــعٌ بَصِيـــرٌ طَلُـــوبٌ نَكِـــرْ

أَلَـصُّ[2] الضُّـرُوسِ حَنِـيُّ الضُّلُـوعِ تَبُـــوعٌ أَرِيـــبٌ نَشِيـــطٌ أَشِـــرْ

وقيل: «أَشِرٌ» بطِر. والأَشَر البَطَر؛ قال الشاعر:

أَشِـرْتُـمْ بلُبْـس الخَـزِّ لمّـا لَبِسْتُـمُ ومِنْ قبلُ ما تَدْرونَ مَنْ فَتَحَ الْقُرَى

وقدأَشِر بالكسر يأشَر أَشَراً فهو أَشِر وأَشْران، وقوم أَشَارى مثل سَكْران وسُكَارى؛ قال الشاعر[3]:

وخَلَّـــتْ وُعُـــولاً أَشَـــارَى بهـــا وقـــد أَزْهَـــفَ الطَّعْـــنُ أبطـــالَهَـــا

وقيل: إنه المتعدي إلى منزلة لا يستحقها؛ والمعنى واحد. وقال ٱبن زيد وعبد الرحمن بن حماد: الأشِر الذي لا يبالي ما قال. وقرأ أبو جعفر وأبو قِلابة «أَشَرٌّ» بفتح الشين وتشديد الراء يعني به أشرنا وأخبثنا. ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾ أي سيرون العذاب يوم القيامة، أو في حال نزول العذاب بهم في الدنيا. وقرأ ٱبن عامر وحمزة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب. الباقون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم. وقوله: «غَداً» على التقريب على عادة الناس في قولهم للعواقب: إن مع اليوم غداً؛ قال:

للمـوتِ فيهـا سِهـامٌ غيـر مُخْطِئَـةٍ مَنْ لم يكن مَيِّتاً في اليومِ ماتَ غَدَا

وقال الطِرِمَّاح:

أَلاَ عَلِّـلاَنِـي قبـل نَـوْحِ النَّـوَائِـح وقَبْلَ ٱضْطِرَابِ النَّفْسِ بَين الْجَوَانِحِ

وقبلَ غَدٍ يا لَهْفَ نفسي على غَدٍ إذا رَاحَ أصحـابـي ولسـتُ بـرائِـح

إنما أراد وقت الموت ولم يرد غداً بعينه. ﴿مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ وقرأ أبو قِلابة «الأَشَرُّ» بفتح الشين وتشديد الراء جارٍ به على الأصل. قال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخيَر إلا في ضرورة الشعر؛ كقول رؤبة:

بِـلاَلٌ خَيْـرُ النـاسِ وٱبـنُ الأَخْيَـر

---

(١) الفَغِم: المولع بالصيد.

(٢) الألص: الذي التصقت أسنانه بعضها ببعض.

(٣) هي مية بنت ضرار الضَّبي.

وإنما يقولون هو خير قومه، وهو شر الناس؛ قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [مريم: ٧٥]. وعن أبي حيوة بفتح الشين وتخفيف الراء. وعن مجاهد وسعيد بن جُبير ضم الشين والراء والتخفيف، قال النحاس: وهو معنى «الأشِر» ومثله رجل حَذِر وحَذُر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ أي مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروي أن صالحاً صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عُشَراء وبراء. ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي اختباراً وهو مفعول له. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي انتظر ما يصنعون. ﴿وَاصْطَبِرْ (٢٧)﴾ أي اصبر على أذاهم، وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحوّلت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق. ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين آل ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥)﴾ [الشعراء: ١٥٥]. قال ابن عباس: كان يوم شِربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كلّه فلم تُبق لهم شيئاً. وإنما قال: «بَيْنَهُمْ» لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلّبوا بني آدم. وروى أبو الزبير عن جابر قال:

[٥٧٤٠] لما نزلنا الحجْر في مغزى رسول الله ﷺ تبُوك، قال: «أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل إليهم الناقة فكانت تَرِد من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غِبِّها» وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨)﴾ الشِّرْب ـ بالكسر ـ الحَظ من الماء؛ وفي المثل: (آخرها أقلّها شِرْباً) وأصله في سقي الإبل، لأن آخرها يرد وقد نزِف الحوضُ. ومعنى «مُحْتَضَر» أي يحضُره مَن هو له؛ فالناقة تَحضُر الماء يوم وِردها، وتغيب عنهم يوم وِردهم؛ قاله مقاتل. وقال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم غبّها فيشربون، ويحضرون اللبن يوم وِردها فيحتلبون.

[٥٧٤٠] أخرجه أحمد ٣/٢٩٦ من حديث جابر، وصححه ابن كثير في البداية والنهاية ٥/١١.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ يعني بالحضّ على عَقْرها ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ عقرها ﴿فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ هَا ومعنى تعاطى تناول الفعل؛ من قولهم: عَطَوتُ أي تناولت؛ ومنه قول حسان:

كلْتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فعَاطِنِي ... بزجاجةٍ أرخاهما للمِفْصَلِ

قال محمد بن إسحاق: فكمِن لها في أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عَضَلة ساقها، ثم شدّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها، فخرّت ورَغت رُغاءةً واحدة تحَدّر سَقْبها من بطنها ثم نَحرها، وٱنطلق سَقْبها حتى أتى صخرة في رأس جبل فرغا ثم لاذ بها، فأتاهم صالح عليه السلام؛ فلما رأى الناقة قد عُقِرت بكى وقال: قد ٱنتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله. وقد مضى في «الأعراف» بيان هذا المعنى. قال ٱبن عباس: وكان الذي عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى. ويقال في ٱسمه قُدَار بن سالف. وقال الأفوه الأَوْدي:

أو قَبْلَه كقُدَارٍ حين تَابَعَهُ ... على الغِوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمِّي الجزّار قُدَاراً تشبيهاً بقُدَار بن سالف مشؤوم آل ثمود؛ قال مُهلهِل:

إنَّا لَنَضْرِبُ بالسُّيُوفِ رؤُوسَهمْ ... ضَرْبَ القُدَارِ نقِيعةَ القُدَّامِ

وذكره زهير فقال:

فَتُنْتَجْ لَكُمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ ... كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ

يريد الحرب؛ فكنّى عن ثمود بعاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يريد صيحة جبريل عليه السلام، وقد مضى في «هود». ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية «المحْتَظَر» بفتح الظاء أرادوا الحظيرة. الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة. وفي الصحاح: والمحتِظر الذي يعمل الحظيرة. وقرىء «كَهَشِيم المحتظَر» فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحه جعله المفعول به. ويقال للرجل القليل الخير: إنَّه لَنَكِدُ الْحظِيرَة. قال أبو عبيد: أراه سمى أمواله حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. المهدوي: من فتح الظاء من «المحتظر» فهو مصدر، والمعنى كهشيم الاحتظار. ويجوز أن يكون «المحتظَر» هو الشجر المتخذ منه الحظيرة. قال ٱبن عباس: «المحتظِر» هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك؛ فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم. قال:

أَثَــرْنَ عَجاجــةً كــدخــانِ نــارٍ   تشــبّ بغَــرْقَــدٍ بــالٍ هَشِيــمِ

وعنه: كحشيش تأكله الغنم. وعنه أيضاً: كالعظام النخرة المحترقة، وهو قول قتادة. وقال سعيد بن جُبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح. وقال سفيان الثوري: هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا، وهو فعيل بمعنى مفعول. وقال ٱبن زيد: العرب تسمِّي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً. والحظْر المنع، والمحتظر المفتعل يقال منه: ٱحتظر على إبله وحظر أي جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله؛ قال الشاعر:

تَــرَى جِيَــفَ المَطِــيِّ بجــانبيــه   كــأنّ عظــامَهــا خَشَــبُ الهَشِيــمِ

وعن ٱبن عباس: أنهم كانوا مثل القمح الذي ديس وهشم؛ فالمحتظر على هذا الذي يتخذ حظيرة على زرعه، والهشيم فُتات السنبلة والتبن. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ أخبر عن قوم لوط أيضاً لما كذّبوا لوطاً. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى؛ قال النّضر: الحاصب الحصباء في الريح. وقال أبو عبيدة: الحاصب الحجارة. وفي الصحاح: والحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء وكذلك الحَصِبة؛ قال لَبيد:

جَرَّتْ عليها أَنْ خَوَتْ مِن أهلَها   أذيــالَهــا كُــلُّ عَصُــوفٍ حَصِبَــهْ

عصفت الريح أي ٱشتدّت فهي ريح عاصفٌ وعَصُوف. وقال الفَرَزْدق:

مستقبليــن شمــالَ الشــامِ تَضـرِبُنـا   بحـاصـبٍ كـنَـديـفِ القُطْنِ منثـورِ

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ قال الأخفش: إنما أجراه لأنه نكرة، ولو أراد سَحَر يوم بعينه لما أجراه، ونظيره: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١] لما نكّره، فلما عرّفه في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لم يُجْرِه، وكذا قال الزجاج: «سحر» إذا كان نكرة يراد به سَحَر من الأسحار يصرف، تقول

أتيته سحراً، فإذا أردت سحر يومك لم تصرفه، تقول: أتيته سَحَر يا هذا، وأتيته بسحر. والسَّحَرُ: هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر، وهو في كلام العرب ٱختلاط سواد الليل ببياضِ أوّل النهار؛ لأن في هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار. ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾ إنعاماً منّا على لوط وٱبنتيه؛ فهو نَصْب لأنه مفعول به. ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ أي من آمن بالله وأطاعه. ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم﴾ يعني لوطاً خوّفهم ﴿بَطۡشَتَنَا﴾ عقوبتنا وأَخْذنا إياهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾ أي شكّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدّقوه، وهو تفاعل من المِرْية. ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ أي أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف طلباً للفاحشة على ما تقدّم. يقال: راوَدْته على كذا مُرَاوَدةً ورِوَاداً أي أردتُه. وراد الكلأ يروده رَوْداً ورِياداً، وٱرْتاده ٱرتياداً بمعنًى أي طلبه؛ وفي الحديث:

[٥٧٤١] «إذا بال أحدكم فلْيَرْتَدْ لِبوله» أي يطلب مكاناً ليناً أو منحدراً. ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ يروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فعُموا. وقيل: صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شقّ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب. وقيل: لا، بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل؛ فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم. ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ أي فقلنا لهم ذوقوا، والمراد من هذا الأمر الخبر؛ أي فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط. ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾﴾ أي دائم عام ٱستقر فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة. وذلك العذاب قَلْب قريتهم عليهم وجعل أعلاها أسفلها. و «بُكۡرَةً» هنا نكرة فلذلك صرفت. ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذي أهلكوا به فلذلك حسن التكرير. ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٤٠﴾﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ يعني القبط و «ٱلنُّذُرُ» موسى وهارون. وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين. ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ معجزاتنا الدالة على توحيدنا ونبوّة

[٥٧٤١] أخرجه أبو داود(٣) من حديث أبي موسى، وفي إسناده أبو التياح قال: حدثني شيخ ولم يسمه لذا قال المنذري في مختصره: فيه مجهول اهـ فالخبر واهٍ.

أنبيائنا؛ وهي العصا، واليد، والسّنون، والطمسة، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وقيل: ﴿ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾ الرسل؛ فقد جاءهم يوسف وبنوه إلى أن جاءهم موسى. وقيل: ﴿ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾ الإنذار. ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي غالب في ٱنتقامه ﴿مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ أي قادر على ما أراد.

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾.

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ خاطب العرب. وقيل: أراد كفار أمّة محمد ﷺ. وقيل: ٱستفهام، وهو ٱستفهام إنكار ومعناه النفي؛ أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدّم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم. ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣﴾ أي في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة. وقال ٱبن عباس: أم لكم في اللوح المحفوظ براءة من العذاب. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤﴾ أي جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم، ولم يقل منتصرين ٱتباعاً لرؤوس الآي؛ فرد الله عليهم فقال: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ أي جمع كفار مكة، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره. وقراءة العامة «سَيُهْزَمُ» بالياء على ما لم يسم فاعله «الْجَمْعُ» بالرفع. وقرأ رُوَيس عن يعقوب «سَنَهْزِمُ» بالنون وكسر الزاي «الْجَمْعَ» نصباً. ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم. وقرأ عيسى وٱبن إسحاق ورُوَيس عن يعقوب «وَتُوَلُّونَ» بالتاء على الخطاب. و ﴿ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ ٱسم جنس كالدرهم والدينار فوحّد والمراد الجمع لأجل رؤوس الآي. وقال مقاتل: ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقدّم من الصّف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾. وقال سعيد بن جبير قال سعد بن أبي وقّاص: لما نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ كنت لا أدري أي الجمع ينهزم، فلما كان يوم بَدْر رأيت النبيّ ﷺ يَثِب في الدرع ويقول: اللهم إن قريشاً جاءتك تُحَادُّك وتُحادُّ رسولَك بفخرها و خُيَلائها فأخنهم الغداةَ ـ ثم قال ـ ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ فعرفت تأويلها[1]. وهذا من معجزات النبيّ ﷺ؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر. أخنى عليه الدهر: أي أتى عليه وأهلكه، ومنه قول النابغة:

أَخْنَـى عليـه الـذي أَخْنَـى علـى لُبَـدِ

---

(١) راجع الدر ٦/ ١٨٤ ودلائل النبوة ٣/ ٣٥ والسيرة لابن هشام ٢/ ٢٤٣ ـ ٢٦١ وتفسير البغوي ٤/ ٢٤١ وأكثر الروايات أنه عمر بدل سعد.

وأخنيت عليه: أفسدت. قال ٱبن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين؛ فالآية على هذا مكية. وفي البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت:

[٥٧٤٢] لقد أنزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾. وعن ٱبن عباس أن النبيّ ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر:

[٥٧٤٣] «أَنْشُدُكَ عهدَكَ ووعدَكَ اللّهم إن شئت لم تُعبدْ بعدَ اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك؛ وهو في الدّرْع فخرج وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ يريد القيامة. ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي أدهى وأمرّ مما لحقهم يوم بدر. و «أَدْهَى» من الداهية وهي الأمر العظيم؛ يقال: دهاه أمر كذا أي أصابه دهواً ودهياً. وقال ٱبن السكيت: دهته داهية دهواء ودهياء وهي توكيد لها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ أي في حَيْدةٍ عن الحق و «سُعُرٍ» أي ٱحتراق. وقيل: جنون على ما تقدّم في هذه السورة. ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال:

[٥٧٤٤] جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القَدَر فنزلت: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ خرجه الترمذي أيضاً وقال: حديث حسن صحيح. وروى مسلم عن طاوس قال:

[٥٧٤٥] أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقَدَر. قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال النبيّ ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقَدر حتى العَجْز والكَيْس

[٥٧٤٢] صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٧٦ و ٤٩٩٣ عن عائشة به.

[٥٧٤٣] صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٧٥ و ٤٨٧٧ والبغوي ٤/ ٢٤٠ ـ ٢٤١ من حديث ابن عباس.

[٥٧٤٤] صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٦ والترمذي ٢١٥٧ و ٣٢٩٠ وابن ماجه ٨٣ والواحدي ٧٧٥ من حديث أبي هريرة.

[٥٧٤٥] صحيح. أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» ص ٢٥ ومسلم ٢٦٥٥ ومالك ٢/ ٨٩٩ وأحمد ٢/ ١١٠ وابن حبان ٦١٤٩ عن طاووس عن ابن عمر مرفوعاً به.

ـ أو ـ الكَيْس والعَجْز» وهذا إبطال لمذهب القدَرية. ﴿ذُوقُواْ﴾ أي يقال لهم ذوقوا، ومسّها ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها. و «سَقَر» اسم من أسماء جهنم لا ينصرف؛ لأنه اسم مؤنث معرفة، وكذا لَظَى وجهنم. وقال عطاء: «سَقَر» الطبق السادس من جهنم. وقال قُطْرب: «سَقَر» من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته لَوّحَتْه. ويوم مُسَمْقِرٌ ومُصَمْقِرٌ: شديدُ الحرّ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ قراءة العامة ﴿كُلَّ﴾ بالنصب. وقرأ أبو السَّمَّال «كُلُّ» بالرفع على الابتداء. ومن نصب فبإضمار فعل وهو اختيار الكوفيين؛ لأن إنّ تطلب الفعل فهي به أولى، والنصب أدلّ على العموم في المخلوقات لله تعالى؛ لأنك لو حذفت ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ المفسّر وأظهرت الأوّل لصار إنا خلقنا كلّ شيء بقدر. ولا يصح كون خلقناه صفة لشيء؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله.

الثالثة: الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدّر الأشياء؛ أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلويّ والسفليّ إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه، سبحانه لا إله إلا هو، ولا خالق غيره؛ كما نص عليه القرآن والسنة، لا كما قالت القدَريّة وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا. قال أبو ذَرٍّ رضي الله عنه:

[٥٧٤٦] قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا؛ فنزلت هذه الآيات إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ فقالوا: يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا؟ فقال: «أنتم خصماء الله يوم القيامة».

الرابعة: روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

[٥٧٤٧] «إن مجوس هذه الأمة المكذّبون بأقدار الله إن مرِضوا فلا تعودوهم وإن

[٥٧٤٦] أخرجه الواحدي ٧٧٧ عن بحر السقاء عن شيخ من قريش عن عطاء مرسلاً، وهو ضعيف بحر السقاء واهٍ وفيه شيخ لم يسمّ وهو مرسل أيضاً ولم أره من حديث أبي ذر ولو صح لذكره الواحدي في أسباب النزول أو السيوطي وغيرهما والله أعلم.

[٥٧٤٧] ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٩٢ من حديث جابر وفيه بقية بن الوليد مدلس وقد عنعن وكذا ابن جريج وأبو الزبير كلاهما مدلس.

ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلّموا عليهم». خرجه ٱبن ماجه في سننه. وخرج أيضاً عن ٱبن عباس وجابر قالا: قال رسول الله ﷺ:

[٥٧٤٨] «صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقَدَر». وأسند النحاس: وحدّثنا إبراهيم بن شريك الكوفي قال حدّثنا عقبة بن مكرم الضّبي قال حدّثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال:

[٥٧٤٩] قال رسول الله ﷺ: «القدَريّة الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم منّي» وفي صحيح مسلم أن ٱبن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر، ثم أكد هذا بقوله: والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقَدَر[1]. وهذا مثل قوله تعالى في المنافقين: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٥٤] وهذا واضح. وقال أبو هريرة:

[٥٧٥٠] قال النبيّ ﷺ: «الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن».

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي إلا مرةً واحدة. ﴿ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ أي قضائي في خلْقي أسرع من لمَحْ البصر. واللَّمح النظر بالعَجَلة؛ يقال: لمَحَ البرق ببصره. وفي الصحاح: لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم اللمحة، ولمَحَ البَرقُ والنجمُ لمَحْاً أي لمَع.

[٥٧٤٨] ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٧٣ من حديث ابن عباس وجابر بهذا اللفظ وإسناده ضعيف لضعف نزار بن حيان قال ابن حبان عنه: يأتي عن عكرمة بما ليس من حديثه حتى يسبق إلى القلب أنه المتعمد لذلك.
وأخرجه الترمذي ٢١٤٩ وابن ماجه ٦٢ عن ابن عباس مختصراً وإسناده ضعيف أيضاً لأجل نزار بن حيان ـ ويراجع هذا الحديث وأشباهه في كتب الموضوعات لابن الجوزي واللآلىء للسيوطي وغير ذلك.

[٥٧٤٩] واهٍ بمرة. أخرجه الديلمي ٤٧٠٦ وابن عدي ٣/ ٣٨٨ والنحاس كما ذكر القرطبي كلهم من حديث أنس. ومداره على سعيد بن ميسرة. قال ابن عدي: قال البخاري: منكر الحديث، قال ابن عدي بعد أن ساق له أحاديث أخر: وهذه ليست محفوظة وهو مظلم الأمر.

[٥٧٥٠] لم أجده وأمارة الوضع لائحة عليه.

---

(١) تقدم رواه مسلم وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباهكم في الكفر من الأمم الخالية. وقيل: أتباعكم وأعوانكم. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ أي من يتذكر.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ أي جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوباً عليهم؛ وهذا بيان قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾. ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ أي في اللوح المحفوظ. وقيل: في كتب الحفظة. وقيل: في أم الكتاب. ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ أي كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به، ومكتوب إذا فعله؛ سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً كَتَبَ؛ وٱستطَرَ مثله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضاً. «وَنَهَرٍ» يعني أنهار الماء والخمر والعسل واللّبن؛ قاله ٱبن جريج. ووحد لأنه رأس الآية، ثم الواحد قد ينبىء عن الجميع. وقيل: في «نَهَرٍ» في ضياء وسَعة؛ ومنه النهار لضيائه، ومنه أنهرت الجرح؛ قال الشاعر[1]:

مَلكتُ بها كَفي فأنهرتُ فَتقَها ... يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءَها

وقرأ أبو مِجْلَز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرِّف وقتادة «وَنُهُرٍ» بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم؛ كسحاب وسُحُب. قال الفراء: أنشدني بعض العرب:

إنْ تَكُ ليليًّا فإنِّي نَهِرُ ... مَتَى أرى الصُّبحَ فلا أَنتَظِرُ

أي صاحب النهار. وقال آخر:

لَوْلا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ ... ثَرِيدُ ليلٍ وثَريدٌ بالنُّهُرْ

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ أي يقدر على ما يشاء. و «عِنْدَ» هاهنا عندية القُربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة. قال الصادق: مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق. وقرأ عثمان البَتِّي «في مَقَاعِدِ صِدْقٍ» بالجمع؛ والمقاعد مواضع قعود الناس في الأسواق وغيرها. قال عبد الله بن بريدة: إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى، فيقرؤون القرآن على ربهم تبارك وتعالى، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر من الدرّ والياقوت والزبرجد والذّهب والفضّة بقدر أعمالهم، فلا تَقَرّ أعينهم بشيء قط كما تَقَرّ بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى منازلهم، قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد. وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان: بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون: يا أولياء الله ٱنطلقوا؛ فيقولون: إلى

(١) هو قيس بن الخطيم.

أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ فيقول المؤمنون: إنكم تذهبون بنا إلى غير بُغْيتنا. فيقولون: فما بغيتكم؟ فيقولون: مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقد روي هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى؛ ففي الخبر: أن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفها الملائكة إلى الجنة والناس في الحساب، فيقولون للملائكة: إلى أين تحملوننا؟ فيقولون إلى الجنة. فيقولون: إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا؛ فيقولون: وما بغيتكم؟ فيقولون: المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾. والله أعلم.

تم تفسير سورة «القمر» والحمد لله.

سورة الرحمن عز وجل

مكّية كلها في قول الحسن وعُرْوة بن الزبير وعِكرمة وعطاء وجابر. وقال ٱبن عباس: إلا آية منها هي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩] الآية. وهي ست وسبعون آية. وقال ٱبن مسعود ومقاتل: هي مدنية كلها. والقول الأوّل أصح لما روى عُرْوة بن الزبير قال: أوّل من جهر بالقرآن بمكة بعد النبيّ ﷺ ٱبن مسعود؛ وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط، فمن رجل يسمِعهموه؟ فقال ٱبن مسعود: أنا؛ فقالوا: إنا نخشى عليك، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى ثم قام عند المقام فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: ١] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ ثم تمادى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها، فتأملوا وقالوا: ما يقول ٱبن أُمّ عَبْد؟ قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثّروا في وجهه. وصح أن النبيّ ﷺ قام يصلّي الصبح بنخلة، فقرأ سورة «الرَّحْمَنُ» ومرّ النفر من الجنّ فآمنوا به[1]. وفي الترمذي عن جابر قال:

[٥٧٥١] خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة «الرَّحْمَنُ» من أولها

[٥٧٥١] أخرجه الترمذي ٣٢٩١ والحاكم ٢/ ٤٧٤ والبيهقي في الدلائل ٢/ ٢٣٢ من حديث جابر، ومداره على زهير بن محمد قال الترمذي: غريب قال البخاري: أهل الشام يروون عن زهير مناكير اهـ وهذا من رواية أهل الشام عنه. قال الحافظ في التقريب: رواية أهل الشام عنه غير مستقيمة ضعف بسببها. وله شاهد أخرجه البزار ٢٢٦٩ والطبري ٣٢٩٢٨ من حديث ابن عمر. وصححه السيوطي في الدر ٦/ ١٨٩ وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ١١٧: عمرو بن مالك الراسبي وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رواته ثقات اهـ قلت: نقل الذهبي في الميزان في ترجمة زهير بن محمد عن ابن عدي قوله: وسرقه جماعة فحدثوا به =

---

(١) تقدم خبر الجن الذين آمنوا ويأتي في أول سورة الجنّ.

إلى آخرها فسكتوا؛ فقال: «لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ فكانوا أحسن مردوداً منكم كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ قالوا لا بشيء من نعمك ربنّا نكذب فلك الحمد» قال: هذا حديث غريب. وفي هذا دليل على أنها مكية والله أعلم. وروي أن قيس بن عاصم المِنْقري قال للنبيّ ﷺ:

[٥٧٥٢] أتل عليّ مما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة «الرَّحْمٰنُ» فقال: أعدها؛ فأعادها ثلاثاً؛ فقال: واللَّهِ إنّ له لطُلاوة، وإن عليه لحَلاَوة، وأسفله لَمُغْدِق، وأعلاه مثمر، وما يقول هذا بشر، وأنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله. وروي عن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

[٥٧٥٣] «لكل شيء عَروس وعَروس القرآن سورة الرحمٰن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشَّعْبي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ فاتحة ثلاث سور إذا جُمعن كن اسماً من أسماء الله تعالى «الۤر» و «حۤم» و «نۤ» فيكون مجموع هذه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾. ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ أي علّمه نبيّه ﷺ حتى أدّاه إلى جميع الناس. وأنزلت حين قالوا: وَمَا الرَّحْمٰنُ؟ وقيل: نزلت جواباً لأهل مكة

= منهم بركة بن محمد وعلي بن جميل وعمرو بن مالك البصري وقال الذهبي في ترجمة عمرو بن مالك: ضعفه أبو يعلى وقال ابن عدي: يسرق الحديث وتركه أبو زرعة وأما ابن حبان فذكره في الثقات اهـ. وضعفه الحافظ في التقريب. وتابعه محمد بن عياد بن موسى عند الطبري لكنه مجروح فقد قال إبراهيم بن جنيد: سألت عنه يحيى فلم يحمده وقال ابن عقدة فيه نظر اهـ وبهذا يتبين ضعف هذا الحديث وأن مداره على زهير وسرقه جماعة والعجب كيف يصحح السيوطي مثل هذا الحديث.

[٥٧٥٢] لم أعثر عليه. وبحثت عنه في ترجمته من الإصابة فلم يذكره والله أعلم. والمشهور في هذا الوليد لكنه لم يؤمن.

[٥٧٥٣] ضعيف جداً. أخرجه البيهقي في الشعب ٢٤٩٤ من حديث علي. وفي إسناده مجاهيل.

حين قالوا: إنما يعلّمه بشر وهو رحمٰن اليمامة؛ يعنون مسيلِمة الكذّاب، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ وقال الزجاج: معنى ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ أي سهّله لأن يُذكر ويُقرأ كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]. وقيل: جعله علامة لما تعبد الناس به. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ قال ٱبن عباس وقتادة والحسن يعني آدم عليه السلام. ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ أسماء كل شيء. وقيل: علمه اللغات كلها. وعن ٱبن عباس أيضاً وٱبن كيسان: الإنسان هاهنا يراد به محمد ﷺ والبيان بيان الحلال من الحرام، والهدى من الضلال. وقيل: ما كان وما يكون؛ لأنه بيّن عن الأوّلين والآخرين ويوم الدِّين. وقال الضحاك: «البيان» الخير والشر. وقال الربيع بن أنس: هو ما ينفعه وما يضره؛ وقاله قتادة. وقيل: «الإنْسَانَ» يراد به جميع الناس فهو ٱسم للجنس و «الْبَيَانَ» على هذا الكلامُ والفهم، وهو مما فُضّل به الإنسان على سائر الحيوان. وقال السديّ: علّم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به. وقال يمان: الكتابة والخط بالقلم. نظيره: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٤ ـ ٥]. ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ أي يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر. قال ٱبن عباس وقتادة وأبو مالك: أي يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها. وقال ٱبن زيد وٱبن كيسان: يعني أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يَحسب شيئاً لو كان الدهر كلّه ليلاً أو نهاراً. وقال السديّ: «بِحُسْبَانٍ» تقدير آجالهما أي تجري بآجال كآجال الناس، فإذا جاء أجلهما هلكا؛ نظيره: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]. وقال الضحاك: بقدر. مجاهد: «بِحُسْبَانٍ» كحسبان الرَّحَى يعني قطبها يدوران في مثل القطب. والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أحْسُبُه بالضم حَسْباً وحُسْباناً، مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجْحان، وحِسابة أيضاً أي عددته. وقال الأخفش: ويكون جماعة الحساب مثل شِهاب وشُهبان. والحُسْبان أيضاً بالضم العذاب والسهام القصار، وقد مضى في «الكهف» الواحدة حُسْبانة، والحُسْبانة أيضاً الوسادة الصغيرة؛ تقول منه: حَسَّبتُه إذا وسَّدْته؛ قال[1]:

... لَثَوَيْتَ غيرَ مُحَسَّبِ

أي غير موسَّد يعني غير مكرَّم ولا مكَفَّن ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ قال ٱبن عباس وغيره: النجم ما لا ساق له والشجر ما له ساق، وأنشد ٱبن عباس قول صفوان بن أسد التميمي:

لَقَدْ أَنْجَمَ الْقَاعُ الكَبيرُ عِضَاهَه ... وتَمَّ به حيّاً تَميم ووَائِلِ

(١) هو نهيك الفزاري.

وقال زهير بن أبي سُلْمى:

مُكَلَّـلٌ بـأُصـولِ النَّجْـم تَنسِجُـه   ريحُ الجَنوبِ لِضاحِي مائه حُبُكُ

واشتقاق النجم من نَجَم الشيءُ ينجُم بالضم نجوماً ظهر وطلع، وسجودهما بسجود ظلالهما؛ قاله الضحاك. وقال الفرّاء: سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء. وقال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما قال تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال الحسن ومجاهد: النجم نجم السماء، وسجوده في قول مجاهد دوران ظله، وهو اختيار الطبري، حكاه المهدوي. وقيل: سجود النجم أفوله، وسجود الشجر إمكان الاجتناء لثمرها، حكاه الماوردي. وقيل: إن جميع ذلك مسخر لله، فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصابئين النجوم، وعبد كثير من العجم الشجر. والسجود الخضوع، والمعنىّ به آثار الحدوث، حكاه القشيري. النحاس: أصل السجود في اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل، فهو من الموات كلها استسلامها لأمر الله عز وجل وانقيادها له، ومن الحيوان كذلك ويكون من سجود الصلاة، وأنشد محمد بن يزيد في النجم بمعنى النجوم قال[1]:

فبـاتَـتْ تَعُـدُّ النَّجْـمَ فـي مَسْتَحيـرة   سَـرِيـعٍ بـأَيْـدي الآكِلِيـنَ جُمُـودُهَـا

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ وقرأ أبو السمَّال «والسَّمَاءُ» بالرفع على الابتداء واختار ذلك لما عطف على الجملة التي هي: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ فجعل المعطوف مركباً من مبتدإ وخبر كالمعطوف عليه. الباقون بالنصب على إضمار فعل يدل عليه ما بعده. ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ أي العدل؛ عن مجاهد وقتادة والسدي، أي وضع في الأرض العدل الذي أمر به، يقال: وضع الله الشريعة. ووضع فلان كذا أي ألقاه؛ وقيل: على هذا الميزان القرآن، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه وهو قول الحسين بن الفضل. وقال الحسن وقتادة ـ أيضاً ـ والضحاك: هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ والقسط العدل. وقيل: هو الحكم. وقيل: أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال. وأصل مِيزان مِوزان وقد مضى في «الأعراف» القول فيه. ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ موضع «أَنْ» يجوز أن يكون نصباً على تقدير حذف حرف الجرّ كأنه قال: لئلا تطغوا؛ كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]. ويجوز ألا يكون لـ «أن» موضع من الإعراب فتكون بمعنى أي و «تَطْغَوْا» على هذا التقدير مجزوماً؛

(١) قائله الراعي.

كقوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ [صٓ: ٦] أي امشوا. والطغيان مجاوزة الحدّ. فمن قال: الميزان العدل قال طغيانه الجور. ومن قال: إنه الميزان الذي يوزن به قال طغيانه البخس. قال ٱبن عباس: أي لا تخونوا من وزنتم له. وعنه أنه قال: يا معشر الموالي! وليتم أمرين بهما هلك الناس: المكيال والميزان. ومن قال إنه الحُكْم قال: طغيانه التحريف. وقيل: فيه إضمار؛ أي وضع الميزان وأمركم ألا تَطْغَوْا فيه. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي ٱفعلوه مستقيماً بالعدل. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل. وقال ٱبن عيينة: الإقامة باليد والقسط بالقلب. وقال مجاهد: القسط العدل بالرومية. وقيل: هو كقولك أقام الصلاة أي أتى بها في وقتها، وأقام الناس أسواقهم أي أتوها لوقتها. أي لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل. ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ ولا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن، وهذا كقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]. وقال قتادة في هذه الآية: أعدل يا بن آدم كما تحبّ أن يُعدَل لك، وأوف كما تحبّ أن يُوفّى لك؛ فإن العدل صلاح الناس. وقيل: المعنى ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم. وكرر الميزان لحال رؤوس الآي. وقيل: التكرير للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه. وقراءة العامة «تُخْسِرُوا» بضم التاء وكسر السين. وقرأ بلال بن أبي بُرْدة وأبان عن عثمان «تَخْسَرُوا» بفتح التاء والسين وهما لغتان، يقال: أخسرت الميزان وخسرته كأجبرته وجبرته. وقيل: «تَخْسَرُوا» بفتح التاء والسين محمول على تقدير حذف حرف الجرّ؛ والمعنى ولا تخسروا في الميزان. ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ الأنام الناس؛ عن ٱبن عباس. الحسن: الجنّ والإنس. الضحاك: كل ما دبّ على وجه الأرض، وهذا عام. ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي كل ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار. ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾ الأكمام جمع كِمٍّ بالكسر. قال الجوهري: والكِمَّة بالكسر والكِمَامة وعاء الطلع وغِطاء النَّوْر والجمع كِمَام وأَكِمَّة وأَكْمَام والأكاميم أيضاً. وكُمَّ الفصيلُ إذا أُشفق عليه فَسُتِر حتى يَقْوَى؛ قال العجاج:

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ الناسَ إذْ تُكُمُّوا ... بغُمَّةٍ لَوْ لَمْ تُفَرَّجْ غُمُّوا

وتُكُمُّوا أي أغمي عليهم وغُطُّوا. وأَكَمَّت النَّخلةُ وكَمَّمت أي أخرجت أكمامها. والكِمَام بالكسر والكِمَامة أيضاً ما يُكَمّ به فم البعير لئلا يَعضّ؛ تقول منه: بعير مكموم أي مَحْجوم. وكَمَّمت الشيء غَطيته. والكَمُّ ما ستر شيئاً وغطّاه؛ ومنه كُمُّ القميص بالضم والجمع أَكْمَام وكممة، مثل حُبّ وحِبَبَة. والكُمَّة القَلَنْسوة المدوَّرة؛ لأنها تغطِّي الرأس. قال:

فقلتُ لهمْ كِيلو بكُمَّةِ بعضِكُمْ   دَراهمَكُمْ إنِّي كذلك أَكْيَلُ

قال الحسن: ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾ أي ذات الليف فإن النخلة قد تُكَمّم بالليف، وكِمَامها ليفها الذي في أعناقها. ٱبن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق. وقال عكرمة: ذات الأحمال. ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ الحبّ الحِنطة والشعير ونحوهما؛ والعصف التِّبن؛ عن الحسن وغيره. مجاهد: ورق الشجر والزرع. ٱبن عباس: تِبْن الزرع وورقه الذي تَعصِفه الرياح. سعيد بن جبير: بَقْل الزرع أي أوّل ما ينبت منه؛ وقاله الفرّاء. والعرب تقول: خرجنا نَعصِف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يُدرِك. وكذا في الصحاح: وعَصَفتُ الزَّرعَ أي جززته قبل أن يُدرِك. وعن ٱبن عباس أيضاً: العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويبس؛ نظيره: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ٥] الجوهري: وقد أَعصفَ الزرعُ، ومكان مُعْصِف أي كثير الزرع. قال أبو قيس بن الأَسْلت الأنصاريّ:

إذا جُمَادَى مَنَعَتْ قَطْرَهَا   زَانَ جَنَابِي عَطَنٌ مُعْصِفُ

والعَصْف أيضاً الكَسْب؛ ومنه قول الراجز:

بغيرِ ما عَصْفٍ ولا ٱصْطِرَافِ

وكذلك الاعتصاف. والعَصِيفة الورق المجتمع الذي يكون فيه السُّنْبل. وقال الهرويّ: والعصف والعَصِيفة ورق السُّنْبل. وحكى الثعلبي: وقال ٱبن السِّكِّيت تقول العرب لورق الزرع العصف والعَصِيفة والجِلُّ بكسر الجيم. قال عَلْقَمة بن عَبَدة:

تَسْقِي مَذَانِبَ قد مَالتْ عَصِيفَتُهَا   حَدُورُها من أَتِيِّ الماءِ مَطْمُومُ

وفي الصحاح: والجِلُّ بالكسر قصب الزرع إذا حُصِد. والريحان الرزق؛ عن ٱبن عباس ومجاهد. الضحاك: هي لغة حِمْير. وعن ٱبن عباس أيضاً والضحاك وقتادة: أنه الريحان الذي يشمّ، وقاله ٱبن زيد. وعن ٱبن عباس أيضاً: أنه خضرة الزرع. وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق. وقال الفراء: العصف المأكول من الزرع، والريحان ما لا يؤكل. وقال الكلبي: إن العصف الورق الذي لا يؤكل، والريحان هو الحبّ المأكول. وقيل: الريحان كل بقلة طيبة الريح سميت رَيْحاناً؛ لأن الإنسان يَراحُ لها رائحةً طيبة. أي يشمّ فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة؛ وأصل الياء في الكلمة واو وقلب ياء للفرق بينه وبين الرُّوحانيّ وهو كل شيء له رُوح. قال ٱبن الأعرابي: يقال شيء رُوحاني ورُيحاني أي له روح. ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان فأصله رَيْوَحان فأبدل من الواو ياء وأدغم كهَيِّن ولَيِّن، ثم ألزم التخفيف لطوله ولحاق الزائدتين الألفِ والنونِ، والأصل

فيما يتركب من الراء والواو والحاء الاهتزاز والحركة. وفي الصحاح: والرَّيحان نبت معروف؛ والريحان الرزق؛ تقول: خرجت أبتغي رَيْحَان اللَّهِ؛ قال النَّمِرُ بن تَوْلَب:

سـلامُ الإلـهِ وريْحَـانُـهُ ورَحْمَتُـهُ وسَمَـاءٌ دِرَرْ

وفي الحديث:

[٥٧٥٤] «الولد من ريحان الله». وقولهم: سبحانَ الله وريحانه، نصبوهما على المصدر يريدون تنزيهاً له وٱسترزاقاً. وأما قوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ فالعصف ساق الزرع، والريحان ورقه؛ عن الفرّاء. وقراءة العامة ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ بالرفع فيها كلها على العطف على الفاكهة. ونصبها كلها ٱبن عامر وأبو حيوة والمغيرة عطفاً على الأرض. وقيل: بإضمار فعل، أي وخلق الحبّ ذا العصف والريحان؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾﴾. وجرّ حمزة والكسائي «الريحان» عطفاً على العصف؛ أي فيها الحب ذو العصفِ والريحانِ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان الرزق، فيكون كأنه قال: والحب ذو الرزق. والرزق من حيث كان العصف رزقاً؛ لأن العصف رزق للبهائم، والريحان رزق للناس، ولا شبهة فيه في قول من قال إنه الريحان المشموم.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ خطاب للإنس والجنّ؛ لأن الأنام واقع عليهما. وهذا قول الجمهور، يدل عليه حديث جابر المذكور أول السورة، وخرجه الترمذي وفيه «لَلْجِنُّ أحسنُ منكم ردًّا»[1]. وقيل: لما قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾﴾ و ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ دل ذلك على أن ما تقدّم وما تأخر لهما. وأيضاً قال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن: ٣١] وهو خطاب للإنس والجنّ وقد قال في هذه السورة: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾. وقال الجرجاني: خاطب الجنّ مع الإنس وإن لم يتقدّم للجنّ ذكر؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [صٓ: ٣٢]. وقد سبق ذكر الجنّ فيما سبق نزوله من القرآن، والقرآن كالسورة الواحدة؛ فإذا ثبت أنهم مكلّفون كالإنس خوطب الجنسان بهذه الآيات. وقيل: الخطاب للإنس على عادة العرب في الخطاب للواحد بلفظ التثنية؛ حسب ما تقدّم من القول في ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [قٓ: ٢٤]. وكذلك قوله:

[٥٧٥٤] أخرجه أحمد ٦/٤٠٩ من حديث خولة بنت حكيم في أثناء حديث، وله شواهد راجع مسند الفردوس ٧٢٥٣ و ٧٢٥٤ و ٧٢٥٥.

---

(١) تقدم برقم ٥٧٥١.

* قِفَا نَبْكِ[1] . . . *

و * خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي . . .*

فأما ما بَعْدَ ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ ﴾ و ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ ﴾ فإنه خطاب للإنس والجنّ، والصحيح قول الجمهور لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ والآلاء النعم، وهو قول جميع المفسرين، واحدها إِليٌ وأَليٌ مثل مِعًى وعصاً، وإِلْيٌ وأَلْيٌ أربع لغات حكاها النحاس قال: وفي واحد ﴿ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ ﴾ [طه: ١٣٠] ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف المسكنة اللام، وقد مضى في «الأعراف» و «النجم». وقال ٱبن زيد: إنها القدرة؛ وتقدير الكلام فبأيّ قدرة ربكما تكذّبان؛ وقاله الكلبي وٱختاره الترمذيّ محمد بن علي، وقال: هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن، والعَلَم إمام الجند والجند تتبعه، وإنما صارت عَلَماً لأنها سورة صفة الملك والقدرة؛ فقال: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ فٱفتتح السورة بٱسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ ثم ذكر الإنسان فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ ثم ذكر ما صنع به وما منّ عليه به، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نَجَم وشَجَر، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل، ووضع الأرض للأنام؛ فخاطب هذين الثقلين الجنّ والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك، فأشركوا به الأوثان وكل معبود ٱتخذوه من دونه، وجحدوا الرحمة التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم، فقال سائلاً لهم: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ أي بأيّ قدرة ربكما تكذبان، فإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا له في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكاً يملك معه ويقدر معه، فذلك تكذيبهم. ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال، وذكر خلق الجانّ من مارج من نار، ثم سألهم فقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ أي بأيّ قدرة ربّكما تكذبان؛ فإن له في كل خلق بعد خلق قدرة بعد قدرة؛ فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير، وٱتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلقٍ خلقٍ. وقال القُتَبِيّ: إن الله تعالى عدّد في هذه السورة نعماءه، وذكّر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خَلَّة وصفها ونعمة وضعها بهذه، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها؛ كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا؟! ألم تكن خاملاً فعززتك أفتنكر هذا؟!

---

(١) كلاهما لامرىء القيس وتمام الأول:

مـن ذكـرىَ حبيـب ومنـزلِ   بسقط اللوىَ بين الدَّخول فحَوْمَلِ

ألم تكن صَرُورة[1] فحججت بك أفتنكر هذا!؟ ألم تكن راجلاً فحملتك أفتنكر هذا؟!
والتكرير حَسن في مثل هذا. قال:

* كَمْ نِعْمَةٍ كانتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *

وقال:

لا تَقْتُلِي مُسْلِماً إنْ كنتِ مُسْلِمَةً إيّاكِ مِنْ دَمِهِ إيَّاكِ إيَّاكِ

وقال آخر:

لا تَقطعنَّ الصديقَ ما طَرَفتْ عيناكَ من قول كاشح أشِرِ
ولا تمَلَّنَّ من زيارته زُرْهُ وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل: التكرير طرداً للغفلة، وتأكيداً للحجة.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير من السماء والأرض، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ باتفاق من أهل التأويل يعني آدم. ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ الصلصال الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة، شبهه بالفَخَّار الذي طبخ. وقيل: هو طين خلط برمل. وقيل: هو الطين المنتن من صَلَّ اللحمُ وأَصلَّ إذا أنتن؛ وقد مضى في «الحجر». وقال هنا: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ وقال هناك: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ٣٣]. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١]. وقال: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وذلك متفق المعنى؛ وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طيناً، ثم ٱنتقل فصار كالحمإ المسنون، ثم ٱنتقل فصار صلصالاً كالفخّار. ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ قال الحسن: الجانّ إبليس وهو أبو الجنّ. وقيل: الجانّ واحد الجنّ، والمارج اللهب؛ عن ٱبن عباس، وقال: خلق الله الجانَّ من خالص النار. وعنه أيضاً من لسانها الذي يكون في طرفها إذا ٱلتهبت. وقال الليث: المارج الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد. وعن ٱبن عباس أنه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر؛ ونحوه عن مجاهد؛ وكله متقارب المعنى. وقيل: المارج كل أمر مرسل غير ممنوع، ونحوه قول المبرد؛ قال المبرد:

(١) الصرورة: الذي لم يحجّ قط.

المارج النار المرسلة التي لا تمنع. وقال أبو عبيدة والحسن: المارج خلط النار، وأصله من مرج إذا اضطرب واختلط؛ ويروى أن الله تعالى خلق نارين فمرج إحداهما بالأخرى، فأكلت إحداهما الأخرى وهي نار السموم فخلق منها إبليس. قال القُشَيريّ: والمارج في اللغة المرسل أو المختلط وهو فاعل بمعنى مفعول؛ كقوله: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق: ٦]. و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ [الحاقة: ٢١] والمعنى ذو مرج؛ قال الجوهري في الصحاح: و﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ نار لا دخان لها خلق منها الجان. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ أي هو رب المشرقين. وفي الصافات ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ [الصافات: ٥] وقد مضى الكلام في ذلك هنالك.

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ ﴿مَرَجَ﴾ أي خَلَّى وأرسل وأهمل؛ يقال: مرج السلطان الناس إذا أهملهم. وأصل المَرْج الإهمال كما تُمْرَج الدابّةُ في المرعى. ويقال: مَرَجَ خَلَطَ. وقال الأخفش: ويقول قوم أَمْرَج البحرين مثل مَرَج، فَعَل وأَفْعَلَ بمعنًى. ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ قال ابن عباس: بحر السماء وبحر الأرض؛ وقاله مجاهد وسعيد بن جبير. ﴿يَلْتَقِيَانِ ۝١٩﴾ في كل عام. وقيل: يلتقي طرفاهما. وقال الحسن وقتادة: بحر فارس والروم. وقال ابن جريج: إنه البحر المالح والأنهار العذبة. وقيل: بحر المشرق والمغرب يلتقي طرفاهما. وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز فعلى القول الأوّل ما بين السماء والأرض؛ قاله الضحاك. وعلى القول الثاني الأرض التي بينهما وهي الحجاز؛ قاله الحسن وقتادة. وعلى غيرهما من الأقوال القدرة الإلٰهية على ما تقدّم في «الفرقان». وفي الخبر عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ:

[٥٧٥٥] أن الله تعالى كلّم الناحية الغربية فقال: إني جاعل فيك عباداً لي يُسبّحوني ويُكبّروني ويهلّلوني ويُمجّدوني فكيف أنت لهم؟ فقالت: أُغرقُهم يا ربّ. قال: إني أحملهم على يدي، وأجعل بأسك في نواحيك. ثم كلّمَ الناحية الشرقية فقال: إني جاعل فيك عباداً لي يُسبّحوني ويكبّروني ويهلّلوني ويمجّدوني فكيف أنت لهم؟ قالت: أسبّحكَ

[٥٧٥٥] باطل لا أصل له، ومحمد بن صالح الترمذي شيخ الحكيم متهم بالكذب ساق له الذهبي في ميزانه أحاديث وعدها من بلاياه. وقال ابن حبان عنه: دجال من الدجاجلة اهـ راجع الميزان. وهذا الخبر الأشبه أنه من الإسرائيليات.

معهم إذا سَبَّحوكَ، وأكبّرك معهم إذا كبروك، وأُهَلِّلكَ معهم إذا هَلَّلُوكَ، وأُمَجِّدُك معهم إذا مجَّدوك؛ فأثابها الله الْحِلية وجعل بينهما برزخاً، وتحوّل أحدهما مِلحاً أُجَاجاً، وبقي الآخر على حالته عذباً فُرَاتاً» ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله قال: حدّثنا صالح بن محمد، حدّثنا القاسم العمريّ عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ قال قتادة: لا يبغيان على الناس فيغرقانهم؛ جعل بينهما وبين الناس يَبَساً. وعنه أيضاً ومجاهد: لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه. ٱبن زيد: المعنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ أن يلتقيا، وتقدير الكلام: مرج البحرين يلتقيان، لولا البرزخ الذي بينهما لا يبغيان أن يلتقيا. وقيل: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة؛ أي بينهما مدّة قدرها الله وهي مدّة الدنيا فهما لا يبغيان؛ فإذا أذن الله في ٱنقضاء الدنيا صار البحران شيئاً واحداً؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [الانفطار: ٣]. وقال سهل بن عبد الله: البحران طريق الخير والشر، والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ أي يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من التراب الحبّ والعصف والريحان. وقرأ نافع وأبو عمرو «يُخْرَجُ» بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول. الباقون «يَخْرُجُ» بفتح الياء وضم الراء على أن اللؤلؤ هو الفاعل. وقال: «مِنْهُمَا» وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنما الرسل من الإنس دون الجن؛ قاله الكلبي وغيره. قال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦] والقمر في سماء الدنيا ولكن أجمل ذكر السبع فكأن ما في إحداهنّ فيهنّ. وقال أبو عليّ الفارسيّ: هذا من باب حذف المضاف؛ أي من أحدهما؛ كقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١] أي من إحدى القريتين. وقال الأخفش سعيد: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب. وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان. ٱبن عباس: هما بحرا السماء والأرض. فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر ٱنعقد لؤلؤاً فصار خارجاً منهما؛ وقاله الطبري. قال الثعلبي: ولقد ذُكر لي أن نواة كانت في جوف صدفة، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعضَ، فكان حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة. وقيل: إن العذب والملح قد يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للملح، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى؛ لذلك قيل: إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقي فيه

العذب والملح. وقيل: المرجان عظام اللؤلؤ وكباره؛ قاله عليّ وٱبن عباس رضي الله عنهما. واللؤلؤ صغاره. وعنهما أيضاً بالعكس: إن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره؛ وقاله الضحاك وقتادة. وقال ٱبن مسعود وأبو مالك: المرجان الخرز الأحمر.

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ﴾ يعني السفن. ﴿ ٱلْمُنشَـَٔاتُ ﴾ قراءة العامة ﴿ ٱلْمُنشَـَٔاتُ ﴾ بفتح الشين؛ قال قتادة: أي المخلوقات للجري مأخوذ من الإنشاء. وقال مجاهد: هي السفن التي رُفِعَ قِلْعها؛ قال: وإذا لم يُرفع قِلْعها فليست بمنشَئات. وقال الأخفش: إنها المَجريات. وفي الحديث: أن عليًّا رضي الله عنه رأى سفناً مُقْلَعة، فقال: وربّ هذه الجواري المنشآت ما قتلت عثمان ولا مالأت في قتله. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بٱختلاف عنه «الْمُنْشِئَاتُ» بكسر الشين أي المنشئات السير؛ أضيف الفعل إليها على التجوز والاتساع. وقيل: الرافعات الشُّرُع أي القُلُع. ومن فتح الشين قال: المرفوعات الشُّرَع. ﴿ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي كالجبال، والعَلَم الجبل الطويل، قال[1]:

* إذا قَطَعْـنَ عَلَمـاً بَـدَا عَلَـمٌ *

فالسفن في البحر كالجبال في البر، وقد مضى في «الشورى» بيانه. وقرأ يعقوب «الْجَوَارِي» بياء في الوقف؛ وحذف الباقون.

قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ الضمير في ﴿ عَلَيْهَا ﴾ للأرض، وقد جرى ذكرها في أول السورة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ وقد يقال: هو أكرم مَنْ عليها، يعنون الأرض وإن لم يجر لها ذكر. وقال ٱبن عباس: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] فأيقنت الملائكة بالهلاك؛ وقاله مقاتل. ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام. وقيل: وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب.

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي ويبقى الله؛ فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه؛ قال الشاعر:

قَضَـى علـى خَلْقِـه المنـايـا فكـلُّ شـيء سـواه فـانِـي

وهذا الذي ٱرتضاه المحققون من علمائنا: ٱبن فورك وأبو المعالي وغيرهم. وقال ٱبن عباس: الوجه عبارة عنه كما قال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ وقال أبو

---

(١) هو جرير.

المعالي: وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجود الباري تعالى، وهو الذي ٱرتضاه شيخنا. ومن الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ والموصوف بالبقاء عند تعرض الخلق للفناء وجود الباري تعالى. وقد مضى في «البقرة» القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى مستوفى. قال القشيري: قال قوم هو صفة زائدة على الذات لا تُكَيف، يحصل بها الإقبال على من أراد الربّ تخصيصه بالإكرام. والصحيح أن يقال: وجهه وجوده وذاته، يقال: هذا وجه الأمر ووجه الصواب وعين الصواب. وقيل: أي يبقى الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه. وقيل: وتبقى الجهة التي يتقرب بها إلى الله. ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه وٱستحقاقه صفات المدح؛ يقال: جَلَّ الشيءُ أي عَظُم وأجللته أي عظّمته، والجلال ٱسم من جلّ. ﴿وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ أي هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك؛ كما تقول: أنا أكرمك عن هذا؛ ومنه إكرام الأنبياء والأولياء. وقد أتينا على هذين الاسمين لغةً ومعنًى في الكتاب الأسنى مستوفًى. وروى أنس أن النبيّ ﷺ قال:

[٥٧٥٦] «أَلِظُّوا بيا ذا الجلالِ والإكرام». وروي أنه من قول ٱبن مسعود؛ ومعناه: ٱلزموا ذلك في الدعاء. قال أبو عبيد: الإلظاظ لزوم الشيء والمثابرة عليه. ويقال: الإلظاظ الإلحاح. وعن سعيد المقبري: أن رجلاً أَلَحَّ فجعل يقول: اللّهم يا ذا الجلال والإكرام! اللّهم يا ذا الجلال والإكرام! فنودي: إني قد سمعت فما حاجتك؟

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قيل: المعنى يسأله من في السموات الرحمة، ومن في الأرض الرزق. وقال ٱبن عباس وأبو صالح: أهل السموات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق؛ وأهل الأرض يسألونهما جميعاً. وقال ٱبن جريج: وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض؛ فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض. وفي الحديث:

[٥٧٥٧] «إن من الملائكة مَلَكاً له أربعة أوجه وجه كوجه الإنسان وهو يسأل الله

[٥٧٥٦] حسن. أخرجه الترمذي ٣٥٢٤ من حديث أنس، وضعفه بقوله: غريب. وكرره ٣٥٢٥ عن مؤمّل به وقال: غريب وإنما يروى عن الحسن مرسلاً ومؤمل غلط فيه اهـ. وفي إسناد الأول يزيد الرقاشي واهٍ. وله شاهد من حديث ربيعة بن عامر أخرجه الحاكم ١/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩ وصححه ووافقه الذهبي وكرره من حديث أبي هريرة لكن فيه رشدين بن سعد واهٍ فالحديث حسن بشواهده.

[٥٧٥٧] لم أجده والأشبه أنه من الإسرائيليات، والله أعلم.

الرزق لبني آدم ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله الرزق للبهائم ووجه كوجه النّسر وهو يسأل الله الرزق للطير». وقال ٱبن عطاء: إنهم سألوه القوّة على العبادة. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ هذا كلام مبتدأ. وٱنتصب «كُلَّ يَوْمٍ» ظرفاً، لقوله: «فِي شَأْنٍ» أو ظرفاً للسؤال؛ ثم يبتدىء ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾. وروى أبو الدّرداء رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٧٥٨] ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين». وعن ٱبن عمر عن النبيّ ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ قال:

[٥٧٥٩] «يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويجيب داعياً». وقيل: من شأنه أن يحيي ويميت، ويُعزّ ويذل، ويرزق ويمنع. وقيل: أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة. قال ٱبن بحر: الدهر كله يومان، أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة، فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب، والثواب والعقاب. وقيل: المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كل يوم من أيام الدنيا وهو الظاهر. والشأن في اللغة الخطب العظيم والجمع الشؤون والمراد بالشأن هاهنا الجمع كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]. وقال الكلبي: شأنه سوق المقادير إلى المواقيت. وقال عمرو بن ميمون في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ من شأنه أن يميت حَيًّا، ويُقِرَّ في الأرحام ما شاء، ويعزّ ذليلاً، ويُذلّ عزيزاً. وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ فلم يعرف معناها، وٱستمهله إلى الغد فانصرف كئيباً إلى منزله فقال له غلام له أسود: ما شأنك؟ فأخبره. فقال له: عد إلى الأمير فإني أفسرها له، فدعاه فقال: أيها الأمير! شأنه أن يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحيّ من الميّت، ويخرج الميّت من الحيّ، ويَشفي سقيماً، ويُسقم سليماً، ويَبتلي معافًى، ويعافي مبتلًى، ويُعزّ

[٥٧٥٨] أخرجه ابن ماجه ٢٠٢ وابن أبي عاصم ٣٠١ وابن الجوزي في العلل ٢٤ من حديث أبي الدرداء وأعله بعبد الرحمن بن يحيى لكن توبع عند ابن ماجه لذا قال البوصيري في الزوائد: إسناده حسن لتقاصر الوزير بن صبيح عن درجة الحفظ والإتقان. وأخرجه البزار ٢٢٦٦ من حديث عبد الله بن منيب وفي إسناده عمرو بن بكر السكسكي وهو متروك. وصوب الدارقطني فيما نقل ابن الجوزي الوقف وسبقه البخاري حيث علقه في ٨/ ٦٢٠ عن أبي الدرداء موقوفاً بصيغة الجزم. وانظر الإحسان والعلل ففيهما مزيد من الكلام عليه.

[٥٧٥٩] أخرجه البزار ٢٢٦٨ من حديث ابن عمر وإسناده ضعيف لضعف محمد بن عبد الرحمن البيلماني. وانظر ما قبله.

ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويُفقر غنيًّا، ويغني فقيراً؛ فقال له: فَرَّجت عني فَرَّج الله عنك، ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام؛ فقال: يا مولاي! هذا من شأن الله تعالى. وعن عبد الله بن طاهر: أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣١]. وقد صح أن الندم توبة. وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩] فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز ألا يكون الندم توبة في تلك الأمة، ويكون توبة في هذه الأمة؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم. وقيل: إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله. وأما قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ فإنها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها. وأما قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ فمعناه: ليس له إلا ما سعى عدلاً ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً. فقام عبد الله وقبل رأسه وسوغ خراجه.

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ يقال: فَرَغت من الشغل أفرغُ فُروغاً وفَرَاغاً وتفرّغت لكذا واستفرغت مجهودي في كذا أي بذلته. والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه، إنما المعنى سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم، وهذا وعيد وتهديد لهم كما يقول القائل لمن يريد تهديده: إذاً أتفرغ لك أي أقصدك. وفرغ بمعنى قصد؛ وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا لجرير:

ألآنَ وقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ   فهذا حينَ كُنْتُ لها عَذابَا

يريد وقد قصدت. وقال أيضاً[1] وأنشده النحاس:

* فَرَغْتُ إلى العَبْدِ المقَيَّدِ في الحِجْلِ *

وفي الحديث:

[٥٧٦٠] أن النبيّ ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة، صاح الشيطان: يا أهل

[٥٧٦٠] أخرجه أحمد ٣/ ٤٦٢ برقم ١٥٣٧١ من حديث كعب بن مالك في أثناء خبر مطول. ورجاله معروفون سوى عبيد الله بن كعب وقد وثقه ابن حبان.

(١) أي جرير.

الجُبَاجب[1]! هذا مُذَمَّم يبايع بني قَيْلة على حربكم؛ فقال النبيّ ﷺ: «هذا إزْبُ[2]العَقَبة أَمَا والله يا عدوّ الله لأتفرغن لك» أي أقصد إلى إبطال أمرك. وهذا ٱختيار القتبي والكسائي وغيرهما. وقيل: إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور، ثم قال: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ مما وعدناكم ونوصل كُلاً إلى ما وعدناه؛ أي أقسم ذلك وأتفرغ منه. قاله الحسن ومقاتل وٱبن زيد. وقرأ عبد الله وأبيّ «سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ» وقرأ الأعمش وإبراهيم «سَيُفْرَغُ لَكُمْ» بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله. وقرأ ٱبن شهاب والأعرج «سَنَفْرَغُ لَكُمْ» بفتح النون والراء؛ قال الكسائي: هي لغة تميم يقولون فَرِغَ يَفرَغ، وحكي أيضاً فَرَغَ يَفرَغ ورواهما هُبيرة عن حفص عن عاصم. وروى الجُعْفي عن أبي عمرو «سَيَفْرَغُ» بفتح الياء والراء، ورويت عن ٱبن هُرْمز. وروي عن عيسى الثّقفي «سَنِفْرَغُ لَكُمْ» بكسر النون وفتح الراء، وقرأ حمزة والكسائي «سَيَفْرُغُ لَكُمْ» بالياء. الباقون بالنون وهي لغة تهامة. والثَّقلان الجنّ والإنس؛ سُمّيا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف. وقيل: سمّوا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياءً وأمواتاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: ٢] ومنه قولهم: أعطه ثقله أي وزنه. وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن يُنافَسُ فيه فهو ثقل. ومنه قيل لبيض النعام ثقل؛ لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به. وقال جعفر الصادق: سمّيا ثقلين؛ لأنهما مثقلان بالذنوب. وقال: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ فجمع، ثم قال: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ لأنهما فريقان وكل فريق جمع، وكذا قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ولم يقل إن ٱستطعتما؛ لأنهما فريقان في حال الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٥﴾ [النحل: ٤٥] و﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحج: ١٩] ولو قال: سنفرغ لكما، وقال إن ٱستطعتما لجاز. وقرأ أهل الشام «أَيُّهُ الثَّقَلانِ» بضم الهاء. الباقون بفتحها وقد تقدّم.

مسألة: هذه السورة و«الأَحْقَاف» و﴿قُلۡ أُوحِيَ﴾ دليل على أنّ الجنّ مخاطبون مكلَّفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء، مؤمنُهم كمؤمنهم، وكافرُهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ الآية. ذكر ٱبن المبارك: وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال: إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها، ثم

---

(١) الجباجب: منازل منى.

(٢) الإزب: بكسر الهمزة وإسكان الزاي وهو هنا اسم شيطان.

يأمر الله السماء التي تليها كذلك فينزلون فيكونون صفًّا من خلف ذلك الصف، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة؛ فينزل الملَك الأعلى في بهائه وملكه ومجنّبته اليسرى جهنم، فيسمعون زفيرها وشهيقها، فلا يأتون قُطْراً من أقطارها إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ والسلطان العذر. وقال الضحاك أيضاً: بينما الناس في أسواقهم أنفتحت السماء، ونزلت الملائكة، فتهرب الجنّ والإنس، فتحدق بهم الملائكة، فذلك قوله تعالى: ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ ذكره النحاس.

قلت: فعلى هذا يكون في الدنيا، وعلى ما ذكر أبن المبارك يكون في الآخرة. وعن الضحاك أيضاً: إن أستطعتم أن تهربوا من الموت فأهربوا. وقال أبن عباس: إن أستطعتم أن تعلموا ما في السموات وما في الأرض فأعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان أي ببينة من الله تعالى. وعنه أيضاً أن معنى: ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم. قتادة: لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك. وقيل: لا تنفذون إلا إلى سلطان الباء بمعنى إلى؛ كقوله تعالى: ﴿ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي إليّ. قال الشاعر[١]:

أَسِيئـي بِنـا أو أحسِنِـي لا ملـولـةٌ　　لـــدَيْنـا ولا مَقْلِيَّـةٌ إن تَقَلَّـتِ

وقوله: ﴿ فَٱنفُذُواْۚ ﴾ أمر تعجيز.

قوله تعالى: ﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ ﴾ أي لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ. وقيل: ليس هذا متعلقاً بالنفوذ بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذاباً بالنار. وقيل: أي بآلاءِ ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك التكذيب. وقيل: يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾، فتلك النار قوله: ﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ ﴾ والشواظ في قول أبن عباس وغيره اللهب الذي لا دخان له. والنُّحاس: الدخان الذي لا لهب فيه؛ ومنه قول أمية بن أبي الصَّلْت يهجو حسان بن ثابت رضي الله عنه، كذا وقع في تفسير الثعلبيّ والماورديّ ابن أبي الصَّلْت، وفي «الصحاح» و«الوقف والابتداء» لابن الأنباري: أمية بن خلق قال:

أَلاَ مَـــنْ مُبْلِـغٌ حَسَّـــانَ عنِّـــي　　مُغَلْغَلَـــةً تَـــدُبُّ إلـــى عُكَـــاظِ
أَلَيْـــسَ أبـــوكَ فينـــا كـــان قَيْنـــاً　　لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسْلاً[٢] في الحِفَاظَ

(١) هو كثير عزة.

(٢) الفسل من الرجال: الرّذل الذي لامروءة له ولاجلد.

يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيراً ... وينْفُخُ دَائباً لَهَبَ الشُّواظِ

فأجابه حسان رضي الله عنه فقال:

هَجَوْتُكَ فَٱخْتَضَعْتَ لها بِذُلٍّ ... بِقَافِيةٍ تَأَجَّجُ كالشُّواظِ

وقال رُؤبة:

إنّ لهم من وَقْعِنَا أَقْيَاظاً ... ونارَ حربٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا

وقال مجاهد: الشّواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار. الضحاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب. وقاله سعيد بن جبير. وقد قيل: إن الشواظ النار والدخان جميعاً؛ قاله أبو عمرو وحكاه الأخفش عن بعض العرب. وقرأ ٱبن كَثير «شِواظ» بكسر الشين. الباقون بالضم وهما لغتان؛ مثل صُوَار وصِوار لقطيع البقر. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قراءة العامة «وَنُحَاسٌ» بالرفع عطف على «شُوَاظ». وقرأ ٱبن كثير وٱبن محيصن ومجاهد وأبو عمرو «ونُحَاسٍ» بالخفض عطفاً على النار. قال المهدوي: من قال إن الشّواظ النارُ والدخان جميعاً فالجرّ في «نُحَاس» على هذا بيّن. فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ وشيء من نحاس؛ فشيء معطوف على شواظ، ومن نحاس جملة هي صفة لشيء، وحذف شيء، وحذفت مِن لتقدم ذكرها في ﴿مِّن﴾ كما حذفت على من قولهم: على من تنزل أنزل أي عليه. فيكون «نُحَاس» على هذا مجروراً بمن المحذوفة. وعن مجاهد وحُميد وعكرمة وأبي العالية «ونِحاسٍ» بكسر النون لغتان كالشِّواظ والشُّواظ. والنِّحاس بالكسر أيضاً الطبيعة والأصل؛ يقال: فلان كريم النِّحاس والنُّحاس أيضاً بالضم أي كريم النِّجار[1]. وعن مسلم بن جُنْدَب «ونَحْسٌ» بالرفع. وعن حنظلة بن مرّة بن النعمان الأنصاري «ونَحْسٍ» بالجر عطف على نار. ويجوز أن يكون «ونِحاسٍ» بالكسر جمع نَحْسٍ كصَعْب وصِعاب «ونَحْسٌ» بالرفع عطف على «شواظ» وعن الحسن «ونُحُسٍ» بالضم فيها جمع نَحْس. ويجوز أن يكون أصله ونُحُوس فقصر بحذف واوه حسب ما تقدّم عند قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦]. وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة «وَنَحُسُّ» بفتح النون وضم الحاء وتشديد السين من حَسَّ يَحُسّ حَسًّا إذا ٱستأصل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢] والمعنى ونقتل بالعذاب. وعلى القراءة الأولى «ونُحَاسٌ» فهو الصُّفْر المذاب يُصَبُّ على رؤوسهم؛ قاله مجاهد وقتادة، وروي عن ٱبن عباس. وعن ٱبن عباس أيضاً وسعيد بن جُبير أن

---

(١) النِجار: بكسر النون أو ضمها ـ الأصل والحسب.

النحاس الدخان الذي لا لهب فيه؛ وهو معنى قول الخليل؛ وهو معروف في كلام العرب بهذا المعنى؛ قال نابغة بني جَعْدة:

يُضِــــيءُ كضَــــوْءِ سِــــرَاجِ السَّلِيـــ ـــطِ لـم يَجْعَـلِ اللّـهُ فيـه نُحَـاسَـا

قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول السَّليط دهن السّمسم بالشام ولا دخان فيه. وقال مقاتل: هي خمسة أنهار من صُفْر مُذَاب، تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار؛ ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار. وقال ٱبن مسعود: النُّحَاس المُهْل. وقال الضحاك: هو دُرْديّ الزَّيت المغليّ. وقال الكسائي: هو النار التي لها ريح شديدة. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً يعني الجن والإنس.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي ٱنصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ الدِّهَانُ الدهن؛ عن مجاهد والضحاك وغيرهما. والمعنى أنها صارت في صفاء الدهن؛ والدهان على هذا جمع دُهْن. وقال سعيد بن جُبير وقتادة: المعنى فكانت حمراء. وقيل: المعنى تصير في حمرة الورد وجريان الدهن؛ أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدُّهن لرقتها وذوبانها. وقيل: الدّهان الجلد الأحمر الصّرف؛ ذكره أبو عبيد والفراء. أي تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حَرّ النار. ٱبن عباس: المعنى فكانت كالفرس الْوَرْد؛ يقال للكُمَيت: وَرْدٌ إذا كان يتلوّن بألوان مختلفة. قال ٱبن عباس: الفرس الوَرْد؛ في الربيع كميت أصفر، وفي أوّل الشتاء كُمَيت أحمر، فإذا ٱشتد الشتاء كان كُمَيتاً أغبر. وقال الفراء: أراد الفرس الوَرْديّة، تكون في الربيع وَرْدةً إلى الصفرة، فإذا ٱشتد البرد كانت وَرْدةً حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدةً إلى الغُبرة، فشبه تلوّن السماء بتلون الْوَرْد من الخيل. وقال الحسن: ﴿كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ أي كصبّ الدُّهْن فإنك إذا صببته ترى فيه ألواناً. وقال زيد بن أسلم: المعنى أنها تصير كعَكَر الزيت، وقيل: المعنى أنها تمرّ وتجيء. قال الزجاج: أصل الواو والراء والدال للمجيء والإتيان. وهذا قريب مما قدمناه من أن الفرس الوَرْدة تتغير ألوانها. وقال قتادة: إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر؛ حكاه الثعلبي. وقال الماورديّ: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبُعد المسافة تُرى بهذا اللون الأزرق، وشبهوا ذلك بعروق البدن، وهي حمراء كحمرة الدم وتُرى بالحائل زرقاء؛ فإن كان هذا صحيحاً فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وٱرتفاع الحواجز ترى حمراء، لأنه أصل لونها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ هذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص: ٧٨] وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم؛ فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض، وهذا قول عكرمة. وقيل: المعنى لا يسألون إذا ٱستقروا في النار. وقال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم؛ لأن الله حفظها عليهم، وكتبتها عليهم الملائكة. رواه العوفي عن ٱبن عباس. وعن الحسن ومجاهد أيضاً: المعنى لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم؛ دليله ما بعده. وقاله مجاهد عن ٱبن عباس. وعنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢] وقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ. وقال أبو العالية: لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. وقال قتادة: كانت المسألة قبل؛ ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم. وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ وفيه قال:

[٥٧٦١] «فَيلْقَى العبدَ فيقول أي فُلْ(١) ألم أُكْرِمك وأُسوِّدْك وأُزَوِّجْك وأُسخِّرٌ لك الخيلَ والإبلَ وأَذرْك تَرْأَسُ وتَرْبَعُ فيقول بلى فيقول أفظننتَ أنك مُلاَقيّ فيقول لا فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول له مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصلّيت وصمت وتصدّقت ويثني بخير ما ٱستطاع فيقول ها هنا إذاً ثُمّ يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك فيفتكر في نفسه مَن هذا الذي يشهد عليّ فيُختَم على فِيهِ ويقال لفخذه ولحمه وعظامه ٱنطقي فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه» وقد مضى هذا الحديث في «حم السجدة» وغيرها.

قوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ قال الحسن: سواد الوجه وزرقة الأعين، قال الله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [طه: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ أي تأخذ الملائكة

[٥٧٦١] مضى في سورة السجدة ١٥/ ٤٨ ـ ٣٥٠.

---

(١) معناه يا فلان. قيل: هو ترخيم، وقيل: لا.

بنواصيهم؛ أي بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار. والنواصي جمع ناصية. وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره. وعنه: يؤخذ برجلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى في النار. وقيل: يفعل ذلك به ليكون أشدّ لعذابه وأكثر لتشويهه. وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار؛ تارةً تأخذ بناصيته وتجره على وجهه، وتارةً تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه.

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي يقال لهم هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم. ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ قال قتادة: يطوفون مرةً بين الحميم ومرةً بين الجحيم، والجحيم النار، والحميم الشراب. وفي قوله تعالى: «آنٍ» ثلاثة أوجه، أحدها أنه الذي أنتهى حَرُّه وحميمه. قاله أبن عباس وسعيد بن جُبير والسّدي؛ ومنه قول النابغة الذُّبْياني:

وتُخْضَبُ لِحيَةٌ غَدَرتْ وخَانتْ بأحمَر من نجيع[1] الجوفِ آنِ

قال قتادة: ﴿ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ طبخ منذ خلق الله السموات والأرض؛ يقول: إذا أستغاثوا من النار جعل غياثهم ذلك. وقال كعب: «آن» واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فيغمسون بأغلالهم فيه حتى تنخلع أوصالهم، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار، فذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾. وعن كعب أيضاً: أنه الحاضر. وقال مجاهد: إنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته. والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما في ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات. وروي عن النبيّ ﷺ:

[٥٧٦٢] أنه أتى على شاب في الليل يقرأ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول: وَيْحِي من يوم تنشقُّ فيه السماء وَيْحِي! فقال النبيّ ﷺ: «وَيْحَك يا فتى مثلها فوالذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء من بكائك[2]».

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فيه مسألتان:

[٥٧٦٢] ذكره السيوطي في الدر ٦/ ٢٠٠ فقال: أخرجه محمد بن نصر عن لقمان بن عامر الحنفي به وهذا ضعيف لقمان هذا تابعي.

---

(١) نجيع الجوف: الدم الخالص.

(٢) وقع في الأصل «لبكائك» والمثبت عن الدر المنثور وأكثر نسخ الأصل.

الأولى: لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدّ للأبرار. والمعنى خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية. فـ «مَقَامَ» مصدر بمعنى القيام. وقيل: خاف قيام ربه عليه أي إشرافه وٱطلاعه عليه؛ بيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾. وقال مجاهد وإبراهيم النخعي: هو الرجل يَهُمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه.

الثانية: هذه الآية دليل على أن من قال لزوجه: إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق أنه لا يحنث إن كان هَمَّ بالمعصية وتركها خوفاً من الله وحياءً منه. وقال به سفيان الثوريّ وأفتى به. وقال محمد بن عليّ الترمذيّ: جنةٌ لخوفه من ربه، وجنةٌ لتركه شهوته. وقال ٱبن عباس: من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض. وقيل: المقام الموضع؛ أي خاف مقامه بين يدي ربه للحساب كما تقدّم. ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله، وهو كالأجل في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقوله في موضع آخر: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]. ﴿جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ أي لمن خاف جنتان على حدة؛ فلكل خائف جنتان. وقيل: جنتان لجميع الخائفين؛ والأوّل أظهر. وروي عن ٱبن عباس عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٥٧٦٣] «الجنتان بستانان في عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام في وسط كل بستان دار من نور وليس منها شيء إلا يهتز نغمة وخضرة، قرارها ثابت وشجرها ثابت» ذكره المهدوي والثعلبي أيضاً من حديث أبي هريرة. وقيل: إن الجنتين جنته التي خلقت له وجنة ورثها. وقيل: إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا. وقيل: إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه. وقيل: إن إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها. وقال مقاتل: هما جنة عدن وجنة النعيم. وقال الفراء: إنما هي جنة واحدة؛ فثنى لرؤوس الآي. وأنكر القتبي هذا وقال: لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وإنما قال تسعة عشر لمراعاة رؤوس الآي. وأيضاً قال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾. وقال أبو جعفر النحاس: قال الفراء قد تكون جنة فَتُثَنَّى في الشعر؛ وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل، يقول الله عز وجل: ﴿جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ ويصفهما بقوله: ﴿فِيهِمَا﴾ فيدع الظاهر ويقول: يجوز أن تكون جنة ويحتج بالشعر! وقيل: إنما كانتا ٱثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه خَاصةً حين ذكر ذات يوم الجنة حين أُزْلِفَت والنار حين بُرِّزَت؛ قاله عطاء

[٥٧٦٣] عزاه المصنف للثعلبي والمهدوي ولا حجة فيما تفردا به، وورد نحوه عن عياض بن تميم مرفوعاً أخرجه ابن مردويه كما في الدر ٦/ ٢٠٣ ولم أقف عليه. وابن مردويه يروي الموضوعات.

وٱبن شَوْذَب. وقال الضحاك: بل شرب ذات يوم لبناً على ظمإ فأعجبه، فسأل عنه فأخبر أنه من غير حِلّ فاستقاءه ورسول الله ﷺ ينظر إليه؛ فقال: «رحمك الله لقد أنزلت فيك آية» وتلا عليه هذه الآية[1].

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾ قال ٱبن عباس وغيره: أي ذواتا ألوان من الفاكهة الواحد فنّ. وقال مجاهد: الأفنان الأغصان واحدها فنن؛ قال النابغة:

بكـاء حمـامـةٍ تَـدْعـو هَـدِيـلاً ... مُفَجَّعَـةٍ علـى فَنَـنٍ تُغنِّـي

وقال آخر يصف طائرين:

باتا على غُصْنِ بَانٍ في ذُرَى فَنَنٍ ... يُـرَددانِ لُحـونـاً ذاتَ أَلْـوَانِ

أراد باللحون اللغات. وقال آخر:

ما هاجَ شَوْقَكَ مِن هَدِيلِ حمامةٍ ... تَدْعو على فَنَنِ الغُصونِ حَمامَا
تدعو أبا فَرْخَيْن صادف ضارياً ... ذا مِخْلَبَيْـنِ مِـن الصُّقـورِ قَطَـامَـا

والفنن جمعه أفنان ثم الأفانين؛ وقال يصف رَحىً:

* لها زِمـامٌ مِـن أفانِيـنِ الشَّجَـرْ *

وشجرة فَنَّاء أي ذات أفنان وفنواء أيضاً على غير قياس. وفي الحديث:

[٥٧٦٤] «أن أهل الجنة مُرْدٌ مكحَّلون أولو أفانين» يريد أولو فَنَن وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فننٍ وهو الخُصْلة من الشعر شبّه بالغصن. ذكره الهروي. وقيل: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾ أي ذواتاً سعة وفضل على ما سواهما؛ قاله قتادة. وعن مجاهد أيضاً وعكرمة: إن الأفنان ظل الأغصان على الحيطان.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ أي في كل واحدة منهما عين جارية. قال ٱبن عباس: تجريان ماءً بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة. وعن ٱبن عباس أيضاً

[٥٧٦٤] أخرجه الترمذي ٢٥٣٩ من حديث أبي هريرة، وفيه شهر بن حوشب غير قوي ولفظ «أولو أفانين» لم أره عند الترمذي وإنما ذكره ابن الجوزي في «غريب الحديث» ٢/٢٠٩ والزمخشري في «الفائق» ٢/١٨٧ وابن الأثير في «النهاية» ٣/٤٧٦.

---

(١) ذكره الماوردي ٤/٤٣٧ عن الضحاك بدون إسناد، ولم أره عند غيره سواء في كتب أسباب النزول أو كتب التفسير والله أعلم.

والحسن: تجريان بالماء الزّلال؛ إحدى العينين التسنيم والأخرى السلسبيل. وعنه أيضاً: عينان مثل الدنيا أضعافاً مضاعفةً، حصباؤها الياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر، وترابهما الكافور، وحمأتهما المسك الأذفر، وحافتاهما الزعفران. وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين. وقيل: تجريان من جبل من مسك. وقال أبو بكر الورّاق: فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي صنفان وكلاهما حلوٌ يستلذ به. قال ابن عباس: ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو. وقيل: ضربان رطب ويابس لا يقصر هذا عن ذلك في الفضل والطِّيب. وقيل: أراد تفضيل هاتين الجنتين على الجنتين اللتين دونهما، فإنه ذكرها هنا عينين جاريتين، وذكر ثَمَّ عينين نَضّاختين بالماء والنَّضخ دون الجري؛ فكأنه قال: في تَيْنك الجنتين من كل فاكهة نوع، وفي هذه الجنة من كل فاكهة نوعان.

قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ ﴾ هو نصب على الحال. والفُرُش جمع فراش. وقرأ أبو حَيْوة «فُرْشٍ» بإسكان الراء. ﴿ بَطَآئِنُهَا ﴾ جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة. والإستبرق ما غلظ من الديباج وخشن؛ أي إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة؛ قاله ابن مسعود وأبو هريرة. وقيل لسعيد بن جُبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة: ١٧]. وقال ابن عباس: إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله. وفي الخبر عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ظواهرها نور يتلألأ»[١]. وعن الحسن: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد. وعن الحسن أيضاً: البطائن هي الظواهر؛ وهو قول الفراء، وروي عن قتادة. والعرب تقول للظهر بطناً، فيقولون: هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء؛ لظاهرها الذي نراه. وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا، وقالوا: لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين إذا وَلي كلٌّ واحد منهما قوماً، كالحائط بينك وبين قوم؛ وعلى ذلك أمر السماء. ﴿ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ ﴾ الجَنَى ما يُجتنَى من الشجر؛ يقال: أتانا بجَنَاةٍ طيبة لكل ما يجتنى. وثمر جَنِيّ على فَعِيل حين جُنِي؛ وقال[٢]:

(١) راجع الدر المنثور ٦/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) هو عمرو بن عدي اللخمي.

هــذا جَنَــايَ وخِيَــاره فِيــهْ   إذْ كــلُّ جــانٍ يَــدُهُ إلــى فِيــهْ

وقرىء «جِنَى» بكسر الجيم. «دانٍ» قريب. قال ٱبن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُّ اللَّهِ إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً؛ لا يرد يدَه بُعدٌ ولا شوك.

قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ قيل: في الجنتين المذكورتين. قال الزجاج: وإنما قال: ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ولم يقل فيهما؛ لأنه عنى الجنتين وما أعدّ لصاحبهما من النعيم. وقيل: «فِيهِنَّ» يعود على الفُرُش التي بطائنها من إستبرق؛ أي في هذه الفرش ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي نساء قاصرات الطرف، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم. وقد مضى في «والصافات» ووحّد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر؛ من طَرَفت عينه تطرِف طَرْفاً، ثم سميت العين بذلك فأدّى عن الواحد والجمع؛ كقولهم: قوم عَدْل وصَوْم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أي لم يصبهنّ بالجماع قبل أزواجهن هؤلاء أحد. الفراء: والطمث الافتضاض وهو النكاح بالتَّدْمِيَة؛ طَمَثَها يطمِثُها ويَطمُثها طَمْثاً إذا ٱفتضّها. ومنه قيل: ٱمرأة طامِث أي حائض. وغير الفراء يخالفه في هذا ويقول: طمثها بمعنى وطئها على أي الوجوه كان. إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر. وقرأ الكسائي «لَمْ يَطْمُثْهُنَّ» بضم الميم؛ يقال: طَمَثت المرأة تطمُث بالضم حاضت. وطَمِثت بالكسر لغة فهي طامث؛ وقال الفرزدق:

وقَعْــنَ إلــيَّ لــم يُطْمَثْــن قَبْلِــي   وهــنّ أَصَــحُّ مِــنْ بَيْــضِ النَّعَــامِ

وقيل: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ لم يمسسهن؛ قال أبو عمرو: والطمث المسّ وذلك في كل شيء يمسّ. ويقال للمَرْتع: ما طمَث ذلك المرتعَ قلبنا أحدٌ، وما طمَث هذه الناقَة حَبْل: أي ما مسَّها عِقال. وقال المبرِّد: أي لم يذلِّلهن إنس قبلهم ولا جان؛ والطمث التذليل. وقرأ الحسن «جَأن» بالهمز.

الثالثة: في هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنّيات. قال ضمرة: للمؤمنين منهم أزواج من الحور العين؛ فالإنسيات للإنس، والجنيات للجن. وقيل: أي لم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الجن في الجنة من

الحور العين من الجنيات جنّ، ولم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الإنس في الجنة من الحور العين من الإنسيات إنس؛ وذلك لأن الجن لا تطأ بنات آدم في الدنيا. ذكره القشيري.

قلت: قد مضى في «النمل» القول في هذا وفي «سبحان» أيضاً، وأنه جائز أن تطأ بنات آدم. وقد قال مجاهد: إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونزّهن، والطمث الجماع. ذكره بكماله الترمذي الحكيم، وذكره المهدوي أيضاً والثعلبي وغيرهما والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٧٦٥] «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلّة حتى يرى مخها» وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سِلكاً ثم استصفيته لأريته من ورائه ويروى موقوفاً. وقال عمرو بن ميمون: إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلّة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء. وقال الحسن: هنّ في صفاء الياقوت، وبياض المرجان.

قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ «هَلْ» في الكلام على أربعة أوجه: تكون بمعنى قد كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]،

[٥٧٦٥] أخرجه الترمذي ٢٥٣٣ وابن حبان ٧٣٩٦ وأبو نعيم في «صفة الجنة» ٣٧٩ من حديث ابن مسعود، وإسناده ضعيف لأجل عطاء بن السائب وكان قد اختلط بأَخَرة وتابعه فضيل بن مرزوق عن أبي إسحق لكن فضيل هذا متكلم فيه وقد أخرجه عبد الرزاق ٢٠٨٦٧ عن ابن مسعود موقوفاً. بل وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٧ والترمذي ٢٥٣٤ من طرق عن عطاء بن السائب عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود موقوفاً وهذا أصح. وورد من حديث أبي سعيد أخرجه ابن حبان ٧٣٩٧ والحاكم ٢/ ٤٧٥ وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: درّاج صاحب عجائب. وهو عند مسلم ٢٨٣٤ والحميدي ١١٤٣ وأحمد ٢/ ٢٤٧ وغيرهم من حديث أبي هريرة وفيه «لكل رجل منهم زوجتان يُرى مخ سوقهنّ من وراء اللحم..». فالمستنكر في حديث ابن مسعود ذكر السبعين. فتنبه والله أعلم.

وبمعنى الاستفهام كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]، وبمعنى الأمر كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]، وبمعنى ما في الجحد كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النحل: ٣٥]، و ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾. قال عكرمة: أي هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة. ٱبن عباس: ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة. وقيل: هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة؛ قاله ٱبن زيد. وروى أنس أن النبيّ ﷺ قرأ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ ثم قال:

[٥٧٦٦] «هل تدرون ماذا قال ربكم» قالوا الله ورسوله أعلم؛ قال: «يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». وروى ٱبن عباس أن النبيّ ﷺ قرأ هذه الآية فقال:

[٥٧٦٧] «يقول الله هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظِيرة قُدْسي برحمتي» وقال الصادق: هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد. وقال محمد بن الحنفية والحسن: هي مُسْجَلة للبَرّ والفاجر؛ أي مرسلة على الفاجر في الدنيا والبر في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ أي وله من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان. قال ٱبن عباس: ومن دونهما في الدَّرَج. ٱبن زيد: ومن دونهما في الفضل. ٱبن عباس: والجنات لمن خاف مقام ربه؛ فيكون في الأوليين النخل والشجر، وفي الأخريين الزرع والنبات وما ٱنبسط. الماورديّ: ويحتمل أن يكون ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين، والأخرى للولدان المخلّدين؛ ليتميّز بهما الذكور عن الإناث. وقال ٱبن جريج: هي أربع: جنتان منها للسابقين المقرَّبين ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ و ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾، وجنتان لأصحاب اليمين ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ و ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾. وقال ٱبن زيد: إن الأوليين من ذهب للمقرّبين، والأخريين من ورِقٍ لأصحاب اليمين.

[٥٧٦٦] ضعيف جداً. أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ٢٥١ من حديث أنس وإسناده ضعيف جداً لأجل بشر بن حسين الأصبهاني قال البخاري: فيه نظر، وقال الدارقطني: متروك. وقال أبو حاتم: يكذب على الزبير. وهذا رواه عن الزبير بن عدي عن أنس.

[٥٧٦٧] غريب هكذا وورد نحوه عن ابن عمر وابن عباس وعلي بأسانيد واهية راجع الدر ٦/ ٢٠٧.

قلت: إلى هذا ذهب الحَلِيميّ أبو عبد الله الحسن بن الحسين في كتاب (منهاج الدين له)؛ وٱحتج بما رواه سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ قال: تانك للمقرَّبين، وهاتان لأصحاب اليمين. وعن أبي موسى الأشعري نحوه. ولما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما فقال في الأُولَيين: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾، وفي الأُخريين: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي فوّارتان ولكنهما ليستا كالجاريتين لأن النضخ دون الجري. وقال في الأوليين: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ فعمّ ولم يخصّ. وفي الأخريين: ﴿ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ ولم يقل من كل فاكهة، وقال في الأوليين: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو الديباج، وفي الأخريين ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ والعبقريّ الوَشْي، ولا شك أن الديباج أعلى من الوشي، والرفرف كِسَر الخِباء، ولا شك أن الفرش المعدّة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخِباء. وقال في الأوليين في صفة الحور: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾، وفي الأخريين ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. وقال في الأوليين: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾ وفي الأخريين ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي خضراوان كأنهما من شدّة خضرتهما سوداوان، ووصف الأوليين بكثرة الأغصان، والأخريين بالخضرة وحدها، وفي هذا كله تحقيق للمعنى الذي قصدنا بقوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ ولعل ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر. فإن قيل: كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأوليين؟ قيل: الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة في الخوف من الله تعالى، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله في الخوف من الله تعالى. ومذهب الضحاك أن الجنتين الأوليين من ذهب وفضّة، والأخريين من ياقوت وزمرد وهما أفضل من الأوليين، وقوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي ومن أمامهما ومن قِبلهما وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) فقال: ومعنى ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي دون هذا إلى العرش؛ أي أقرب وأدنى إلى العرش، وأخذ يفضلهما على الأوليين بما سنذكره عنه. وقال مقاتل: الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى.

قوله تعالى: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي خضراوان من الريّ؛ قاله ٱبن عباس وغيره. وقال مجاهد: مسودتان. والدُّهْمة في اللغة السواد؛ يقال: فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء أي ٱشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذي فيه؛ فإن زاد على ذلك حتى ٱشتد السواد فهو جَوْن. وادْهَمَّ الفرس ٱدهمَاماً أي صار أدهم. وٱدهامَّ الشيءُ ٱدهِيماماً أي

أسوادّ؛ قال الله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة من الرّيّ؛ والعرب تقول لكل أخضر أسود. وقال لَبيد يرثي قتلى هَوازِن:

وجـاؤوا بـه فـي هَـوْدَجٍ وَوَراءهُ كَتَائِبُ خُضْـرٌ فـي نَسِيجِ السَّنَـوَّرِ

السَّنَوَّر لَبُوسٌ من قِدٍّ كالدِّرْع. وسميت قُرَى العراق سواداً لكثرة خضرتها. ويقال لليل المظلم: أخضر. ويقال: أباد الله خضراءهم أي سوادهم.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦﴾ أي فوارتان بالماء؛ عن ٱبن عباس. والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء. وعنه أن المعنى نضّاختان بالخير والبركة؛ وقاله الحسن ومجاهد. ٱبن مسعود وٱبن عباس أيضاً وأنس: تَنضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كما ينضَخ رش المطر. وقال سعيد بن جُبير: بأنواع الفواكه والماء. الترمذي: قالوا بأنواع الفواكه والنِّعم والجَوارِي المزيّنات والدواب المسرَجات والثياب الملوّنات. قال الترمذيّ: وهذا يدل على أن النضخ أكثر من الجري. وقيل: تنبعان ثم تجريان.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾ فيه مسألتان.

الأولى: قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره. وهذا ظاهر الكلام. وقال الجمهور: هما من الفاكهة وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة؛ كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقد تقدّم. وقيل: إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البُرّ عندنا؛ لأن النخل عامّةُ قوتهم، والرمان كالثمرات، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها؛ فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن؛ فأخرجهما في الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها. وقيل: أُفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكُّه؛ ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله، وهي المسألة:

الثانية: إذا حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل رمّاناً أو رُطَباً لم يحنث. وخالفه صاحباه والناس. قال ٱبن عباس: الرمانة في الجنة مثل البعير المُقَتَّب. وذكر ٱبن المبارك قال: أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال: نخل الجنة جذوعها زمرد

أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مُقطّعاتهم وحُللَهم، وثمرها أمثال القِلال والدلاء؛ أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد؛ ليس فيه عَجمَ[1]. قال: وحدّثنا المسعوديّ عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة، قال: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وإنّ ماءها ليجري في غير أخدود، والعنقود ٱثنا عشر ذراعاً.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ يعني النساء الواحدة خَيْرة على معنى ذوات خير. وقيل: «خَيِّرات» بمعنى خيرات فخفِّف؛ كهيِّن وليّن. ٱبن المبارك: حدثنا الأوزاعيّ عن حسان بن عطية عن سعيد بن عامر قال: لو أن خَيْرة من ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ أطلعت من السماء لأضاءت لها، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر، ولَنِصيفٌ تُكساه خيرة خير من الدنيا وما فيها. «حِسان» أي حسَان الخلق، وإذا قال الله تعالى: «حِسَانٌ» فمن ذا الذي يقدر أن يصف حسنهن! وقال الزهريّ وقتادة: «خَيْرَاتٌ» الأخلاق «حِسان» الوجوه. وروي ذلك عن النبيّ ﷺ من حديث أمّ سلمة[2]. وقال أبو صالح: لأنهنّ عَذَارى أبكار.

وقرأ قتادة وٱبن السَّمَيْقَع وأبو رجاء العُطارديّ وبكر بن حبيب السهميّ «خَيِّرَاتٌ» بالتشديد على الأصل. وقد قيل: إنّ خَيْرات جمع خَيْر والمعنى ذوات خَير. وقيل: مختارات. قال الترمذيّ[3]: فالخيرات ما ٱختارهنّ الله فأبدع خلقهن بٱختياره، فاختيار الله لا يشبه ٱختيار الآدميين. ثم قال: «حِسانٌ» فوصفهن بالحسن فإذا وصف خالق الحسن شيئاً بالحسن فانظر ما هناك. وفي الأوليين ذكر بأنهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ و ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ فانظركم بين الخيرة وهي مختارة الله، وبين قاصرات الطرف. وفي الحديث:

[٥٧٦٨] «إن الحور العين يأخذ بعضهنّ بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع

[٥٧٦٨] أخرجه الترمذي ٢٥٦٤ من حديث علي مختصراً، وفيه عبد الرحمن بن إسحق ضعيف الحديث. ولذا قال الترمذي: غريب ـ أي ضعيف ـ وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس، وذكر هذه الأحاديث المنذري في ترغيبه ٤/ ٢٦٦ فالحديث يرتقي بذلك والله أعلم.

---

(١) العجم: النوى.

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في الدر ٦/ ٢١١ مطولاً من حديث أم سلمة. وهو حديث ضعيف.

(٣) هو الحكيم صاحب نوادر الأصول.

الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن المقيمات فلا نَظعن أبداً ونحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نَيْؤُس أبداً ونحن خَيْرَات حسان حبيبات لأزواج كرام». خرجه الترمذي بمعناه من حديث عليّ رضي الله عنه. وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهنّ المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصلِّيات وما صَلَّيتنّ؛ ونحن الصائمات وما صُمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتنّ، ونحن المتصدِّقات وما تصدّقتنّ. فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهنّ واللَّهِ.

الثانية: وٱختلف أيهما أكثر حسناً وأبهر جمالاً الحور أو الآدميات؟ فقيل: الحور لما ذكر من وصفهنّ في القرآن والسنّة؛ ولقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه على الميت في الجنازة:

[٥٧٦٩] «وأبدلْه زوجاً خيراً من زوجه». وقيل: الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف[1]؛ وروي مرفوعاً. وذكر ٱبن المبارك: وأخبرنا رِشْدين عن ٱبن أَنْعُم[2] عن حبان بن أبي جبلة، قال: إن نساء الدنيا من دخل منهنّ الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن في الدنيا. وقد قيل: إن الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخْلَقن في الآخرة على أحسن صورة؛ قاله الحسن البصري. والمشهور أن الحور العين لَسْنَ من نساء أهل الدنيا وإنما هنّ مخلوقات في الجنة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات، ولأن النبيّ ﷺ قال: «إنّ أقلَّ ساكِني الجنةِ النّساء»[3] فلا يصيب كل واحد منهم ٱمرأة، ووعد الحور العين لجماعتهم، فثبت أنهن من غير نساء الدنيا.

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ «حُورٌ» جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وقد تقدم. ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ محبوسات مستورات ﴿فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ في الحجال لسن بالطوّافات في الطرق؛ قاله ٱبن عباس. وقال عمر

[٥٧٦٩] صحيح. هو بعض حديث أخرجه مسلم ٩٦٣ وأحمد ٦/ ٢٣ من حديث عوف بن مالك وصدره «اللهم اغفر له وارحمه. .» وقد تقدم.

---

(١) ورد بنحوه مرفوعاً راجع الترغيب ٤/ ٥٣٤ ـ ٥٣٦ لكن الإسناد لم يصح.
(٢) هو عبد الرحمن بن أَنْعُم أحد الضعفاء.
(٣) ذكره المصنف بمعناه وتقدم بلفظ آخر أخرجه الشيخان وغيرهما.

رضي الله عنه: الخيمة دُرة مجوّفة. وقاله ٱبن عباس. وقال: هي فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب. وقال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله في قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾: بلغنا في الرواية أن سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قَطَرات الرحمة، ثم ضرب على كل واحدة منهنّ خيمة على شاطىء الأنهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب، حتى إذا دخل وليّ الله الجنة ٱنصدعت الخيمة عن باب ليعلم وليّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهي مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين. والله أعلم. وقال في الأوليين: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قصرن طرفهنّ على الأزواج ولم يذكر أنهنّ مقصورات، فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل. وقال مجاهد: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ قد قُصِرن على أزواجهنّ فلا يُرِدن بدلاً منهم. وفي الصحاح: وقصرت الشيء أقصره قصراً حبسته؛ ومنه مقصورة الجامع، وقصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز به إلى غيره، وٱمرأة قَصِيرة وقَصُورة أي مقصورة في البيت لا تترك أن تخرج؛ قال كُثَيِّر:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ كلَّ قَصِيرَةٍ ... إليّ وما تَدْرِي بذاكَ الْقَصَائِرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحجالِ ولم أُرِدْ ... قِصارَ الخُطَا شَرُّ النّساءِ البَحاتِرُ(١)

وأنشده الفراء قَصُورة؛ ذكره ٱبن السِّكّيت. وروى أنس قال:

[٥٧٧٠] قال النبيّ ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي في الجنة بنهر حافتاه قِبَاب المرجان فنوديت منه السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء جوارٍ من الحور العِين ٱستأذنّ ربهنّ في أن يُسلِّمن عليك فأذن لهنّ فقلن نحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً ونحن الراضيات فلا نسخَط أبداً أزواج رجال كرام» ثم قرأ النبيّ ﷺ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾ أي محبوسات حبس صيانةٍ وتكرمة. وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبيّ ﷺ فقالت:

[٥٧٧١] يا رسول الله! إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعدُ بيوتكم وحواملُ أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبيّ ﷺ: «نعم إذا أحسنتن تَبعُّلَ أزواجكنّ وطلبتن مرضاتهم».

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لم يمسسهن على ما تقدم قبل. وقراءة العامة

[٥٧٧٠] أخرجه البيهقي في «البعث» ٣٧٦ من حديث أنس وفي إسناده الكديمي وهو متهم بالكذب.
[٥٧٧١] ذكره الماوردي ٤/ ٤٤٣ بهذا اللفظ ولم يجده مخرجه. وبحثت عنه فلم أجده بعدُ، والله أعلم.

---

(١) جمع بحترة وهي المجتمعة الخلْق.

﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾ بكسر الميم. وقرأ أبو حيوة الشامي وطلحة بن مُصرِّف والأعرج والشيرازي عن الكسائي بضم الميم في الحرفين. وكان الكسائي يكسر إحداهما ويضم الأخرى ويُخَيِّر في ذلك، فإذا رفع الأولى كسر الثانية وإذا كسر الأولى رفع الثانية. وهي قراءة أبي إسحق السّبيعي. قال أبو إسحق: كنت أصلّي خلف أصحاب عليّ فيرفعون الميم، وكنت أَصَلّي خلف أصحاب عبد الله فيكسرونها، فأستعمل الكسائي الأثرين. وهما لغتان طَمُث وطَمِث مثل يَعرُشُون ويَعْكِفُون؛ فمن ضم فللجمع بين اللغتين، ومن كسر فلأنها اللغة السائرة. وإنما أعاد قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾؛ ليبين أن صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف. يقول: إذا قصرن كانت لهنّ الخيام في تلك الحال.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرفرف المحابس[1]. وقال ٱبن عباس: الرفرف فضول الفرش والبسط. وعنه أيضاً: الرفرف المحابس يتكئون على فضولها؛ وقاله قتادة. وقال الحسن والقرظي: هي البسط. وقال ٱبن عيينة: هي الزرابي. وقال ٱبن كيسان: هي المرافق؛ وقاله الحسن أيضاً. وقال أبو عبيدة: هي حاشية الثوب. وقال الليث: ضرب من الثياب الخضر تبسط. وقيل: الفُرُش المرتفعة. وقيل: كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف. قال ٱبن مقبل:

وإنّــا لنَــزَّالــونَ تَغْشَــى نِعَــالُنَــا ... سَـوَاقِـطَ مـن أصنـاف رَيْـطٍ ورفـرفِ

وهذه أقوال متقاربة. وفي الصحاح: والرفرفَ ثياب خضر تتخذ منها المحابس، الواحدة رَفْرَفة. وقال سعيد بن جبير وٱبن عباس أيضاً: الرفرف رياض الجنة؛ وٱشتقاق الرفرف من رَفَّ يَرف إذا ٱرتفع؛ ومنه رَفْرَفة الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء. وربما سموا الظَّلِيم رَفْرافاً بذلك؛ لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعدو. ورفرف الطائر أيضاً إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه. والرفرف أيضاً كِسَر الخباء وجوانب الدِّرْع وما تدلى منها؛ الواحدة رَفْرَفة. وفي الخبر في وفاة النبيّ ﷺ: فرفَع الرفرفَ فرأينا وجهه كأنه وَرَقَةٌ تُخَشْخِش أي رفع طرف الفسطاط[2]. وقيل: أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفّ إذا صار غضًّا نضيراً؛ حكاه الثعلبي. وقال القتبي: يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النَّعمة والغَضَاضة حتى كاد يهتز: رَفّ يرِفّ رفيفاً؛ حكاه الهروي. وقد قيل: إن الرفرف شيء إذا ٱستوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يميناً وشمالاً ورفعاً وخفضاً يتلذذ به مع

---

(١) هو ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه.

(٢) انظر غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٤٠٧.

أنيسته؛ قاله الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول) وقد ذكرناه في «التذكرة». قال الترمذي: فالرفرف أعظم خطراً من الفرش فذكره في الأولين ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وقال هنا: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ فالرفرف هو شيء إذا ٱستوى عليه الوليّ رفرف به؛ أي طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالْمِرجاح؛ وأصله من رفرف بين يدي الله عز وجل، روي لنا في حديث المعراج أن رسول الله ﷺ لما بلغ سِدْرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مَسْنَد العرش، فذكر أنه قال: «طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربّي»[1] ثم لما حان الانصراف تناوله فطار به خفضاً ورفعاً يهوي به حتى أداه إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه وجبريل يبكي ويرفع صوته بالتحميد؛ فالرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى له خواص الأمور في محل الدنو والقرب، كما أن البُرَاق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه، فهذا الرفرف الذي سخره الله لأهل الجنتين الدانيتين هو متكأهما وفرشهما، يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان. ثم قال: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ فالعبقري ثياب منقوشة تبسط، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر!. وقرأ عثمان رضي الله عنه والجحدري والحسن وغيرهم «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ» بالجمع غير مصروف كذلك «وَعَبَاقِرِيَّ حِسَانٍ» جمع رَفْرَف وعَبْقريّ. و «رَفْرَف» ٱسم للجمع و «عَبْقَرِيّ» واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عَبْقَر. وقد قيل: إن واحد رَفْرف وعَبْقريّ رَفْرَفة وعَبْقريّة، والرفارف والعَبَاقِر جمع الجمع. والعبقريّ الطَّنَافس الثخان منها؛ قاله الفراء. وقيل: الزَّرَابي؛ عن ٱبن عباس وغيره. الحسن: هي البُسُط. مجاهد: الدِّيباج. القتبيّ: كل ثوب وشي عند العرب عبقريّ. قال أبو عبيد: هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي فينسب إليها كل وَشْي حُبِك. قال ذو الرُّمَّة:

حتـى كـأنّ رِيـاضَ الْقُـفّ أَلْبَسها ... مِـن وَشْـيِ عَبْقَـرَ تَجْلِيـلٌ وتَنْجِيـدُ

ويقال: عَبْقر قرية بناحية اليمن تنسج فيها بُسُط منقوشة. وقال ٱبن الأنباري: إن الأصل فيه أن عَبْقر قرية يسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق جليل. وقال الخليل: كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقريّ. ومنه قول النبيّ ﷺ في عمر رضي الله عنه:

[٥٧٧٢] «فلم أر عبقرياً من الناس يَفْرِي فَرِيَّه» وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل

[٥٧٧٢] صحيح. أخرجه البخاري ٣٦٦٤ و ٧٠٢٢ و ٧٤٧٥ ومسلم ٢٣٩٢ وأحمد ٢/٣٦٨ وابن أبي شيبة ١٢/٢١ وابن حبان ٦٨٩٨ من حديث أبي هريرة في أثناء حديث.

(١) لم أر هذه الرواية مع كثرة الأحاديث في شأن الإسراء. والله أعلم.

عن قوله ﷺ «فلم أر عَبْقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه» فقال: رئيس قوم وجليلهم. وقال زُهَير:

بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ جَديرون يوماً أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعلُوا

وقال الجوهري: العبقريّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ.

قال لبِيد:

* كُهُولٌ وشُبَّان كجِنَّةِ عَبْقَرِ[1] *

ثم نسبوا إليه كل شيء يعجبون من حذقه وجودة صنعته وقوّته فقالوا: عَبْقريّ وهو واحد وجمع. وفي الحديث: إنه كان يسجد على عبقريّ[2]. وهو هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا: ظُلْم عبقريّ وهذا عبقريُّ قوم للرجل القويّ. وفي الحديث: «فلم أر عبقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه» ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦﴾ وقرأه بعضهم «عَبَاقِرِيّ» وهو خطأ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته. وقال قُطْرُب: ليس بمنسوب وهو مثل كُرْسيّ وكَراسِيّ وبُخْتيّ وبَخَاتيّ. وروى أبو بكر:

[٥٧٧٣] أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَاقِرَ حِسَانٍ﴾ ذكره الثعلبي. وضمّ الضاد من «خضر» قليل.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تفاعل من البركة وقد تقدّم. ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ أي العظمة. وقد تقدّم ﴿وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾. وقرأ عامر «ذُو الْجَلَالِ» بالواو وجعله وصفاً للاسم، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى. الباقون ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ جعلوا «ذِي» صفة لـ ﴿رَبِّكَ﴾. وكأنه يريد به الاسم الذي ٱفتتح به السورة؛ فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فافتتح بهذا الاسم، فوصف خلق الإنسان والجنّ، وخلق السموات والأرض وصنعه، وأنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩﴾ ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها، وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان. ثم قال في آخر السورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ أي هذا الاسم الذي ٱفتتح به هذه السورة؛ كأنه يعلمهم أن هذا

[٥٧٧٣] ذكره السيوطي في الدر ٦/ ٢١٤ فقال: أخرجه ابن الأنباري في «المصاحف» والحاكم وصححه عن أبي بكر مرفوعاً فذكره. وفي المستدرك ٢/ ٢٥٠ هو من حديث أبي بكرة، لكن هو كقراءة حفص التي عليها عامة الناس اليوم. ولعله تحريف وقع من بعض نساخ المستدرك. والحديث صححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: منقطع وعاصم ـ الجحدري ـ لم يدرك أبا بكرة اهـ والله أعلم.

---

(١) صدره: ومن قاد من إخوانهم وبنيهم.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «غريبه» ٢/ ٦٣ عن عمر وأنه كان يجلس على عبقريّ، أي بساط ثخين اهـ.

كله خرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار؛ فهذا كله لكم من ٱسم الرحمن فمدح ٱسمه ثم قال: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ جليل في ذاته، كريم في أفعاله. ولم يختلف القراء في إجراء النعت على الوجه بالرفع في أوّل السورة، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذي يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه، فيستبشرون بحسن الجزاء، وجميل اللقاء، وحسن العطاء. والله أعلم.

سورة الواقعة

مكية، وهي سبع وتسعون آية

مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. وقال ٱبن عباس وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: ٨٢]. وقال الكلبيّ: مكية إلا أربع آيات؛ منها آيتان ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾ [الواقعة: ٨١] ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: ٨٢] نزلتا في سفره إلى مكة، وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩﴾ [الواقعة: ٣٩] ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ [الواقعة: ٤٠] نزلتا في سفره إلى المدينة. وقال مسروق: من أراد أن يعلم نبأ الأوّلين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة. وذكر أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد» و «التعليق» والثعلبي أيضاً: أن عثمان دخل على ٱبن مسعود يعوده في مرضه الذي مات فيه فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه؛ حبستَه عني في حياتي، وتدفعه لي عند مماتي؟ قال: يكون لبناتك من بعدك. قال: أتخشى على بناتي الفاقة من بعدي؟ إني أمرتهن أن يقرأن سورة «الواقعة» كل ليلة؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٥٧٧٤] «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً».

[٥٧٧٤] ضعيف. أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن ٢٢٦ وابن الجوزي في العلل ١٥١ وابن السني ٦٨٠ من حديث ابن مسعود ومداره على شجاع قال الذهبي في تلخيص الواهيات لايدرى من هو نقله ابن عراق ١/ ٣٠١ وقال ابن الجوزي: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث منكر. وشجاع والسري لا أعرفهما. وقد أطال الحافظ في تخريج الكشاف الكلام عليه وذكر ما جاء فيه عن أحمد ووافقه وانظر جامع الأصول ٨/ ٤٨١ ـ ٤٨٢ وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ ﴾ أي قامت القيامة، والمراد النفخة الأخيرة. وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب. وقيل: لكثرة ما يقع فيها من الشدائد. وفيه إضمار، أي أذكروا إذا وقعت الواقعة. وقال الجرجاني: «إذا» صلة؛ أي وقعت الواقعة؛ كقوله: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ [القمر: ١] و ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١] وهو كما يقال: قد جاء الصوم أي دنا وأقترب. وعلى الأوّل «إِذَا» للوقت، والجواب قوله: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ ﴾. ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ ﴾ الكاذبة مصدر بمعنى الكذب، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر؛ كقوله تعالى: ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ ﴾ [الغاشية: ١١] أي لغو، والمعنى لا يسمع لها كذب؛ قاله الكسائي. ومنه قول العامة: عائذاً بالله أي معاذ الله، وقم قائماً أي قم قياماً. ولبعض نساء العرب ترقِّصُ أبنها:

قُمْ قائماً قُمْ قَائمَا   أصبت عبداً نائمَا

وقيل: الكاذبة صفة والموصوف محذوف، أي ليس لوقعتها حال كاذبة؛ أو نفس كاذبة؛ أي كل من يخبر عن وقعتها صادق. وقال الزجاج: «لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ» أي لا يردها شيء. ونحوه قول الحسن وقتادة. وقال الثوريّ: ليس لوقعتها أحد يكذّب بها. وقال الكسائيّ أيضاً: ليس لها تكذيب؛ أي ينبغي ألا يكذّب بها أحد. وقيل: إن قيامها جِدٌّ لا هزْلَ فيه.

قوله تعالى: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ ﴾ قال عِكرمة ومقاتل والسُّدِّي: خفضت الصوت فأسمعتْ من دنا ورفعتْ من نأى؛ يعني أسمعت القريب والبعيد. وقال السُّدِّي: خفضت المتكبرّين ورفعت المستضعفين. وقال قتادة: خفضت أقواماً في عذاب الله، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خفضت أعداء الله في النار، ورفعت أولياء الله في الجنة. وقال محمد بن كعب: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين. وقال أبن عطاء: خفضت أقواماً بالعدل، ورفعت آخرين بالفضل. والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعز والمهانة. ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة توسُّعاً ومجازاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل؛ يقولون:

ليلٌ نائمٌ ونهار صائم. وفي التنزيل: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده؛ فرفع أولياءه في أعلى الدرجات، وخفض أعداءه في أسفل الدركات. وقرأ الحسن وعيسى الثقفي ﴿خَافِضَةً رَافِعَةً﴾ بالنصب. الباقون بالرفع على إضمار مبتدإ، ومن نصب فعلى الحال. وهو عند الفراء على إضمار فعل؛ والمعنى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ ـ وقعت: ﴿خَافِضَةً رَّافِعَةً﴾. والقيامة لا شك في وقوعها، وأنها ترفع أقواماً وتضع آخرين على ما بيّناه.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ أي زُلزلت وحُركت عن مجاهد وغيره؛ يقال: رَجّه يَرُجّه رجًّا أي حركه وزلزله. وناقة رجّاءُ أي عظيمة السَّنَام. وفي الحديث:

[٥٧٧٥] «مَنْ ركب البحرَ حين يَرْتَجُّ فلا ذِمَّةَ له» يعني إذا أضطربت أمواجه. قال الكلبيّ: وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها أضطربت فَرَقاً من الله تعالى. قال المفسرون: تَرْتجُّ كما يَرتج الصبيّ في المهد حتى ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شيء عليها من الجبال وغيرها. وعن أبن عباس الرَّجَّة الحركة الشديدة يسمع لها صوت. وموضع «إِذَا» نصب على البدل من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾. ويجوز أن ينتصب بـ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أي تخفض وترفع وقت رجِّ الأرض وبسِّ الجبال؛ لأن عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع، ويرتفع ما هو منخفض. وقيل: أي وقعت الواقعة إذا رجّت الأرض؛ قاله الزجاج والجرجاني. وقيل: أي أذكر ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ مصدر وهو دليل على تكرار الزلزلة.

قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي فتتت؛ عن أبن عباس. مجاهد: كما يُبَسُّ الدقيق أي يُلَتّ. والبسيسة السَّوِيق أو الدقيق يُلَتُّ بالسَّمن أو بالزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زاداً. قال الراجز:

لا تَخْبِزَا خُبْزاً وبُسَّا بَسَّا ... ولا تُطِيلاَ بُمِنَاخٍ حَبْسَا

وذكر أبو عبيدة: أنه لصٌّ من غَطَفان أراد أن يخبز فخاف أن يُعجَل عن ذلك فأكله عجيناً. والمعنى أنها خُلِطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من الماء. أي تصير الجبال تراباً فيختلط البعض بالبعض. وقال الحسن: وبُسَّت قلعت من أصلها فذهبت؛ نظيره: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥﴾ [طه: ١٠٥]. وقال عطية: بُسطت كالرمل والتراب. وقيل: البسُّ السّوق أي سيقت الجبال. قال أبو زيد: البسّ السّوق؛ وقد بسستُ الإبل أبُسُّها بالضم بسًّا. وقال أبو عبيد: بسست الإبل وأبسست لغتان إذا زجرتها وقلت لها بَسْ بَسْ. وفي الحديث:

[٥٧٧٥] مضى برقم ٢٤٨/١٢.

[٥٧٧٦] «يخرج قوم من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يَبُسُّون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» ومنه الحديث الآخر: «جاءكم أهل اليمن يَبُسُّون عِيالهم»[١] والعرب تقول: جِيءْ به من حَسِّك وبَسِّك. ورواهما أبو زيد بالكسر؛ فمعنى من حِسّك من حيث أحسسته، وبِسّك من حيث بلغه مسيرك. وقال مجاهد: سالت سيلاً. عكرمة: هُدَّت هدّاً. محمد بن كعب: سُيِّرت سيراً؛ ومنه قول الأغلب العجْليّ:

وقال الحسن: قطعت قطعاً. والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ قال عليّ رضي الله عنه: الهباء المنبث الرّهج[٢] الذي يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب، فجعل الله أعمالهم كذلك. وقال مجاهد: الهباء هو الشعاع الذي يكون في الكوّة كهيئة الغبار. وروي نحوه عن ابن عباس. وعنه أيضاً: هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئاً. وقاله عطية. وقد مضى في «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣] وقراءة العامة «مُنْبَثًّا» بالثاء المثلثة أي متفرقاً من قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] أي فرّق ونشر. وقرأ مسروق والنَّخَعيّ وأبو حَيْوة «مُنْبَتًّا» بالتاء المثناة أي منقطعاً من قولهم: بتّه الله أي قطعه؛ ومنه البتات.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ أي أصنافاً ثلاثة كل صنف يشاكل ما هو منه، كما يشاكل الزوج الزوجة، ثم بيّن من هم فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ و ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار؛ قاله السُّديّ. والمشأمة الميسرة وكذلك الشأمة. يقال: قعد فلان شأمة. ويقال: يا فلان شائم بأصحابك؛ أي خذ بهم شأمة أي ذات الشمال. والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى، وللجانب الشمال الأشأم. وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليُمْن، ولمَا جاء عن الشّمال الشؤم. وقال ابن عباس والسُّديّ: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذّرية من

[٥٧٧٦] صحيح. أخرجه البخاري ١٨٧٥ ومسلم ١٣٨٨ والحميدي ٨٦٥ وأحمد ٥/ ٢٢٠ ومالك ٢/ ٨٨٧ وعبد الرزاق ١٧١٥٩ وابن حبان ٦٦٧٣ من حديث سفيان بن أبي زهير، وقد اختصره المصنف.

---

(١) لعله رواية أخرىٰ للحديث المتقدم.

(٢) بالفتح والإسكان الغبار.

صُلْبه فقال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي. وقال زيد بن أسلم: أصحاب الميمنة هم الذين أُخِذوا من شقّ آدم الأيمن يومئذ، وأصحاب المشأمة الذين أُخِذوا من شق آدم الأيسر. وقال عطاء ومحمد بن كعب: أصحاب الميمنة من أوتي كتابه بيمينه، وأصحاب المشأمة من أوتي كتابه بشماله. وقال ٱبن جريج: أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات. وقال الحسن والربيع: أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة. وفي صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٧٧٧] «فلما عَلَونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدة وعن يساره أَسْوِدة ـ قال ـ فإذا نظر قِبل يمينه ضحك وإذا نظر قِبل شماله بكى ـ قال ـ فقال مرحباً بالنبيّ الصالح والابن الصالح ـ قال ـ قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم عليه السلام وهذه الأسوِدة التي عن يمينه وعن شماله نَسَم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسوِدة التي عن شماله أهل النار» وذكر الحديث. وقال المبرد: وأصحاب الميمنة أصحاب التقدّم، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر. والعرب تقول: ٱجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك؛ أي ٱجعلني من المتقدّمين ولا تجعلنا من المتأخرين. والتكرير في ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨﴾. و ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩﴾ للتفخيم والتعجيب؛ كقوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾ [الحاقة: ١ ـ ٢] و﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢﴾ [القارعة: ١ ـ ٢] كما يقال: زيد ما زيد! وفي حديث أمّ زَرْع رضي الله عنها: مالِكٌ ومَا مَالِكٌ[1]! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب. وقيل: «أَصْحَابُ» رفع بالابتداء والخبر ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨﴾ كأنه قال: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ما هم؛ المعنى: أيُّ شيء هم. وقيل: يجوز أن تكون «ما» تأكيداً، والمعنى فالذين يعطون كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقدّم وعلوّ المنزلة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ روي عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٥٧٧٨] «السابقون الذين إذا أعطوا الحقّ قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» ذكره المهدوي. وقال محمد بن كعب القُرَظيّ: إنهم الأنبياء. الحسن وقتادة: السابقون إلى الإيمان من كل أمة. ونحوه عن عكرمة. محمد بن سيرين: هم

[٥٧٧٧] تقدم تخريجه.

[٥٧٧٨] أخرجه الديلمي ٣٥٧٦ من حديث علي بإسناد ضعيف فيه مجاهيل.

---

(١) هو بعض حديث مطول أخرجه مسلم وغيره وتقدم.

الذين صلّوا إلى القبلتين؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقال مجاهد وغيره: هم السابقون إلى الجهاد، وأوّل الناس رواحاً إلى الصلاة. وقال عليّ رضي الله عنه: هم السابقون إلى الصلوات الخمس. الضحاك: إلى الجهاد. سعيد بن جُبير: إلى التوبة وأعمال البر؛ قال الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ثم أثنى عليهم فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١]. وقيل: إنهم أربعة؛ منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية، وسابقان في أمة محمد ﷺ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؛ قاله ٱبن عباس؛ حكاه الماوردي. وقال شُمَيْط بن العجلان: الناس ثلاثة؛ فرجل ٱبتكر للخير في حداثة سنه داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرّب، ورجل ٱبتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين، ورجل ٱبتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال. وقيل: هم كل من سبق إلى شيء من أشياء الصلاح. ثم قيل: ﴿ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ رفع بالابتداء والثاني توكيد له والخبر ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾. وقال الزجاج: ﴿ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ رفع بالابتداء والثاني خبره؛ والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ من صفتهم. وقيل: إذا خرج رجل من السابقين المقربين من منزله في الجنة كان له ضوء يعرفه به من دونه.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي جماعة من الأمم الماضية. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي ممن آمن بمحمد ﷺ. قال الحسن: ثُلَّة ممن قد مضى قبل هذه الأمة، وقليل من أصحاب محمد ﷺ، اللهم ٱجعلنا منهم بكرمك. وسُمُّوا قليلاً بالإضافة إلى من كان قبلهم؛ لأن الأنبياء المتقدّمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمان منهم، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا. وقيل:

[٥٧٧٩] لما نزل هذا شَقَّ على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فقال النبيّ ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل

[٥٧٧٩] أخرجه أحمد ٢/ ٣٩١ من حديث أبي هريرة، وزاد السيوطي في الأسباب ١٠٦٢ نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وقال: بسند فيه من لايعرف. وهو كما قال محمد بن بياع الملاء عن أبيه وكلاهما مجهول.
والحديث المرفوع دون سبب النزول صحيح أخرجه الجماعة وتقدم برقم ٢/١٢.

ثلثَ أهل الجنة بل نصفَ أهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثاني» رواه أبو هريرة، ذكره الماوردي وغيره. ومعناه ثابت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود[1]. وكأنه أراد أنها منسوخة والأشبه أنها محكمة لأنها خبر؛ ولأن ذلك في جماعتين مختلفتين. قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا؛ فلذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ وقال في أصحاب اليمين وهم سوى السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ولذلك قال النبيّ ﷺ: «إني لأرجو أن تكون أمتي شطر أهل الجنة»[2] ثم تلا قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ قال مجاهد: كلٌّ من هذه الأمة. وروى سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ:

[٥٧٨٠] «الثُّلَّتان جميعاً من أمتي» يعني ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾. وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. قال أبو بكر رضي الله عنه: كِلاَ الثُّلَّتين من أمة محمد ﷺ، فمنهم من هو في أوّل أمته، ومنهم من هو في آخرها؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]. وقيل: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي من أوّل هذه الأمة. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ يسارع في الطاعات حتى يلحق درجة الأوّلين؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم قَرْني»[3] ثم سَوّى في أصحاب اليمين بين الأوّلين والآخرين. والثُّلَّة من ثَلَلت الشيء أي قطعته، فمعنى ثلة كمعنى فرقة؛ قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي السابقون في الجنة «عَلَى سُرُرٍ»؛ أي مجالسهم على سرر جمع سرير. ﴿مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ قال ابن عباس: منسوجة بالذهب. وقال عكرمة: مشبكة بالدُّرّ والياقوت. وعن ابن عباس أيضاً: «مَوْضُونَةٍ» مصفوفة؛ كما قال في موضع آخر: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠]. وعنه أيضاً وعن مجاهد: مَرْمولة[4] بالذهب. وفي التفاسير: «مَوْضُونَةٍ» أي منسوجة بقضبان الذّهب مشبكة بالدّر والياقوت

[٥٧٨٠] ضعيف. أخرجه ابن عدي ١/ ٣٨٧ من حديث ابن عباس، وقال الحافظ في تخريج الكشاف ٤/ ٤٥٨: أبان بن أبي عياش متروك. ورواه إسحق والطبراني من حديث أبي بكرة مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أولى بالصواب وعلي بن زيد ضعيف اهـ وانظر المجمع ٧/ ١١٩.

---

(١) مضىٰ في ١٢/ ٢.
(٢) انظر ما قبله.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أي منسوجة.

والزّبرجد. والوضْن النسج المضاعف والنّضد؛ يقال: وَضَن فلانٌ الحجرَ والآجُرَّ بعضه فوق بعض فهو موضون، ودرع موضونة أي محكمة النّسج مثل مصفوفة؛ قال الأعشى:

وَمِـــن نَسْـــجِ دَاوُدَ مَـــوضُـــونَـــة   تُسَـــاقُ مـــع الحـــيِّ عِيـــراً فَعِيـــرَا

وقال أيضاً:

وبَيْضَـــاء كـــالنَّهْـــيِ مَـــوْضُـــونَـــة   لهـــا قَـــوْنَـــسٌ فـــوقَ جَيْـــبِ البَـــدَنْ

والسرير الموضون: الذي سطحه بمنزلة المنسوج؛ ومنه الوَضِين: بِطانٌ من سُيور ينسج فيدخل بعضه في بعض؛ ومنه قوله:

* إليكَ تَعْدُو قَلِقاً وَضِينُها *

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ أي على السرر ﴿ مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي لا يرى بعضهم قَفَا بعض، بل تدور بهم الأسرة، وهذا في المؤمن وزوجته وأهله؛ أي يتكئون متقابلين. قاله مجاهد وغيره. وقال الكلبيّ: طول كل سرير ثلثمائة ذراع، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها ٱرتفعت.

قوله تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي غلمان لا يموتون؛ قاله مجاهد. الحسن والكلبيّ: لا يَهْرَمون ولا يتغيرون؛ ومنه قول ٱمرىء القيس:

وهَـــلْ يَنْعَمَـــنْ إلاّ سَعِيـــدٌ مُخَلَّـــدٌ   قَلِيـــلُ الْهُمُـــومِ مـــا يَبِيـــتُ بِـــأَوجَـــالِ

وقال سعيد بن جبير: مُخلَّدون مُقرَّطون؛ يقال للقُرْط الخلَدَة ولجماعة الحُلِيّ الْخِلْدَة. وقيل: مسوّرون ونحوه عن الفراء؛ قال الشاعر:

ومخلَّـــداتٌ بِـــاللُّجيـــنِ كَـــأَنَّمَـــا   أَعْجَـــازُهُـــنَّ أَقَـــاوِزُ[1] الْكُثُبَـــانِ

وقيل: مقرّطون يعني ممنطقون من المناطق. وقال عكرمة: «مُخَلَّدُونَ» منعَّمون. وقيل: على سنّ واحدة أنشأهم الله لأهل الجنة يطوفون عليهم كما شاء من غير ولادة. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن البصري: الولدان ههنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة. وقال سلمان الفارسيّ: أطفال المشركين

---

(١) جمع قوز وهو كثيب من الرمل صغير.

هم خدم أهل الجنة. قال الحسن: لم يكن لهم حسنات يجزون بها، ولا سيئات يعاقبون عليها، فوضعوا في هذا الموضع. والمقصود: أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة، والنعمة إنما تتم باحتفاف الخدم والولدان بالإنسان. ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ أكواب جمع كوب وقد مضى في «الزخرف» وهي الآنية التي لا عُرى لها ولا خراطيم، والأباريق التي لها عُرى وخراطيم واحدها إبريق؛ سُمِّيَ بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه. ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ مضى في «والصافات» القول فيه. والمعين الجاري من ماء أو خمر؛ غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون. وقيل: الظاهرة للعيون فيكون «معين» مفعولاً من المعاينة. وقيل: هو فعيل من المَعْن وهو الكثرة. وبيّن أنها ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصر وتكلّف ومعالجة.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا تنصدع رؤوسهم من شربها؛ أي إنها لذة بلا أذًى بخلاف شراب الدنيا. ﴿وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ تقدم في «والصافات» أي لا يسكرون فتذهب عقولهم. وقرأ مجاهد: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ بمعنى لا يتصدّعون أي لا يتفرقون؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم: ٤٣]. وقرأ أهل الكوفة «يَنْزِفُونَ» بكسر الزاي؛ أي لا ينفد شرابهم ولا تفنى خمرهم؛ ومنه قول الشاعر(١):

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفتُم أو صَحَوْتُمُ ... لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنتمُ آل أَبْجَرَا

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: في الخمر أربع خصال: السُّكْر والصُّداع والقيء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال.

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي يتخيرون ما شاؤوا لكثرتها. وقيل: وفاكهة متخيرة مرضية، والتخير الاختيار. ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ روى الترمذي عن أنس بن مالك قال:

[٥٧٨١] سئل رسول الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله تعالى ـ يعني في الجنة ـ أشدّ بياضاً من اللبن، أحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزُر» قال عمر: إن هذه لناعِمةٌ؛ قال رسول الله ﷺ: «أَكَلَتُها أحسنُ منها» قال: حديث حسن. وخرّجه الثعلبي من حديث أبي الدرداء أن النبيّ ﷺ قال:

[٥٧٨٢] «إن في الجنة طيراً مثل أعناق البُخْت تصطفّ على يد وليّ الله فيقول

[٥٧٨١] يأتي في سورة الكوثر إن شاء الله.

[٥٧٨٢] عزاه المصنف للثعلبي. وقد أورد المنذري في ترغيبه ٤/ ٥٢٧ نحوه مختصراً من حديث ابن مسعود وأبي أمامة وميمونة، والله أعلم.

---

(١) هو الحطيئة.

أحدها يا وليّ اللَّهِ رَعيتُ في مُرُوج تحت العرش وشربت من عيون التَّسليم فكُلْ منِّي فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخرّ بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى في الجنة حيث شاء» فقال عمر: يا نبيّ الله إنها لناعِمة. فقال: «آكلُها أَنْعمُ منها». وروي عن أبي سعيد الخدري أن النبيّ ﷺ قال:

[٥٧٨٣] «إن في الجنة لطيراً في الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج وأبرد وألين من الزّبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير».

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾ قرىء بالرفع والنصب والجر؛ فمن جر وهو حمزة والكسائي وغيرهما جاز أن يكون معطوفاً على ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وهو محمول على المعنى؛ لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحُور؛ قاله الزجاج. وجاز أن يكون معطوفاً على «جَنَّاتِ» أي هم في «جَنَّاتِ النَّعِيمِ» وفي حور على تقدير حذف المضاف؛ كأنه قال: وفي معاشرة حور. الفراء: الجر على الإتباع في اللفظ وإن ٱختلفا في المعنى؛ لأن الحور لا يطاف بهن؛ قال الشاعر:

إذا ما الغانِياتُ بَرَزْنَ يوماً ... وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والْعُيونَا

والعين لا تزجج وإنما تكحل. وقال آخر:

ورأيتُ زَوْجَكِ في الوغَىَ ... مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا

وقال قُطْرب: هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى. قال: ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذة. ومن نصب وهو الأشهب العقيلي والنّخعي وعيسى بن عمر الثّقفي وكذلك هو في مصحف أُبَيّ، فهو على تقدير إضمار فعل؛ كأنه قال: ويزوّجون حُوراً عِيناً. والحمل في النصب على المعنى أيضاً حسن؛ لأنّ معنى يطاف عليهم به يُعطَونه. ومن رفع وهم الجمهور ـ وهو ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم ـ فعلى معنى وعندهم حور عين؛ لأنه لا يطاف عليهم بالحور. وقال الكسائي: ومن قال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾ بالرفع وعلّل بأنه لا يطاف بهنّ يلزمه ذلك في

[٥٧٨٣] ذكره السيوطي في الدر ٦/ ٢٢١ فقال: أخرجه هناد من حديث أبي سعيد ثم ذكره. وذكره المنذري في ترغيبه ٤/ ٥٢٧ وقال: رواه ابن أبي الدنيا وقد حسن الترمذي إسناده لغير هذا المتن اهـ قلت: الضعف على هذه الروايات بين لكن يتساهل في ذلك في مثل هذا المقام، والله أعلم.

فاكهة ولحم؛ لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالخمر وحدها. وقال الأخفش: يجوز أن يكون محمولاً على المعنى؛ لأن المعنى لهم أكواب ولهم حور عين. وجاز أن يكون معطوفاً على ﴿ثُلَّةٌ﴾ و ﴿وَثُلَّةٌ﴾ أبتداء وخبره ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥﴾ وكذلك «وَحُورٌ عِينٌ» وأبتدأ بالنكرة لتخصيصها بالصفة. ﴿كَأَمْثَالِ﴾ أي مثل أمثال ﴿ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ أي الذي لم تمسه الأيدي ولم يقع عليه الغبار فهو أشدّ ما يكون صفاء وتلألؤاً؛ أي هنّ في تشاكل أجسادهن في الحسن من جميع جوانبهن كما قال الشاعر:

كأنّما خُلِقَتْ في قِشْرِ لُؤْلُؤةٍ ... فكُلُّ أكْنافِها وَجْهٌ لِمِرْصادِ

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ أي ثواباً ونصْبُه على المفعول له. ويجوز أن يكون على المصدر؛ لأن معنى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ يجازون. وقد مضى الكلام في الحور العين في «والطور» وغيرها. وقال أنس: قال النبيّ ﷺ:

[٥٧٨٤] «خلق الله الحور العين من الزعفران» وقال خالد بن الوليد: سمعت النبيّ ﷺ يقول:

[٥٧٨٥] «إن الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنفلق في يده فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة» فقال له رجل: يا أبا سليمان إن هذا لعجبٌ ولا ينقص من التفاحة؟ قال: نعم كالسِّراج الذي يوقد منه سِراج آخر وسُرج ولا ينقص، والله على ما يشاء قدير. وروي عن أبن عباس رضي الله عنهما أنه قال: خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، عليها سبعون ألف حُلَّة مثل شقائق[1] النعمان، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نوراً ساطعاً كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقّة ثيابها وجلدها، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر، لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادي: هذا ثواب الأولياء ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥﴾ قال أبن عباس: باطلاً ولا كذباً.

[٥٧٨٤] أخرجه الخطيب ٧/ ٩٩ من حديث أنس ومداره على الحارث بن خليفة وهو مجهول فالخبر واهٍ.

[٥٧٨٥] لم أجده وأمارة الوضع لائحة عليه، رحم الله القرطبي فلو لم يذكر مثل هذه الأحاديث الساقطة لكان أولى، والله الموفق.

---

(١) نبات أحمر الزهر. ويعرف في البلاد الشامية بـ: شقشقيق.

واللغو ما يُلغى من الكلام، والتأثيم مصدر أثَّمْته أي قلت له أثمت. محمد بن كعب: ﴿وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ أي لا يؤثِّم بعضُهم بعضاً. مجاهد: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ شتماً ولا مأثماً. ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ «قيلاً» منصوب بـ «يَسْمَعُونَ» أو ٱستثناء منقطع أي لكن يقولون قِيلاً أو يسمعون. و ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ منصوبان بالقول؛ أي إلا أنهم يقولون الخير. أو على المصدر أي إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاماً. أو يكون وصفاً لـ «قيلا»، والسلام الثاني بدل من الأول، والمعنى إلا قيلاً يسلم فيه من اللغو. ويجوز الرفع على تقدير سلام عليكم. قال ٱبن عباس: أي يحيِّي بعضهم بعضاً. وقيل: تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقدّم، والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذي هم فيه. ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي في نبق قد خُضد شوكه أي قطع؛ قاله ٱبن عباس وغيره. وذكر ٱبن المبارك: حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال:

[٥٧٨٦] كان أصحاب النبيّ ﷺ يقولون: إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوماً؛ فقال: يا رسول الله! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذيةً، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ قال رسول الله ﷺ: «وما هي» قال: السِّدر فإن له شوكاً مؤذياً؛ فقال ﷺ: «أو ليس يقول ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ خَضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمراً يفتق الثمر منها عن ٱثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر». وقال أبو العالية والضحاك: نظر المسلمون إلى وَجٍّ (وهو وادٍ بالطائف مخصب) فأعجبهم سِدره، فقالوا: يا ليت لنا مثل هذا؛ فنزلت. قال أمية بن أبي الصَّلْت يصف الجنة:

إنّ الحدائقَ في الجِنانِ ظليلةٌ ... فيها الكَواعِبُ سِدْرُها مَخضُودُ

[٥٧٨٦] ذكره المنذري في ترغيبه ٤/٥٢٧ ـ ٥٢٨ وقال: رواه ابن أبي الدنيا وإسناده حسن. ورواه أيضاً عن سليم بن عامر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ مثله اهـ وهذا الأخير في المستدرك ٢/٤٧٦ وصححه ووافقه الذهبي.

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ وهو الموقر حملاً. وهو قريب مما ذكرنا في الخبر. سعيد بن جبير: ثمرها أعظم من القِلال. وقد مضى هذا في سورة «النجم» عند قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم: ١٤] وأن ثمرها مثل قلال هَجَر من حديث أنس عن النبي ﷺ[١].

قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ الطَّلْح شجر الموز واحده طلحة. قاله أكثر المفسرين عليّ وٱبن عباس وغيرهم. وقال الحسن: ليس هو موز ولكنه شجر له ظل بارد رطب. وقال الفراء وأبو عبيدة: شجر عظام له شوك؛ قال بعض الحداة[٢] وهو الجعدي:

بَشَّرَهَا دَليلُها وقَالاَ غداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والأَحْبَالاَ[٣]

فالطَّلْح كلّ شجر عظيم كثير الشوك. الزجاج: يجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل شوكه. وقال الزجاج أيضاً: كشجر أم غيلان له نَوْر طيّب جداً فخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا. وقال السدي: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل. وقرأ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ» بالعين وتلا هذه الآية ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨﴾ [الشعراء: ١٤٨] وهو خلاف المصحف. في رواية أنه قرىء بين يديه ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ فقال: ما شأن الطلح؟ إنما هو «وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ» ثم قال: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ فقيل له: أفلا نحوّلها؟ فقال: لا ينبغي أن يهاج القرآن ولا يحوّل. فقد ٱختار هذه القراءة ولم ير إثباتها في المصحف لمخالفة مارَسْمه مجمَع عليه. قاله القشيري. وأسنده أبو بكر الأنباري قال: حدثني أبي قال حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الحسن بن سعد عن قيس بن عُبَاد قال: قرأت عند عليّ أو قُرِئت عند عليّ ـ شَكَ مجالد ـ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ فقال عليّ رضي الله عنه: ما بال الطلح؟ أما تقرأ «وَطَلْع» ثم قال: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ فقال له: يا أمير المؤمنين أنحكّها من المصحف؟ فقال: لا لايهاج القرآن اليوم. قال أبو بكر: ومعنى هذا أنه رجع إلى ما في المصحف وعلم أنه هو الصواب، وأبطل الذي كان فرط من قوله. والمنضود المتراكب الذي قد نُضِدَ أوّله وآخره بالحمل، ليست له سُوقٌ بارزة بل هو مرصوص، والنَّضْد هو الرصّ والمنضَّد المرصوص، قال النابغة:

---

(١) مضىٰ في سورة النجم.

(٢) الحادي هو الذي يشدوا ويغني.

(٣) ثمر السلم أو ثمر العضاة عامة.

خَلَّتْ سَبيلَ أَتِيٍّ كان يَحْبِسُهُ   ورَفَّعَتْهُ إلى السِّجْفَيْنِ فالنضَدِ

وقال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة ثمر كلّه، كلّما أكل ثمرة عاد مكانها أحسنُ منها.

قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥] وذلك بالغداة وهي ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس حسب ما تقدّم بيانه هناك. والجنة كلها ظلّ لا شمس معه. قال الربيع بن أنس: يعني ظل العرش. وقال عمرو بن ميمون: مسيرة سبعين ألف سنة. وقال أبو عبيدة: تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع ممدود؛ وقال لبيد:

غَلَبَ الْعَزَاء وكنتُ غيرَ مُغَلَّبٍ   دَهرٌ طويلٌ دائِمٌ مَمْدودُ

وفي صحيح الترمذيّ وغيره من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ:

[٥٧٨٧] «وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾». ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ أي جارٍ لا ينقطع وأصل السّكب الصبّ؛ يقال: سكبه سَكْباً، والسُّكوب انصبابه؛ يقال: سَكَب سُكُوباً، وانْسَكَب انسكاباً؛ أي وماء مصبوب يجري الليلَ والنهار في غير أُخدود لا ينقطع عنهم. وكانت العرب أصحاب بادية وبلادٍ حارة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدَّلو والرِّشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا، وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار واطّرادها.

قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي في وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي لا يُحظَر عليها كثمار الدنيا. وقيل: ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي لا يُمنع من أرادها بشوك ولا بُعد ولا حائط، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها؛ قال الله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤]. وقيل: ليست مقطوعة بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ روى الترمذيّ عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى:

[٥٧٨٧] صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٨١ ومسلم ٢٨٢٦ والحميدي ١١٣١ وأحمد ٢/٤١٨ وابن أبي داود في «البعث» (٦٧) والترمذي ٢٥٢٣ وعبد الرزاق ٢٠٨٧٨ والطيالسي ٢٥٤٧ كلهم من حديث أبي هريرة.

[٥٧٨٨] ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ قال: «أرتفاعها لَكَمَا بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة» قال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشْدِين بن سعد. وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث: الفُرُش في الدرجات، وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض. وقيل: إن الفُرُش هنا كناية عن النّساء اللواتي في الجنة ولم يتقدّم لهنّ ذكر، ولكن قوله عز وجل: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ دالٌّ؛ لأنها محل النّساء؛ فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهنّ وكمالهنّ؛ دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ أي خلقناهنّ خلقاً وأبدعناهنّ إبداعاً. والعرب تسمي المرأة فِراشاً ولِباساً وإزاراً؛ وقد قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ثم قيل: على هذا هنّ الحور العين؛ أي خلقناهنّ من غير ولادة. وقيل: المراد نساء بني آدم؛ أي خلقناهنّ خلقاً جديداً وهو الإعادة؛ أي أعدناهنّ إلى حال الشباب وكمال الجمال. والمعنى أنشأنا العجوز والصَّبِية إنشاءً واحداً، وأضمرن ولم يتقدّم ذكرهنّ؛ لأنهنّ قد دخلن في أصحاب اليمين؛ ولأن الفُرُش كناية عن النساء كما تقدّم. وروي عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى:

[٥٧٨٩] ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ قال: «منهنّ البِكْر والثّيِّب». وقالت أم سلمة رضي الله تعالى عنها:

[٥٧٩٠] سألت النبيّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ فقال: «يا أمّ سلمة هنّ اللواتي قُبِضن في الدنيا عجائز شُمْطاً عُمْشاً رُمْصاً جعلهنّ الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء» أسنده النحاس عن أنس قال: حدّثنا أحمد بن عمرو قال: حدّثنا عمرو بن عليّ قال: حدّثنا أبو عاصم عن موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك رفعه:

[٥٧٩١] ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ قال: «هنّ العجائز العُمْش الرُّمْص كُنّ في الدنيا

[٥٧٨٨] ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٩٤ والطبري ٣٣٣٩٠ و ٣٣٣٩١ من حديث أبي سعيد، وضعفه الترمذي بقوله: غريب. وقال: لانعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد اهـ وهو ضعيف لكن توبع في رواية الطبري الثانية وإنما هو ضعيف لأن مداره على درّاج عن أبي الهيثم.

[٥٧٨٩] ضعيف. أخرجه الطبري ٣٣٣٩٣ من حديث سلمة بن يزيد، وإسناده ضعيف لضعف جابر الجعفي وقد ضعفه الهيثمي في المجمع ٧/ ١١٩ لأجله.

[٥٧٩٠] ضعيف. أخرجه الطبري ٣٣٤٠٢ وابن مردويه كما في تخريج الكشاف ٤/ ٤٦١ واللفظ له وأتم منه، ومداره على سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدي عامة أحاديثه مناكير.

[٥٧٩١] ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٩٦ والطبري ٣٣٣٩٤ و ٣٣٣٩٥ و ٣٣٣٩٦ و ٣٣٣٩٧ من حديث أنس، ومداره على موسى بن عبيدة الربذي ويزيد بن أبان الرقاشي وكلاهما ضعيف، وقد ضعفه الترمذي بقوله: غريب وموسى ويزيد يضعفان.

عُمْشاً رُمْصاً». وقال المسيِّب بن شريك:

[٥٧٩٢] قال النبيّ ﷺ في قوله ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ الآية قال: «هنّ عجائز الدنيا أنشأهنّ الله خلقاً جديداً كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكاراً» فلما سمعت عائشة ذلك قالت: واوجعاه! فقال لها النبيّ ﷺ: «ليس هناك وجع». ﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب. قال ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما: العُرُب العواشق لأزواجهنّ. وعن ٱبن عباس أيضاً: إنها العروب الملقة. عكرمة: الغَنجة. ٱبن زيد: بلغة أهل المدينة. ومنه قول لبيد:

وفي الخِبَاءِ عَرُوبٌ غيرُ فاحِشةٍ ... ريَّا الروادِفِ يَعْشَى دُونَها البصرُ

وهي الشَّكِلة[1] بلغة أهل مكة. وعن زيد بن أسلم أيضاً: الحسنة الكلام. وعن عكرمة أيضاً وقتادة: العُرُب المتحببات إلى أزواجهنّ، وٱشتقاقه من أعرب إذا بيّن، فالعروب تبينّ محبتها لزوجها بشكل وغُنْج وحسن كلام. وقيل: إنها الحسنة التَّبَعُّل[2] لتكون ألذ ٱستمتاعاً. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال:

[٥٧٩٣] قال رسول الله ﷺ: ﴿عُرُبًا﴾ قال: «كلامهنّ عربيّ». وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم «عُرْباً» بإسكان الراء. وضم الباقون وهما جائزان في جمع فَعُول. «أَتْرَاباً» على ميلاد واحد في الاستواء وسنّ واحدة ثلاثٍ وثلاثين سنة. يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران. وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حد الصِّبَا من النساء وٱنحطت عن الكبر. وقيل: ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ أمثالاً وأشكالاً؛ قاله مجاهد. السُّدّي: أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهنّ ولا تحاسد. ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ قيل: الحور العين للسابقين، والأتراب العرب لأصحاب اليمين.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ رجع الكلام إلى قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ أي هم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وقد مضى الكلام في معناه. وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح

[٥٧٩٢] ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٤٦١ مطولاً فقال ابن حجر رحمه الله: أخرجه الثعلبي بتمامه من طريق الحسن بن علوية القطان عن إسماعيل بن عيسى عن المسيب بن شريك مرفوعاً اهـ. والحسن بن علوية وشيخه لم أعثر لهما على ترجمة. والوهن على حديثهما بين والله أعلم.

[٥٧٩٣] ذكره السيوطي في الدر ٦/ ٢٢٦ فقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه اهـ وهذا معضل. وزاد المصنف «عن جده» وهو مرسل زين العابدين تابعي ومع ذلك ينبغي معرفة الراوي عن الإمام جعفر والله الموفق وانظر الدر ٦/ ٢٢٦ والطبري ١١/ ٦٤٣.

---

(١) ذات الدّلّ.

(٢) أي مطاوعة لزوجها محبة له.

والضحاك: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ يعني من سابقي هذه الأمة ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ من هذه الأمة من آخرها؛ يدل عليه ما روي عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ فقال النبيّ ﷺ: «هم جميعاً من أمتي»[1]. وقال الواحديّ: أصحاب الجنة نصفان نصف من الأمم الماضية ونصف من هذه الأمة. وهذا يردّه ما رواه ابن ماجه في سننه والترمذيّ في جامعه عن بُريدة بن خَصيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

[٥٧٩٤] «أهل الجنة عشرون ومائة صفٍّ ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. و «ثُلَّةٌ» رفع على الابتداء، أو على حذف خبر حرف الصفة، ومجازه: لأصحاب اليمين ثُلّتان: ثلة من هؤلاء وثلة من هؤلاء. والأوّلون الأمم الماضية، والآخرون هذه الأمة على القول الثاني.

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾ ذكر منازل أهل النار وسماهم أصحاب الشمال، لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، ثم عظّم ذكرهم في البلاء والعذاب فقال: ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ ﴾ والسموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن. والمراد هنا حرّ النار ولفحها. ﴿ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ أي ماء حار قد انتهى حره، إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفىء به الحر فيجده حميماً حارّاً في نهاية الحرارة والغليان. وقد مضى في «القتال»[2] ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد: ١٥]. ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي يفزعون من شديد السَّموم إلى الظلّ كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلاً من يَحْموم؛ أي من دخان جهنم أسود شديد السواد. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وكذلك اليَحْموم في اللغة: الشديد السواد وهو يَفْعول من الحَمّ وهو الشَّحْم المسودّ باحتراق النار. وقيل: هو مأخوذ من

[٥٧٩٤] أخرجه الترمذي ٢٥٤٩ وابن ماجه ٤٢٨٩ وأحمد ٥/ ٣٤٧ من حديث بريدة. وقال شيخنا في جامع الأصول ٩/ ٦٧٥٥ إسناده صحيح. وكرره أحمد ١/ ٤٥٣ من حديث ابن مسعود اهـ.

---

(١) مضىٰ برقم ٥٧٨٠.

(٢) أي سورة محمد، ﷺ.

الحُمَم وهو الفحم. وقال الضحاك: النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود. وعن ٱبن عباس أيضاً: النار سوداء. وقال ٱبن زيد: اليَحْموم جبل في جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار. ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ بل حار لأنه من دخان شفير جهنم. ﴿وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ عذب؛ عن الضحاك. وقال سعيد بن المسيّب: ولا حسن منظره، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم. وقيل: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي من النار يُعذَّبون بها؛ كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي إنما ٱستحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا في الدنيا متنعمين بالحرام. والمتَرف المنعَّم؛ عن ٱبن عباس وغيره. وقال السديّ: «مُتْرَفِينَ» أي مشركين. ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ أي يقيمون على الشرك؛ عن الحسن والضحاك وٱبن زيد. وقال قتادة ومجاهد: الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه. الشعبي: هو اليمين الغَمُوس وهي من الكبائر؛ يقال: حَنِث في يمينه أي لم يَبَرَّها ورجع فيها. وكانوا يقسمون أن لا بعث، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حِنْثهم؛ قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. وفي الخبر: كان يَتحنَّث في حِرَاء[1]؛ أي يفعل ما يسقط عن نفسه الْحِنث وهو الذنب. ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا﴾ هذا ٱستبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له؛ فقال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من آبائكم ﴿وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ منكم ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ يريد يوم القيامة. ومعنى الكلام القسَم ودخول اللام في قوله تعالى: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ هو دليل القسم في المعنى؛ أي إنكم لمجموعون قسَماً حقاً خلاف قسمكم الباطل ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الهدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ بالبعث ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ وهو شجر كريه المنظر، كريه الطّعم، وهي التي ذكرت في سورة «والصافات». ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي من الشجرة؛ لأن المقصود من الشجر شجرة. ويجوز أن تكون «من» الأولى زائدة، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً كأنه قال: ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ طعاماً. وقوله: ﴿مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ صفة لشجر، والصفة إذا قدَّرت الجار زائداً نصبت على المعنى، أو جررتَ على اللفظ، فإن قدرت المفعول محذوفاً لم تكن الصفة إلا في موضع جر.

قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي على الزقوم أو على الأكل أو على الشجر؛ لأنه يذكر ويؤنث. ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ وهو الماء المغليّ الذي قد ٱشتدّ غليانه وهو صديد أهل النار. أي يورثهم حَرَّ ما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشاً فيشربون ماء يظنون أنه يزيل العطش فيجدونه حميماً مُغْلًى.

---

(١) هو بعض حديث بدء الوحي تقدم.

قوله تعالى: ﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ قراءة نافع وعاصم وحمزة «شُرْبَ» بضم الشين. الباقون بفتحها لغتان جيدتان؛ تقول العرب: شرِبت شُرْباً وشَرْباً وشِرْباً وشُرُباً بضمتين. قال أبو زيد: سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها، والفتح هو المصدر الصحيح؛ لأن كل مصدر من ذوات الثلاثة فأصله فَعْل، ألا ترى أنك ترده إلى المرة الواحدة؛ فتقول: فَعْلة نحو شَرْبة وبالضم الاسم. وقيل: إن المفتوح والاسم مصدران، فالشَّرْب كالأكل، والشُّرب كالذُّكْر، والشِّرْب بالكسر المشروب كالطِّحْن المطحون. والهِيم الإبل العِطاش التي لا تَرْوى لداء يصيبها؛ عن ابن عباس وعِكرمة وقَتادة والسُّديّ وغيرهم؛ وقال عكرمة أيضاً: هي الإبل المِراض. الضحاك: الهيم الإبل يصيبها داء تعطش منه عطشاً شديداً، واحدها أَهْيَم والأنثى هَيْماء. ويقال لذلك الداء الهُيَام؛ قال قيس بن الملوَّح:

يقال به داء الهُيَامِ أصابه ... وقد علِمت نفسي مكانَ شِفائِها

وقوم هِيم أيضاً أي عِطاش، وقد هاموا هُيَاماً. ومن العرب من يقول في الإبل: هائم وهائمة والجمع هيم؛ قال لَبيد:

أَجَزْتُ إلى معارِفِها بِشُعْثٍ ... وأَطْلاَحٍ مِن العِيدِيِّ هِيم[1]

وقال الضحاك والأخفش وابن عيينة وابن كيسان: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل. وروي أيضاً عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تَرْوى بالماء. المهدوي: ويقال لكل ما لا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيماء. وفي الصحاح: والهُيَام بالضم أشد العطش. والهُيَام كالجنون من العشق. والهُيَام داء يأخذ الإبل فتهيم في الأرض لا ترعى. يقال: ناقة هَيْماء. والهيماء أيضاً المفازة لا ماء بها. والهَيَام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك أن يسيل من اليد لِلينه والجمع هِيم مثل قَذَالٍ وقُذُلٍ. والهِيَام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان، وناقة هيماء مثل عطشان وعطشى.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ أي رزقهم الذي يُعدّ لهم، كالنزل الذي يعدّ للأضياف تكرمةً لهم، وفيه تهكُّم؛ كما في قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [آل عمران: ٢١] وكقول أبي السّعد الضَّبيّ:

وكنا إذا الْجَبَّارُ بالجيشِ ضَافَنَا ... جعلنا القَنَا والمرهفاتِ له نُزْلاَ

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبي عمرو «هَذَا نُزْلُهُمْ» بإسكان الزاي؛ وقد مضى في آخر «آلا عمران» القول فيه. ﴿ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ يوم الجزاء، يعني في جهنم.

---

(١) شعث: رجال ساءت أحوالهم من وعثاء السفر. الأطلاح: إبل مهازيل.

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ ﴾ أي فهلّا تصدّقون بالبعث؟ لأن الإعادة كالابتداء. وقيل: المعنى نحن خلقنا رزقكم فهلّا تصدّقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا؟

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ﴾ أي ما تصبّونه من المَنِيّ في أرحام النساء. ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾ أي تصوّرون منه الإنسان ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ ﴾ المقدّرون المصوّرون. وهذا ٱحتجاج عليهم وبيان للآية الأولى؛ أي إذا أقررتم بأنّا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث. وقرأ أبو السَّمّال ومحمد بن السَّمَيْقَع وأشهب العقيلي: «تَمْنُونَ» بفتح التاء وهما لغتان أَمْنَى ومَنَى؛ وأَمْذَى ومَذَى، يُمْنِي ويَمْنِي ويُمْذِي ويَمْذِي. الماوردي: ويحتمل أن يختلف معناهما عندي؛ فيكون أمْنى إذا أَنزل عن جماع، ومَنَى إذا أنزل عن الاحتلام. وفي تسمية المنيّ مَنِيًّا وجهان: أحدهما لإمنائه وهو إراقته. الثاني لتقديره، ومنه المنَا الذي يوزن به لأنه مقدار لذلك، كذلك المنيّ مقدار صحيح لتصوير الخلقة.

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ ٱحتجاج أيضاً، أي الذي يقدر على الإماتة يقدر على الخلق، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث. وقرأ مجاهد وحُمَيد وٱبن مُحَيْصن وٱبن كَثِير «قَدَرْنَا» بتخفيف الدال. الباقون بالتشديد، قال الضحاك: أي سوينا بين أهل السماء وأهل الأرض. وقيل: قضينا. وقيل: كتبنا، والمعنى متقارب؛ فلا أحد يبقى غيره عز وجل. ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ أي إن أردنا أن نبدل أمثالكم لم يسبقنا أحد؛ أي لم يغلبنا. ﴿ وَمَا نَحْنُ ﴾ معناه بمغلوبين. وقال الطبريّ: المعنى نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين في آجالكم؛ أي لا يتقدّم متأخر ولا يتأخر متقدّم. ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ ﴾ من الصور والهيئات. قال الحسن: أي نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم. وقيل: المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، فيجمَّل المؤمنُ ببياض وجهه، ويُقبَّح الكافرُ بسواد وجهه. سعيد بن جُبير: قوله تعالى: ﴿ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ ﴾ يعني في حواصل طير سود تكون بِبَرهُوت كأنها الخطاطيف، وبَرَهُوت وادٍ في اليمن. وقال مجاهد: ﴿ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ ﴾ في أي خلق شئنا. وقيل: المعنى ننشئكم في عالم لا تعلمون، وفي مكان لا تعلمون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي إذ خُلِقتم من نُطْفة ثم من عَلَقة ثم من مُضْغة ولم تكونوا شيئاً؛ عن مجاهد وغيره. قتادة والضحاك: يعني خلق آدم عليه السلام. ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي فهلاّ تذكرون. وفي الخبر: عجباً كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجباً للمصدّق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار. وقراءة العامة ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ بالقصر. وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو: «النَّشَاءَةَ» بالمد؛ وقد مضى في «العنكبوت» بيانه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ هذه حجة أخرى؛ أي أخبروني عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البَذر، أنتم تنبتونه وتحصّلونه زرعاً فيكون فيه السُّنْبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك؟ وإنما منكم البذر وشّق الأرض، فإذا أقررتم بأن إخراج السُّنْبل من الحبّ ليس إليكم، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم؟! وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى؛ لأن الحرث فعلهم ويجري على ٱختيارهم، والزرع من فعل الله تعالى وينبت على ٱختياره لا على ٱختيارهم. وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٥٧٩٥] «لا يقولنّ أحدكم زرعتُ وليقلْ حرثتُ فإن الزارع هو الله» قال أبو هريرة: ألم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾. والمستحب لكل من يُلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ الآية، ثم يقول: بل الله الزارع والمنبت والمبلغ، اللهم صلّ على محمد، وٱرزقنا ثمره، وجنّبنا ضرره، وٱجعلنا لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبارك لنا فيه يا ربّ العالمين. ويقال: إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات: الدود والجراد وغير ذلك؛ سمعناه من ثقة وجُرِّب فوُجِد كذلك. ومعنى ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي تجعلونه زرعاً. وقد يقال: فلان زرّاع كما يقال حراث؛ أي يفعل ما يؤول إلى أن يكون زرعاً يعجب الزرّاع. وقد يطلق لفظ الزرع على بذر الأرض وتكريبها تجوُّزاً.

[٥٧٩٥] أخرجه البزار ١٢٨٩ والطبري ٣٣٤٩٢ وصححه ابن حبان ٥٧٢٣ وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٦٧ والبيهقي ٦/ ١٣٨ كلهم من حديث أبي هريرة وإسناده حسن فيه مسلم بن أبي مسلم الجرمي وثقه ابن حبان والخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٠ وبقية رجاله ثقات.

قلت: فهو نهي إرشاد وأدب لا نهي حظر وإيجاب؛ ومنه قوله عليه السلام:

[٥٧٩٦] «لا يقولنَّ أحدكم عبدي وأمتي وليقل غلامي وجاريتي وفَتاي وفَتاتي» وقد مضى في «يوسف» القول فيه. وقد بالغ بعض العلماء فقال: لا يقل حرثت فأصبت، بل يقل: أعانني الله فحرثت، وأعطاني بفضله ما أصبت. قال الماوردي: وتتضمن هذه الآية أمرين؛ أحدهما ـ الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم. الثاني ـ البرهان الموجب للاعتبار؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره، وٱنتقاله إلى ٱستواء حاله من العَفَن والتتريب حتى صار زرعاً أخضر، ثم جعله قويًّا مشتدًّا أضعاف ما كان عليه؛ فهو بإعادة من أمات أخفّ عليه وأقدر؛ وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفِطر السليمة. ثم قال ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ أي متكسراً يعني الزرع. والحُطام الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء؛ فنبه بذلك أيضاً على أمرين: أحدهما ـ ما أولاهم به من النِّعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه. الثاني ـ ليعتبروا بذلك في أنفسهم؛ كما أنه يجعل الزرع حطاماً إذا شاء، وكذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي تعجبون بذهابها وتندمون مما حل بكم؛ قاله الحسن وقتادة وغيرهما. وفي الصحاح: وتفكّه أي تعجّب، ويقال: تندّم، قال الله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي تندمون. وتفكهت بالشيء تمتعت به. وقال يمان: تندمون على نفقاتكم؛ دليله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. وقال عِكرمة: تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله التي أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم في زرعكم. ٱبن كَيْسان: تحزنون؛ والمعنى متقارب. وفيه لغتان: تفكَّهون وتَفَكَّنُون: قال الفراء: والنون لغة عُكْل. وفي الصحاح: التفكّن التندّم على ما فات. وقيل: التفكّه التكلم فيما لا يعنيك، ومنه قيل للمزاح فُكَاهة بالضم؛ فأما الفَكاهة بالفتح فمصدر فكِه الرجلُ بالكسر فهو فكِهٌ إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحاً. وقراءة العامة ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بفتح الظاء. وقرأ عبد الله «فَظِلْتمْ» بكسر الظاء ورواها هارون عن حسين عن أبي بكر. فمن فتح فعلى الأصل، والأصل ظَلَلْتُمْ فحذف اللام الأولى تخفيفاً، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها. ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وقرأ أبو بكر والمفضَّل «أَئِنَّا» بهمزتين على الاستفهام، ورواه عاصم عن زِرّ بن حُبَيش. الباقون بهمزة واحدة على الخبر؛ أي يقولون ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي معذبون؛ عن ٱبن عباس وقَتادة قالا: والغرام العذاب؛ ومنه قول ٱبن المحلِّم:

وثقت بأن الحفظ منّي سجيّةٌ ... وأن فؤادي مُتْبَلٌ بك مغرمُ

[٥٧٩٦] تقدم برقم: ٤/ ١٢٤ و ٥/ ١٣٩.

وقال مجاهد وعِكرمة: لمولع بنا؛ ومنه قول النَّمِر بن تَوْلَب:

سَـــلاَ عـــن تَـــذكُّــره تُكْتَمَـــا وكـــان رَهينـــاً بهـــا مُغْـــرَمَـــا

يقال: أغرم فلان بفلانة، أي أولع بها ومنه الغرام وهو الشر اللازم. وقال مجاهد أيضاً: لملقون شرًّا. وقال مقاتل بن حيان: مهلكون. النحاس: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ مأخوذ من الغَرَام وهو الهلاك؛ كما قال[1]:

يـــومُ النِّسَـــارِ ويـــومُ الجِفَـــا رِ كَـانَـا عَـذَاباً وكـانَـا غَـرَامَـا[2]

الضحاك وابن كيسان: هو من الغُرْم، والمُغْرَم الذي ذهب ماله بغير عوض؛ أي غِرمنا الحَبّ الذي بذرناه. وقال مُرَّة الهَمْداني: محاسبون. ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي حرمنا ما طلبنا من الريع. والمحروم الممنوع من الرزق. والمحروم ضد المرزوق وهو المحارِف في قول قتادة. وعن أنس:

[٥٧٩٧] أن النبيّ ﷺ مرّ بأرض الأنصار فقال: «ما يمنعكم من الحرث» قالوا: الجدوبة؛ فقال: «لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر» ثم تلا ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قلت: وفي هذا الخبر والحديث الذي قبله ما يصحح قول من أدخل الزارع في أسماء الله سبحانه، وأباه الجمهور من العلماء، وقد ذكرنا ذلك في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ لتحيوا به أنفسكم، وتسكنوا به عطشكم، لأن الشراب إنما يكون تبعاً للمطعوم، ولهذا جاء الطعام مقدماً في الآية قبلُ، ألا ترى أنك تسقي ضيفك بعد أن تطعمه. الزمخشري: ولو عكست قعدت تحت قول أبي العلاء:

[٥٧٩٧] لم أجده بعدُ وهو غريب جداً والظاهر أنه موضوع.

---

(١) هو بشر بن أبي خازم.

(٢) النّسار: موضع. ومثله الجفار.

إذا سُقِيَتْ ضُيوفُ الناسِ مَحْضاً ... سَقَوْا أضيافَهم شَبِماً زُلالاً

وسُقِي بعضُ العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثَمِيلة. ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أي السَّحاب، الواحدة مُزْنة؛ فقال الشاعر:

فنحنُ كماءِ الْمُزْنِ ما في نِصَابِنَا ... كَهَامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيلُ

وهذا قول ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما أن المُزْن السَّحاب. وعن ٱبن عباس أيضاً والثوري: المُزْن السّماء والسّحاب. وفي الصّحاح: أبو زيد: المُزْنة السّحابة البيضاء والجمع مُزْن، والمُزْنة المَطْرَة؛ قال[1]:

ألَم تَرَ أن الله أَنْزَلَ مُزْنَةً ... وعُفْرُ الظِّبَاءِ في الكِنَاسِ تَقَمَّعُ

﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۝٦٩﴾ أي فإذا عرفتم بأني أنزلته فَلِمَ لا تشكروني بإخلاص العبادة لي؟ ولِمَ تنكرون قدرتي على الإعادة؟. ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ أي ملحاً شديد الملوحة؛ قاله ٱبن عباس. الحسن: مرًّا قُعَاعاً[2] لا تنتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيرهما. ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلاّ تشكرون الذي صنع ذلك بكم.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝٧١﴾ أي أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقَدْح من الشجر الرَّطْب ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ يعني التي تكون منها الزِّناد وهي المَرْخُ والعَفَار؛ ومنه قولهم: في كلّ شجرٍ نار، وٱستَمْجدَ المَرْخُ والعَفَار؛ أي ٱستكثر منها، كأنهما أخذا من النار ما هو حَسْبهما. ويقال: لأنهما يُسرعان الْوَرْيَ. يقال: أَوْرَيت النار إذا قدحتها. ووَرَى الزَّنْدُ يَرِي إذا ٱنقدح منه النار. وفيه لغة أخرى: ووَرِي الزَّنْدُ يَرِي بالكسر فيهما. ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ۝٧٢﴾ أي المخترعون الخالقون؛ أي فإذا عرفتم قدرتي فٱشكروني ولا تنكروا قدرتي على البعث.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ يعني نار الدنيا موعظة للنار الكبرى؛ قاله قتادة. ومجاهد: تبصرة للناس من الظلام. وصح عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٥٧٩٨] «إن ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»

[٥٧٩٨] صحيح. أخرجه مالك ٢/ ٩٩٤ ومسلم ٢٨٤٣ وعبد الرزاق ٢٠٨٩٧ وأحمد ٢/ ٣١٣ والترمذي ٢٥٨٩ والدارمي ٢/ ٣٤٠ وابن حبان ٧٤٦٢ كلهم من حديث أبي هريرة.

---

(١) هو أوس بن حجر.

(٢) هو الماء الشديد المرارة والملوحة.

فقالوا يا رسول الله: أن كانت لكافية؛ قال: «فإنها فضَلَت عليها بتسعة وستين جُزْءاً كلّهنّ مثل حَرِّها». ﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ٧٣﴾ قال الضحاك: أي منفعة للمسافرين؛ سمّوا بذلك لنزولهم القَوَى وهو القفر. الفراء: إنما يقال للمسافرين: مُقْوِين إذا نزلوا القِيّ وهي الأرض القفر التي لا شيء فيها. وكذلك القَوَى والقَوَاء بالمدّ والقصر، ومنزلٌ قَواء لا أنيس به؛ يقال: أَقْوت الدارُ وقَوِيت أيضاً أي خلت من سكانها؛ قال النابغة:

يـا دارَ مَيَّـةَ بـالْعَلْيَـاءِ فَـالسَّنَـدِ ... أَقْوَتْ وطال عَليها سَالفُ الأَمَدِ

وقال عنترة:

حُيِّيـتَ مِـنْ طَلَـلٍ تَقَـادَمَ عَهْـدُهُ ... أَقْـوَى وَأَقْفَـرَ بَعْـدَ أُمِّ الْهَيْثَـمِ

ويقال: أَقْوَى أي قَوِي وقَوِي أصحابه، وأَقوى إذا سافر أي نزل القَوَاء والقِيّ. وقال مجاهد: ﴿لِّلۡمُقۡوِينَ ٧٣﴾ المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها. وقال ٱبن زيد: للجائعين في إصلاح طعامهم. يقال: أقويت منذ كذا وكذا، أي ما أكلت شيئاً، وبات فلان القَوَاء وبات القفرَ إذا بات جائعاً على غير طُعْم؛ قال الشاعر[1]:

وإنِّي لأختارُ القَوَى طَاوِيَ الحَشَى ... محَـافَظَـةً مِـن أَنْ يقـالَ لَئِيـمُ

وقال الربيع والسدي: ﴿ٱلۡمُقۡوِينَ﴾ المنزلين الذين لا زناد معهم؛ يعني ناراً يوقدون فيختبزون بها؟ ورواه العوفي عن ٱبن عباس. وقال قُطْرب: المُقْوِي من الأضداد يكون بمعنى الفقير ويكون بمعنى الغني؛ يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله. المهدوي: والآية تصلح للجميع؛ لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير. وحكى الثعلبي أن أكثر المفسرين على القول الأوّل. القشيري: وخص المسافر بالانتفاع بها لأن ٱنتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم؛ لأن أهل البادية لا بد لهم من النار يوقدونها ليلاً لتهرب منهم السّباع، وفي كثر من حوائجهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ أي فنزّه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد، والعجز عن البعث.

قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾.

فيه سبع مسائل:

---

(١) هو حاتم طيّ.

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ «لا» صلة في قول أكثر المفسرين، والمعنى فأقسم؛ بدليل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾. وقال الفراء: هي نفي، والمعنى ليس الأمر كما تقولون، ثم ٱستأنف ﴿أُقۡسِمُ﴾. وقد يقول الرجل: لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفي اليمين، بل يريد به نفي كلام تقدّم. أي ليس الأمر كما ذكرت، بل هو كذا. وقيل: «لا» بمعنى أَلاَ للتنبيه كما قال[1]:

* أَلاَ عِمْ صَبَاحاً أَيُّها الطَّلَلُ الْبَالِي *

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا. وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر «فَلأُقْسِمُ» بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حالٍ ويقدر مبتدأ محذوف، التقدير: فلأنا أقسم بذلك. ولو أريد به الاستقبال للزمت النون، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يراد به الاستقبال وهو شاذ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ مواقع النجوم مساقطها ومغاربها في قول قتادة وغيره. عطاء بن أبي رَبَاح: منازلها. الحسن: ٱنكدارها وٱنتثارها يوم القيامة. الضحاك: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطِروا قالوا مُطِرنا بنَوْء كذا. الماوردي: ويكون قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ مستعملاً على حقيقته من نفي القسم. القشيري: هو قسم، ولله تعالى أن يقسم بما يريد، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة.

قلت: يدل على هذا قراءة الحسن «فَلأُقْسِمُ» وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته في غير موضع من كتابه. وقال ٱبن عباس: المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوماً، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العلياء إلى السَّفَرة الكاتبين، فنجّمه السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام عشرين سنة، فهو ينزله على الأحداث من أمته؛ حكاه الماوردي عن ٱبن عباس والسّدي. وقال أبو بكر الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا حجّاج بن المِنهال حدثنا همّام عن الكلبي عن أبي صالح عن ٱبن عباس قال: نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل إلى الأرض نجوماً، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾. وحكى الفراء عن ٱبن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. وقرأ حمزة والكِسائي «بِمَوْقعِ» على التوحيد، وهي قراءة عبد الله بن مسعود والنَّخَعي والأعمش

(١) هو امرؤ القيس.

وٱبن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب. الباقون على الجمع؛ فمن أفرد فلأنه ٱسم جنس يؤدي الواحد فيه عن الجمع، ومن جمع فلاختلاف أنواعه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ قيل: إن الهاء تعود على القرآن؛ أي إن القرآن لقسم عظيم، قاله ٱبن عباس وغيره. وقيل: ما أقسم الله به عظيم ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ ذكر المقسم عليه؛ أي أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم، ليس بسحر ولا كهانة، وليس بمفترى، بل هو قرآن كريم محمود، جعله الله تعالى معجزة لنبيه ﷺ، وهو كريم على المؤمنين، لأنه كلام ربّهم، وشفاء صدورهم؛ كريم على أهل السماء؛ لأنه تنزيل ربّهم ووَحْيه. وقيل: ﴿كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي غير مخلوق. وقيل: ﴿كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور. وقيل: لأنه يُكَرِّم حافظه، ويُعظِّم قارئه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ مصون عند الله تعالى. وقيل: مكنون محفوظ عن الباطل. والكتاب هنا كتاب في السماء؛ قاله ٱبن عباس. وقال جابر بن زيد وٱبن عباس أيضاً: هو اللوح المحفوظ. عِكرمة: التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن ومن ينزل عليه. السّديّ: الزبور. مجاهد وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ٱختلف في معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ هل هو حقيقة في المسّ بالجارحة أو معنًى؟ وكذلك ٱختلف في «الْمُطَهَّرُونَ» من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جُبير: لا يمسّ ذلك الكتاب إلا المطهَّرون من الذنوب وهم الملائكة. وكذا قال أبو العالية وابن زيد: إنهم الذين طُهِّروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم؛ فجبريل النازل به مُطهَّر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهَّرون. الكلبيّ: هم السَّفَرة الكرام البرَرَة. وهذا كله قول واحد، وهو نحو ما ٱختاره مالك حيث قال: أحسن ما سمعت في قوله ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أنها بمنزلة الآية التي في «عَبَسَ وَتَوَلَّى»: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٢ ـ ١٦] يريد أن المطهَّرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة «عبس». وقيل: معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ لا ينزل به ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء. وقيل: لا يمسّ اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهرّون. وقيل: إن إسرافيل هو الموكّل بذلك؛ حكاه القشيري. ٱبن العربي: وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله في وقت ولا تصل إليه بحال، ولو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه مجال. وأما من قال: إنه الذي بأيدي الملائكة في الصحف فهو قول محتمل؛ وهو ٱختيار مالك. وقيل: المراد بالكتاب

المصحف الذي بأيدينا؛ وهو الأظهر. وقد روى مالك وغيره أن في كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه له رسول الله ﷺ ونسخته:

[٥٧٩٩] (من محمد النبيّ إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلَال والحرث بن عبد كُلَال ونُعَيْم بن عبد كُلَال قَيْل ذي رُعَين ومَعَافر وهَمْدان أما بعد) وكان في كتابه: ألا يمسّ القرآن إلا طاهر. وقال ابن عمر:

[٥٨٠٠] قال النبيّ ﷺ: «لا تمسّ القرآن إلا وأنت طاهر». وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ فقام واغتسل وأسلم[١]. وقد مضى في أول سورة «طه». وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ من الأحداث والأنجاس. الكلبي: من الشرك. الربيع بن أنس: من الذنوب والخطايا. وقيل: معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ لا يقرؤه ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ إلا الموحِّدون؛ قاله محمد بن فضيل وعبدة. قال عِكرمة: كان ابن عباس ينهى أن يُمكّن أحد من اليهود والنصارى من قراءة القرآن. وقال الفراء: لا يجد طعمَه ونفعَه وبركته إلا المطهرون؛ أي المؤمنون بالقرآن. ابن العربي: وهو اختيار البخاريّ؛ قال النبيّ ﷺ:

[٥٨٠١] «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيًّا». وقال الحسين بن الفضل: لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهَّره الله من الشرك والنفاق. وقال أبو بكر الورّاق: لا يوفق للعمل به إلا السّعداء. وقيل: المعنى لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون. ورواه معاذ[٢] عن النبيّ ﷺ. ثم قيل: ظاهر الآية خبر عن الشرع؛ أي لا يمسّه إلا المطهّرون شرعاً، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع؛ وهذا اختيار القاضي أبي بكر بن العربي. وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة». المهدويّ: يجوز أن يكون أمراً وتكون ضمة السين ضمة إعراب.

[٥٧٩٩] أخرجه مالك مرسلاً ١٩٩/١ وقال ابن عبد البر: لاخلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث وقد روي مسنداً من وجه صالح وهو كتاب مشهور عند أهل السير معروف عند أهل العلم معرفة يستغنى بها في شهرتها عن الإسناد اهـ. وله شواهد أخرى صححه الألباني لأجلها راجع الإرواء (١٢٢) وقد صححه أحمد وإسحق بن راهويه

[٥٨٠٠] أخرجه البيهقي ٨٨/١ والدارقطني ٢١/١ والطبراني كما في المجمع ٢٧٦/١ من حديث ابن عمر وقال الهيثمي: رجال الطبراني موثوقون اهـ وله شواهدتقويه راجع المجمع.

[٥٨٠١] مضى برقم ٣١٧/٦.

---

(١) تقدم في أول سورة طَه.

(٢) ذكره المصنف تبعاً للماوردي في تفسيره ٤/ ٤٦٤ ولم يجده مخرجه وبحثت عنه فلم أجده أيضاً ولعل الماوردي أخذه عن الثعلبي والله أعلم، والأشبه أن يكون من كلام بعض السلف.

ويجوز أن يكون نهياً وتكون ضمة السين ضمة بناء والفعل مجزوم.

السادسة: وٱختلف العلماء في مسّ المصحف على غير وضوء؛ فالجمهور على المنع من مسّه لحديث عمرو بن حزم[1]. وهو مذهب عليّ وٱبن مسعود وسعد بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد وعطاء والزّهري والنَّخعيّ والحكم وحمّاد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي. واختلفت الرواية عن أبي حنيفة؛ فروي عنه أنه يمسّه المحدِث، وقد روي هذا عن جماعة من السَّلف منهم ٱبن عباس والشعبي وغيرهما. وروي عنه أنه يمسّ ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه، وأما الكتاب فلا يمّسه إلا طاهر. ٱبن العربي: وهذا إن سلَّمه مما يقوي الحجة عليه؛ لأن حريم الممنوع ممنوع. وفيما كتبه النبيّ ﷺ لعمرو بن حزم أقوى دليل عليه. وقال مالك: لا يحمله غير طاهر بِعلاَقة ولا على وِسادة. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك. ولم يمنع من حَمْله بِعلاَقة أو مسّه بحائل. وقد روي عن الحكم وحماد وداود بن عليّ أنه لا بأس بحمله ومسّه للمسلم والكافر طاهراً أو محدِثاً، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حمله. وٱحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبيّ ﷺ إلى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه. وفي مس الصبيان إياه على وجهين: أحدهما المنع ٱعتباراً بالبالغ. والثاني الجواز؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأنّ تعلمه حال الصغر؛ ولأن الصبيّ وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدِثاً.

السابعة: قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ أي منزل؛ كقولهم: ضَرْبُ الأميرِ ونَسْج اليمنِ. وقيل: ﴿تَنزِيلٌ﴾ صفة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾. وقيل: أي هو تنزيل.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٨٧﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾ أي مكذبون؛ قاله ٱبن عباس وعطاء وغيرهما. والمُدْهِن الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شبّه بالدُّهن في سهوله ظاهره. وقال مقاتل بن سليمان وقتادة: مُدْهِنون كافرون؛ نظيره: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩]. وقال المؤرِّج: المدهِن المنافق أو الكافر الذي يُلين جانبه ليُخْفِي كفره، والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر والنفاق، وأصله اللِّين، وأن يُسِرَّ

(١) تقدم برقم ٥٧٩٩.

خلاف ما يظهر؛ وقال أبو قيس بن الأَسْلَت:

الحَـــزْمُ والقُـــوَّةُ خيــرٌ مِـــنَ ... الإدهـــان والفَهَّـــةِ والهَـــاع[1]

وأدهن وداهن واحد. وقال قوم: داهنت بمعنى واريت وأدهنت بمعنى غَشَشْتَ. وقال الضحاك: «مُدْهِنُونَ» معرضون. مجاهد: ممالئون الكفار على الكفر به. ٱبن كيسان: المدهن الذي لا يعقل ما حقّ اللَّهِ عليه ويدفعه بالعلل. وقال بعض اللغويين: مدهنون تاركون للجزم في قبول القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ قال ٱبن عباس: تجعلون شكركم التكذيب. وذكر الهيثم بن عديّ: أن من لغة أزد شنوءة ما رِزق فلان؟ أي ما شكره. وإنما صلح أن يوضع ٱسم الرزق مكان شكره؛ لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى. فقيل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقاً لكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ بالرزق أي تضعون الكذب مكان الشكر؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أي لم يكونوا يُصلُّون ولكنهم كانوا يصفِّرون ويُصفِّقون مكان الصلاة. ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغي أن يروه من قبل الوسائط التي جرت العادة بأن تكن أسباباً، بل ينبغي أن يروه من قِبل الله تعالى، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمة، أو صبرٍ إن كان مكروهاً تعبّداً له وتذلُّلاً.

[٥٨٠٢] وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قرأ ﴿وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ حقيقة. وعن ٱبن عباس أيضاً: أن المراد به الاستسقاء بالأنواء، وهو قول العرب: مُطِرنا بنَوْء كذا؛ رواه[2] عليّ بن أبي طالب عن النبيّ ﷺ. وفي صحيح مسلم عن ٱبن عباس قال:

[٥٨٠٣] مُطِر الناسُ على عهد النبيّ ﷺ فقال النبيّ ﷺ: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافرٌ قالوا هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صَدَق نَوْءُ كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ ـ حتى بلَغ ـ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ

[٥٨٠٢] المرفوع ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٩٥ والطبري ٣٣٥٥٥ و٣٣٥٥٦ من حديث علي، ومداره على عبد الأعلى الثعلبي وهو ضعيف. وقد أسنده الطبري ٣٣٥٥٤ و ٣٣٥٦٢ عن الثوري عن عبد الأعلى الثعلبي نفسه ولم يرفعه وكذا ذكر الترمذي وهو الأشبه. فالثوري أحفظ من إسرائيل.

[٥٨٠٣] صحيح. أخرجه مسلم (٧٣) والواحدي ٧٨٢ من حديث ابن عباس وقد تقدم.

---

(١) الفهة: العي. والهاع هنا: سوء الحرص مع ضعف.

(٢) هو تمام الحديث المتقدم.

﴿تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾. وعنه أيضاً:

[٥٨٠٤] أن النبيّ ﷺ خرج في سفر فعطشوا فقال النبيّ ﷺ: «أرأيتم إن دعوت الله لكم فسُقِيتم لعلكم تقولون هذا المطر بِنَوْء كذا» فقالوا: يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء. فصلّى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمُطِروا؛ فمرّ النبيّ ﷺ ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سُقِينا بنَوْء كذا، ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي شكركم لله على رزقه إياكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ بالنعمة وتقولون سُقِينا بنَوْء كذا؛ كقولك: جعلت إحساني إليك إساة منك إليّ، وجعلت إنعامي لديك أن اتخذتني عدوًّا. وفي الموطأ عن زيد بن خالد الجُهَنيّ أنه قال:

[٥٨٠٥] صلىّ بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيْبِية على إثرِ سماء كانت من الليل، فلما انصرف أَقْبَلَ على الناس وقال: «أتدرون ماذا قال ربكم» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب فأما من قال مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بي». قال الشافعي رحمه الله: لا أحبّ أحداً أن يقول مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا، وإن كان النَّوْء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يمطر ولا يحبس شيئاً من المطر، والذي أحبّ أن يقول: مُطِرنا وقت كذا كما تقول مُطِرنا شهر كذا، ومن قال: مُطِرنا بنَوْء كذا، وهو يريد أن النَّوْء أنزل الماء، كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر، حلال دمه إن لم يتب. وقال أبو عمر بن عبد البر: وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكياً عن الله سبحانه: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» فمعناه عندي على وجهين: أما أحدهما فإن المعتقِد بأن النَّوْء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشىء للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفراً صريحاً يجب استتابته عليه وقتله إن أبى لنبذه الإسلام ورده القرآن. والوجه الآخر أن يعتقد أن النَّوْء يُنزِل الله به الماءَ، وأنه سبب الماء على ما قدّره الله وسبق في علمه؛ وهذا وإن كان وجهاً مباحاً، فإن فيه أيضاً كفراً بنعمة الله عز وجل، وجهلاً بلطيف حكمته في أنه ينزل الماء متى شاء، مرة بنَوْء كذا، ومرة بنَوء كذا، وكثيراً ما ينوء النَّوْء فلا ينزل معه شيء من الماء، وذلك من الله تعالى لا من النَّوْء. وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مُطِر: مطِرنا بنَوْءِ الفتح؛ ثم يتلو:

[٥٨٠٤] ذكره الواحدي ٧٨٣ بقوله روي من دون إسناد. ونسبه السيوطي في الدر ٦/١٦٢لابن مردويه عن ابن عباس به. والله أعلم.

[٥٨٠٥] صحيح. أخرجه مالك ١/١٩٢ وأحمد ٤/١١٧ والبخاري ٨٤٦ و ١٠٣٨ ومسلم ٧١ من حديث زيد بن خالد وقد تقدم.

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ قال أبو عمر: وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ: «مُطِرنا بفضل الله ورحمته». ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين ٱستسقى به: يا عمّ رسولِ الله ﷺ بقي من نَوْء الثريا؟ فقال العباس: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعاً بعد سقوطها. فما مضت سابعة حتى مطروا؛ فقال عمر: الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته[1]. وكأنّ عمر رحمه الله قد علم أن نَوْء الثُّريا وقت يُرْجى فيه المطر ويؤمَّل فسأله عنه أخَرج أم بقيت منه بقية؟. وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أمية أن النبيّ ﷺ سمع رجلاً في بعض أسفاره يقول:

[٥٨٠٦] مُطرنا ببعض عَثَانين الأسد؛ فقال رسول الله ﷺ: «كذبت بل هو سُقْيا الله عز وجل» قال سفيان: عَثَانين الأسد الذراع والجبهة. وقراءة العامة ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ من التكذيب. وقرأ المفضّل عن عاصم ويحيى بن وَثّاب «تَكْذِبُونَ» بفتح التاء مخففاً. ومعناه ما قدمناه من قول من قال: مطِرنا بنَوْء كذا. وثبت من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

[٥٨٠٧] «ثلاث لن يزلن في أمتي التفاخر في الأحساب والنِّياحة والأَنْواء» ولفظ مسلم في هذا:

[٥٨٠٨] «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة».

قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ أي فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الْحُلْقوم. ولم يتقدم لها ذكر؛ لأن المعنى معروف؛ قال حاتم:

أَمَاوِيّ ما يُغْنِي الثَّرَاءُ عنِ الفتى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضاقَ بِها الصَّدْرُ

وفي حديث: إنّ مَلَكَ الموت له أعوان يقطعون العروق ويجمعون الروح شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بها إلى الحُلْقوم فيتوفاها مَلَك الموت[2]. ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أمري

[٥٨٠٦] مرسل. أخرجه الطبري ٣٣٥٦٠ عن إسماعيل بن أبي أمية مرسلاً فهو ضعيف.

[٥٨٠٧] صحيح. أخرجه أبو يعلى ٣٩١١ و ٣٩١٢ والبزار كما في المجمع ٣/١٢ من حديث أنس، وقال الهيثمي: رجاله ثقات اهـ وله شواهد كثيرة ذكرها في المجمع تجعله صحيحاً وانظر ما بعده.

[٥٨٠٨] صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٩٠ وأحمد ٥/ ٣٤٢ ومسلم ٩٣٤ وعبد الرزاق ٦٦٨٦ وابن ماجه ١٥٨١ وابن حبان ٣١٤٣ واستدركه الحاكم ١/ ٣٨٣ كلهم من حديث أبي مالك الأشعري وله شواهد كثيرة راجع الإحسان بتحقيق الشيخ شعيب ٧/ ٤١٠ ـ ٤١١ ـ ٤١٢.

---

(١) أسنده الطبري ٣٣٥٦١ عن أبي هريرة به وإسناده حسن لأجل ابن إسحاق.

(٢) تقدم مثله في سورة الأنعام وفي سورة الزمر، وفي النحل أيضاً.

وسلطاني. وقيل: تنظرون إلى الميّت لا تقدرون له على شيء. وقال ٱبن عباس: يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تخرج نفسه. ثم قيل: هو ردٌّ عليهم في قولهم لإخوانهم ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦] أي فهل ردّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحلقوم. وقيل: المعنى فهلاّ إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه في جسده، مع حرصكم على ٱمتداد عمره، وحبكم لبقائه. وهذا ردّ لقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وقيل: هو خطاب لمن هو في النزع؛ أي إن لم يك ما بك من الله فهّلا حفظت على نفسك الروح. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي بالقدرة والعلم والرؤية. قال عامر بن عبد القيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليّ منه. وقيل: أراد ورسلنا الذين يتولّون قبضه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي لا ترونهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي فهلاّ إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات: ٥٣] أي مجزيون محاسبون. وقد تقدم. وقيل: غير مملوكين ولا مقهورين. قال الفراء وغيره: دِنْتُه ملكته؛ وأنشد للحطيئة:

لقد دُيِّنْتِ أَمْرَ بَنِيكِ حَتَّى ... تَرَكْتِهِمُ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ

يعني مُلِّكْتِ. ودانه أي أذله وٱستعبده؛ يقال: دنته فدان. وقد مضى في «الفاتحة» القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤]. ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ ترجعون الروح إلى الجسد. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين. و﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ جواب لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ ولقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أجيبا بجواب واحد؛ قاله الفراء. وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨] أجيبا بجواب واحد وهما شرطان. وقيل: حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه. وقيل: فيها تقديم وتأخير، مجازها: فلولا وهلاّ إن كنتم غير مَدِينين تَرجِعونها؛ تردُّون نَفْس هذا الميّت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند

البعث، وبيّن درجاتهم فقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ هذا المتوفّى ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وهم السابقون. ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ وقراءة العامة «فَرَوْحٌ» بفتح الراء ومعناه عند ٱبن عباس وغيره: فراحة من الدنيا. وقال الحسن: الرَّوْح الرحمة. الضحاك: الرَّوْح الاستراحة. القُتَبِيّ: المعنى له في القبر طيب نسيم. وقال أبو العباس بن عطاء: الرّوح النظر إلى وجه الله، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه، ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ هو ألا يُحجب فيها عن الله عز وجل. وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجَحْدريّ ورُوَيس وزيد عن يعقوب «فَرُوحٌ» بضم الراء، ورويت عن ابن عباس. قال الحسن: الرُّوح الرحمة؛ لأنها كالحياة للمرحوم. وقالت عائشة رضي الله عنها:

[٥٨٠٩] قرأ النبيّ ﷺ «فَرُوحٌ» بضم الراء ومعناه فبقاء له وحياة في الجنة وهذا هو الرحمة. «وَرَيْحَانٌ» قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي رزق. قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير؛ يقال: خرجت أطلب ريحان الله أي رزقه؛ قال النَّمِر بن تَوْلَب:

سَلامُ الإلٰهِ ورَيْحَانُه ورحمتُه وسَمَاءٌ دِرَرْ

وقال قتادة: إنه الجنة. الضحاك: الرحمة. وقيل هو الريحان المعروف الذي يشم. قاله الحسن وقتادة أيضاً. الربيع بن خَيْثم: هذا عند الموت والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث. أبو الجوزاء: هذا عند قبض روحه يتلقّى بضَبَائر الرَّيْحَان. أبو العالية: لا يفارق أحد رُوحه من المقرّبين في الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما، وأصل ريحان وٱشتقاقه تقدم في أوّل سورة «الرحمن» فتأمله. وقد سرد الثعلبي في الرَّوْحِ والريَّحْان أقوالاً كثيرةً سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾ أي ﴿إِنْ كَانَ﴾ هذا المتوفّى ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ أي لست ترى منهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم لهم، فإنهم يسلمون من عذاب الله. وقيل: المعنى سلام لك منهم؛ أي أنت سالم من الاغتمام لهم. والمعنى واحد. وقيل: أي إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلّي الله عليك ويسلم. وقيل: المعنى إنهم يسلمون عليك يا محمد. وقيل: معناه سلمت أيها العبد مما تكره فإنك من أصحاب اليمين؛ فحذف إنك. وقيل: إنه يُحيَّا بالسلام إكراماً؛ فعلى هذا في محل السلام ثلاثة أقاويل: أحدها عند قبض روحه في الدنيا

[٥٨٠٩] أخرجه أبو داود ٣٩٩١ والترمذي ٢٩٣٨ وأحمد ٦/ ٦٤ والحاكم ٢/ ٢٣٦ من حديث عائشة وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حسن غريب اهـ وهو على شرط مسلم بُديل بن ميسرة تفرد مسلم بالرواية عنه. والله أعلم.

يسلّم عليه مَلَك الموت؛ قاله الضحاك. وقال ٱبن مسعود: إذا جاء مَلَك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام. وقد مضى هذا في سورة «النحل» عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾. [النحل: ٣٢]. الثاني عند مساءلته في القبر يسلّم عليه منكر ونكير. الثالث عند بعثه في القيامة تسلّم عليه الملائكة قبل وصوله إليها.

قلت: وقد يحتمل أن تسلّم عليه في المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكراماً بعد إكرام. والله أعلم. وجواب «إنّ» عند المبرّد محذوف التقدير مهما يكن من شيء ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ إن كان من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدّم عليه، كما حذف الجواب في نحو قولك أنت ظالم إن فعلت؛ لدلالة ما تقدّم عليه. ومذهب الأخفش أن الفاء جواب «أَمَّا» و «إنْ»، ومعنى ذلك أن الفاء جواء «أَمَّا» وقد سدّت مسدّ جواب «إنْ» على التقدير المتقدّم، والفاء جواب لهما على هذا الحد. ومعنى «أَمَّا» عند الزجاج: الخروج من شيء إلى شيء؛ أي دع ما كنا فيه وخذ في غيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث ﴿ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾ عن الهدى وطريق الحقّ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ أي فلهم رزق من حميم، كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ﴾ وكما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الصافات: ٦٧] ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ إدخال في النار. وقيل: إقامة في الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها؛ يقال: أصلاه النار وصلاه؛ أي جعله يصلاها والمصدر ههنا أضيف إلى المفعول؛ كما يقال: لفلان إعطاء مالٍ أي يُعطَى المال. وقرىء: «وَتَصْلِيَةِ» بكسر التاء أي ونزلٌ من تصلية جحيم. ثم أدغم أبو عمرو التاء في الجيم وهو بعيد. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ أي هذا الذي قصصناه محض اليقين وخالصه. وجاز إضافة الحقّ إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما. قال المبرّد: هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين؛ فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين. وعند البصريين حقّ الأمر اليقين أو الخبر اليقين. وقيل: هو توكيد. وقيل: أصل اليقين أن يكون نعتاً للحقّ فأضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز؛ كقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقال قتادة في هذه الآية: إن الله ليس بتاركٍ أحداً من الناس حتى يَقِفه على اليقين من هذا القرآن، فأمَّا المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين. ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ أي نَزِّه الله تعالى عن السوء. والباء زائدة أي سبّح ٱسم ربك، والاسمُ المسمَّى. وقيل: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي فصلّ بذكر ربك وبأمره. وقيل: فاذكر ٱسم ربك العظيم وسبّحه. وعن عقبة بن عامر قال:

[٥٨١٠] لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ قال النبيّ ﷺ: «اْجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال النبيّ ﷺ: «اْجعلوها في سجودكم» خرجه أبو داود. والله أعلم.

سورة الحديد

مدنيّةٌ في قول الجمع، وهي تسع وعشرون آية

عن العِرباضِ بن سارية:

[٥٨١١] أن النبيّ ﷺ كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد ويقول: «إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية» يعني بالمسبِّحات «الحديد» و«الحشر» و«الصفّ» و«الجمعة» و«التغابن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مَجّد الله ونزّهه عن السوء. وقال اْبن عباس: صلّى للّهِ ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ ممن خلق من الملائكة ﴿وَالأَرْضِ﴾ من شيء فيه رُوح أو لا رُوح فيه. وقيل: هو تسبيح الدلالة. وأنكر الزجاج هذا وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهورِ آثار الصنعة لكانت مفهومة؛ فلِم قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وإنما هو تسبيح مقال. واْستدلّ بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] فلو كان هذا تسبيح دلالة فأيّ تخصيص لداود؟!

قلت: وما ذكره هو الصحيح، وقد مضى بيانه والقول فيه في «سبحان» عند قوله

[٥٨١٠] أخرجه أبو داود ٨٦٩ وابن ماجه ٨٨٧ وأحمد ٤/١٥٥ والطيالسي ١٠٠٠ والحاكم ٢/٤٧٧ كلهم من حديث عقبة بن عامر، صححه الحاكم ووافقه الذهبي! وهو حديث ضعيف فيه موسى بن أيوب مقبول كما في التقريب.

[٥٨١١] أخرجه أبو داود ٥٠٥٧ والترمذي ٣٠٨٩ وأحمد ٤/١٢٨ والنسائي في اليوم والليلة ٧١٣ و ٧١٤ واْبن السني ٦٨٢ من حديث العرباض، وفيه بقية مدلس لكن صرح بالتحديث في رواية أحمد، وله علة حيث رواه النسائي من طريق غير بقية عن خالد بن معدان مرسلاً.

تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ٱنفرد بذلك. والمُلكُ عبارة عن المُلْك ونفوذ الأمر فهو سبحانه الملك القادر القاهر. وقيل: أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق. ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يميت الأحياء في الدنيا ويحيي الأموات للبعث. وقيل: يُحيي النطف وهي موات ويُميت الأحياء. وموضع ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ رفع على معنى وهو يحيي ويميت. ويجوز أن يكون نصباً بمعنى ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ محييا ومميتا على الحال من المجرور في «لَهُ» والجار عاملاً فيها. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾ أي الله لا يعجزه شيء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ ٱختلف في معاني هذه الأسماء وقد بيناها في الكتاب الأسنى. وقد شرحها رسول الله ﷺ شرحاً يغني عن قول كل قائل؛ فقال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة:

[٥٨١٢] «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ٱقض عنا الدين وأغننا من الفقر» عنى بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم؛ والله أعلم. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ بما كان أو يكون فلا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدّم في «الأعراف» مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يدخل فيها من مطر وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من رزق ومطر ومَلَك ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني بقدرته وسلطانه وعلمه ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ يبصر أعمالكم ويراها ولا يخفى عليه شيء منها. وقد

[٥٨١٢] صحيح. أخرجه مسلم ٢٧١٣ وأحمد ٢/٣٨١ وابن أبي شيبة ١٠/٢٥١ وأبو داود ٥٠٥١ والترمذي ٣٤٠٠ وابن ماجه ٣٨٧٣ وابن السني ٧٢٠ وابن حبان ٥٥٣٧ من حديث أبي هريرة.

جمع في هذه الآية بين ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وبين ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ والأخذ بالظاهرين تناقض فدل على أنه لا بدّ من التأويل، والإعراضُ عن التأويل اعتراف بالتناقض. وقد قال الإمام أبو المعالي: إن محمداً ﷺ ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان في بطن الحوت. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا التكرير للتأكيد أي هو المعبود على الحقيقة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾ أي أمور الخلائق في الآخرة. وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حَيْوة وابن مُحَيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخلف «تَرْجِع» بفتح التاء وكسر الجيم. الباقون «تُرْجَعُ».

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تقدّم في «آل عمران». ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ أي لا تخفى عليه الضمائر، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يعبد من سواه.

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي صدّقوا أن الله واحد وأن محمداً رسوله ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ تصدّقوا. وقيل أنفقوا في سبيل الله. وقيل: المراد الزكاة المفروضة. وقيل: المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ دليل على أن أصل الملك لله سبحانه، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي الله فيثيبه على ذلك بالجنة. فمن أنفق منها في حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم. وقال الحسن: ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم. وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النوّاب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وعملوا الصالحات ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟﴾ في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استفهام يراد به التوبيخ. أي أيّ عذر لكم في ألاّ تؤمنوا وقد أزيحت العلل؟! ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ بيّن بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع. وقرأ أبو عمرو: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ على غير مسمى الفاعل. والباقون على

مسمَّى الفاعل؛ أي أخذ الله مِيثاقكم. قال مجاهد: هو الميثاق الأوّل الذي كان وهم في ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه. وقيل: أخذ مِيثاقكم بأن ركّب فيكم العقول، وأقام عليكم الدلائل والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ أي إذ كنتم. وقيل: أي إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل. وقيل: أي إن كنتم مؤمنين بحق يوماً من الأيام؛ فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والأعلام ببعثة محمد ﷺ فقد صحت براهينه. وقيل: إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم. وكانوا يعترفون بهذا. وقيل: هو خطاب لقوم آمنوا وأخذ النبيّ ﷺ ميثاقهم فارتدوا. وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ أي إن كنتم تقرون بشرائط الإيمان.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يريد القرآن. وقيل: المعجزات؛ أي لزمكم الإيمان بمحمد ﷺ؛ لما معه من المعجزات، والقرآنُ أكبرها وأعظمها. ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ أي بالقرآن. وقيل: بالرسول. وقيل: بالدعوة. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهو الإيمان. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقرِّبكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى. فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إنهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة. وقال الشعبيّ والزهريّ: فتح الحُدَيْبية. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك. وفي الكلام حذف؛ أي ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل؛ فحذف لدلالة الكلام عليه. وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفِعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشقّ والأجر على قدر النَّصَب. والله أعلم.

الثالثة: روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يُقدَّم أهل الفضل والعزم؛ وقد قال

الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ وقال الكلبي: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وتقديمه؛ لأنه أوّل من أسلم. وعن ابن مسعود: أوّل من أظهر الإسلام بسيفه النبيُّ ﷺ وأبو بكر؛ ولأنه أوّل من أنفق على نبيّ الله ﷺ. وعن ابن عمر قال:

[٥٨١٣] كنت عند النبيّ ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خَلَّلها في صدره بخِلاَل فنزل جبريل فقال: يا نبيّ الله! مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خَلَّلها في صدره بخِلاَل؟ فقال: «قد أنفق عليّ ماله قبل الفتح» قال: فإن الله يقول لك أقرأ على أبي بكر السلام وقل له أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط»؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربي؟ إني عن ربِّي لراضٍ! إنّي عن ربّي لراضٍ! إني عن ربي لراضٍ! قال: «فإن الله يقول لك قد رضيت عنك كما أنت عني راضٍ» فبكى أبو بكر فقال جبريل عليه السلام: والذي بعثك يا محمد بالحقّ، لقد تَخلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيّ منذ تَخلّل صاحبك هذا بالعباءة؛ ولهذا قدّمته الصحابة على أنفسهم، وأقرُّوا له بالتقدّم والسبق. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: سبق النبيُّ ﷺ[1] وصَلَّى أبو بكر وثَلَّثَ عمر؛ فلا أوتي برجل فَضَّلني على أبي بكر إلا جلدته حدّ المفتري ثمانين جلدة وطرح الشهادة. فنال المتقدّمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ.

الرابعة: التقدّم والتأخر قد يكون في أحكام الدنيا، فأما في أحكام الدِّين فقد قالت عائشة رضي الله عنها:

[٥٨١٤] «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم» وأعظم المنازل مرتبة الصلاة. وقد قال ﷺ في مرضه:

[٥٨١٥] «مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس» الحديث. وقال:

[٥٨١٣] أخرجه البغوي في تفسيره ٤/٢٦٩ من حديث ابن عمر، وضعفه الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤/٣٢٩. وذكره الذهبي في الميزان في ترجمة العلاء الحنفي، وقال: هو متروك وهذا الخبر كذب.

[٥٨١٤] أخرجه أبو داود ٤٨٤٢ وأبو يعلى ٤٨٢٦ من حديث عائشة، وفي إسناده حبيب بن أبي ثابت ثقة لكنه كثير التدليس والإرسال وقد عنعن وميمون بن أبي شبيب قال أبو داود لم يدرك عائشة وقال أبو حاتم في المراسيل ص ٢١٤ وقد سأله ابنه: ميمون عن عائشة متصل؟ قال: لا. وذكره مسلم في مقدمة صحيحه ١/٦ معلقاً بصيغة التمريض وقد أطال السخاوي الكلام عليه في المقاصد ١٧٩ وختمه بقوله: وبالجملة فحديث عائشة حسن.

[٥٨١٥] مضى مراراً.

---

(١) السابق: الأول، والمصلي: الثاني.

[٥٨١٦] «يؤم القومَ أقرؤهم لكتاب الله» وقال:

[٥٨١٧] «وليؤمّكما أكبركما» من حديث مالك بن الحُوَيْرث وقد تقدم. وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كِبر المنزلة، كما قال ﷺ:

[٥٨١٨] «الولاء لِلكِبَر» ولم يعن كبر السن. وقد قال مالك وغيره: إن للسنّ حقًّا. وراعاه الشافعي وأبو حنيفة وهو أحقّ بالمراعاة؛ لأنه إذا اجتمع العلم والسنّ في خيِّرين قُدِّم العلم،وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدِّين، فمن قُدِّم في الدين قُدِّم في الدنيا. وفي الآثار:

[٥٨١٩] «ليس مِنا من لم يوقِّر كبيرَنَا ويرحمْ صغيرنا ويعرفْ لعالمنا حقَّه». ومن الحديث الثابت في الأفراد:

[٥٨٢٠] «ما أكرم شاب شيخاً لسِنِّه إلا قَيَّض الله له عند سنِّه من يكرمه». وأنشدوا(١):

يا عائباً لِلشيوخ مِن أشَرِ ... دَاخَلَهُ في الصِّبَا ومِن بَذَخِ
اذكر إذا شئتَ أن تُعيِّرَهُمْ ... جَدَّكَ واذكر أباك يا بن أخِ
واعلم بأن الشباب منسلِخٌ ... عنك وما وِزْرُه بمنسلِخِ
من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ ... يوماً به سِنُّه إلى الشَّيَخِ

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي المتقدمون المتناهون السابقون، والمتأخرون اللاحقون، وعَدَهم الله جميعاً الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرأ ابن عامر «وَكُلٌّ» بالرفع، وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام. الباقون «وَكُلًّا» بالنصب على

[٥٨١٦] تقدم تخريجه.

[٥٨١٧] تقدم أيضاً.

[٥٨١٨] هو موقوف. أخرجه البيهقي ١٠/٣٠٣ عن عمر وعثمان موقوفاً عليهما. ومثله عن علي وابن مسعود.

[٥٨١٩] أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ٥/٣٢٣ والحاكم ١/١٢٢ والبزار كما في المجمع ٨/١٤ من حديث عبادة بن الصامت وقال الهيثمي: إسناده حسن. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وأخرجه الديلمي ٥٢٦٥ من حديث جابر بإسناد ضعيف وهو بدون «ويعرف لعالمنا حقه» ورد عن جماعة من الصحابة راجع المجمع ومسند أبي يعلى بتخريج حسين أسد ٦/٩١ ـ ١٩٣.

[٥٨٢٠] ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٠٢٢ والبيهقي في «الآداب» ٤٤ والديلمي ٦١٩١ من حديث أنس وضعفه الترمذي بقوله: غريب. وقد ضعفه العراقي في الإحياء ٢/١٩٤ وقال المناوي في «الفيض»: يزيد بن بنان العقيلي عن خالد بن محمد ويزيد ضعفه الدارقطني وغيره وخالد واهٍ وضعفه العراقي والسخاوي اهـ وكذا ضعفه شيخنا في جامع الأصول ٦/٤٨١٠.

---

(١) هو لابن عبد الصمد السرقُسْطي.

ما في مصاحفهم؛ فمن نصب فعلى إيقاع الفعل عليه أي وعد الله كلاًّ الحسنى. ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل، والهاء محذوفة من وَعَدَه.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ندب إلى الإنفاق في سبيل الله. وقد مضى في «البقرة» القول فيه. والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً: قد أقرض؛ كما قال[1]:

وإذا جُوزِيتَ قَرْضاً فَاْجْزِهِ إنَّمَا يَجْزِي الفتى ليس الْجَمَلْ

وسمّي قرضاً؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل. أي من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدِله الله بالأضعافِ الكثيرة. قال الكلبي: «قَرْضاً» أي صدقة «حَسَناً» أي محتسباً مِن قلبه بلا مَنٍّ ولا أذىً. ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ ما بين السبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف. وقيل: القرض الحسن هو أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر؛ رواه سفيان عن ابن حيان[2]. وقال زيد بن أسلم: هو النفقة على الأهل. الحسن: التطوع بالعبادات. وقيل: إنه عمل الخير؛ والعرب تقول: لي عند فلان قرض صِدقٍ وقرض سوء. القشيري: والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس، يبتغي به وجه الله دون الرياء والسُّمعة، وأن يكون من الحلال. ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الرديء فيخرجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وأن يتصدق في حال يأمل الحياة؛ فإن النبيّ ﷺ سئل عن أفضل الصدقة فقال:

[٥٨٢١] «أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا» وأن يخفي صدقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] وألاّ يَمُنّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وأن يستحقر كثير ما يعطي؛ لأن الدنيا كلها

[٥٨٢١] صحيح. أخرجه البخاري ١٤١٩ ومسلم ١٠٣٢ وأبو داود ٢٨٦٥ والنسائي ٥/ ٨٦ وابن ماجه ٢٧٠٦ وأحمد ٢/ ٢٣١ من حديث أبي هريرة.

---

(١) هو لبيد.
(٢) وقع في نسخ الأصل «أبي حيان» والتصويب عن تفسير الماوردي ٤/ ٤٧٢ والمراد به مقاتل بن حيان المفسر والله أعلم.

قليلة، وأن يكون من أحبّ أمواله؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وأن يكون كثيراً؛ لقوله ﷺ:

[٥٨٢٢] «أفضل الرقاب أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها». ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ وقرأ ابن كثير وابن عامر «فَيُضَعِّفُه» بإسقاط الألف إلا ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء. وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة «فَيُضَاعِفهُ» بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصماً نصب الفاء. ورفع الباقون عطفاً على «يُقْرِضُ». وبالنصب جواباً على الاستفهام. وقد مضى في «البقرة» القول في هذا مستوفى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ يعني الجنة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ العامل في «يَوْمَ» ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ وفي الكلام حذف أي ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ في ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ فيه ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أي يمضي على الصراط في قول الحسن، وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي قدّامهم. ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قال الفراء: الباء بمعنى في؛ أي في أيمانهم. أو بمعنى عن أي عن أيمانهم. وقال الضحاك: ﴿نُورُهُم﴾ هداهم ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ كتبهم؛ واختاره الطبري. أي يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم. فالباء على هذا بمعنى في. ويجوز على هذا أن يوقف على ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ولا يوقف إذا كانت بمعنى عن. وقرأ سهل بن سعد الساعدي وأبو حيوة «وبِإِيمانِهِم» بكسر الألف، أراد الإيمان الذي هو ضد الكفر. وعطف ما ليس بظرف على الظرف؛ لأن معنى الظرف الحال وهو متعلق بمحذوف. والمعنى يسعى كائناً ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وكائناً ﴿بِأَيمانِهِمْ﴾، وليس قوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ متعلقاً بنفس ﴿يَسْعَى﴾. وقيل: أراد بالنور القرآن. وعن ابن مسعود: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى. وقال قتادة:

[٥٨٢٣] ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال: «إن مِن المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدنٍ أو ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه» قال الحسن: ليستضيئوا به على الصراط كما تقدم. وقال مقاتل: ليكون دليلاً لهم إلى الجنة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ التقدير يقال لهم: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ دخول جناتٍ. ولا بد من تقدير حذف المضاف؛ لأن البشرى حدث، والجنة عين

[٥٨٢٢] تقدم برقم:

[٥٨٢٣] مرسل. أخرجه الطبري ٣٣٦١٤ بسند جيد عن قتادة وكرره ٣٣٦١٥ عنه به.

فلا تكون هي هي. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الدخول المحذوف؛ التقدير ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ دخول جناتٍ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مقدرين الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم؛ لأن فيه فصلاً بين الصلة والموصول. ويجوز أن يكون مما دل عليه البشرى، كأنه قال: تبشرون خالدين. ويجوز أن يكون الظرف الذي هو «الْيَوْمَ» خبراً عن «بُشْرَاكُمُ» و «جَنَّاتٌ» بدلاً من البشرى على تقدير حذف المضاف كما تقدم. و «خَالِدِينَ» حال حسب ما تقدم. وأجاز الفراء نصب «جَنَّات» على الحال على أن يكون «الْيَوْمَ» خبراً عن «بُشْرَاكُمُ» وهو بعيد؛ إذ ليس في «جَنَّات» معنى الفعل. وأجاز أن يكون «بُشْرَاكُمُ» نصباً على معنى يبشرونهم بشرى وينصب «جنات» بالبشرى وفيه تفرقة بين الصلة والموصول.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ العامل في «يَوْمَ» ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾. وقيل: هو بدل من اليوم الأول. ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾ قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر؛ والنظر الانتظار أي ٱنتظرونا. وقرأ الأعمش وحمزة ويحيـى بن وثّاب «أَنْظِرُونَا» بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار. أي أمهلونا وأخرونا؛ أنظرته أخرته، وٱستنظرته أي ٱستمهلته. وقال الفراء: تقول العرب: أنظِرني ٱنتظرني؛ وأنشد لعمرو بن كُلْثوم:

أبـا هِنـدٍ فـلا تَعْجَـلْ عَلَيْنَـا وأَنْظِـرْنَـا نُخَبِّـرْكَ الْيَقِينَـا

أي ٱنتظرنا. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي نستضيء من نوركم. قال ٱبن عباس وأبو أمامة: يغشى الناس يوم القيامة ظلمة ـ قال الماوردي: أظنها بعد فصل القضاء ـ ثم يعطون نوراً يمشون فيه. قال المفسرون: يعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعةً لهم؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. وقيل: إنما يعطون النور؛ لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه؛ قاله ٱبن عباس. وقال أبو أمامة: يعطي المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور. وقال الكلبي: بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين

ولا يعطون النور، فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحاً وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين؛ فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] يقوله المؤمنون؛ خشية أن يُسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾. ﴿نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ﴾ أي قالت لهم الملائكة «ٱرْجِعُوا». وقيل: بل هو قول المؤمنين لهم ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ إلى الموضع الذي أخذنا منه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً فإنكم لا تقتبسون من نورنا. فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾، وقيل: أي هلاّ طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا. «بِسُورٍ» أي سُورٌ؛ والباء صلة. قاله الكسائي. والسُّور حاجز بين الجنة والنار. وروي أن ذلك السُّور ببيت المَقْدس عند موضع يعرف بوادي جهنم. ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ يعني ما يلي منه المؤمنين ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ يعني ما يلي المنافقين. قال كعب الأحبار: هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة. وقال عبد الله بن عمرو: إنه سُور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ يعني جهنم. ونحوه عن ٱبن عباس. وقال زياد بن أبي سوادة: قام عبادة بن الصامت على سُور بيت المقدس الشرقي فبكى، وقال: من ههنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم[1]. وقال قتادة: هو حائط بين الجنة والنار ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ يعني الجنة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ يعني جهنم. وقال مجاهد: إنه حجاب كما في «الأعراف» وقد مضى القول فيه. وقد قيل: إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين.

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ في الدنيا يعني نصلي مثل ما تصلون، ونغزو مثل ما تغزون، ونفعل مثل ما تفعلون ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي يقول المؤمنون «بَلَى» قد كنتم معنا في الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي ٱستعملتموها في الفتنة. وقال مجاهد: أهلكتموها بالنفاق. وقيل: بالمعاصي؛ قاله أبو سنان. وقيل: بالشهوات واللذات؛ رواه أبو نمير الهمْداني. ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ بالنبيّ ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدوائر. وقيل: ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ بالتوبة ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي شككتم في التوحيد والنبوة ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ أي الأباطيل. وقيل: طول الأمل. وقيل: هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم. وقال قتادة: الأماني هنا خدع الشيطان. وقيل: الدنيا؛ قاله عبد الله بن عباس. وقال أبو سنان: هو قولهم سَيُغْفَر لنا.

---

(١) هذا خبر منكر لا يصح مرفوعاً ولا موقوفاً. وإنما مصدر هذا الخبر كعب الأحبار راجع تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣١ وفتح القدير للشوكاني ٥/ ١٧١.

وقال بلال بن سعد: ذكرك حسناتِك ونسيانك سيئاتِك غِرّةً. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ يعني الموت. وقيل: نصرة نبيّه ﷺ. وقال قتادة: إلقاؤهم في النار. ﴿وَغَرَّكُم﴾ أي خدعكم ﴿بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ أي الشيطان؛ قاله عكرمة. وقيل: الدنيا؛ قاله الضحاك. وقال بعض العلماء: إن للباقي بالماضي معتبراً، وللآخر بالأول مزدجراً، والسعيد من لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخُدَع، ومن ذكر المنيّة نسي الأمنيّة، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل. وجاء «الْغَرُورُ» على لفظ المبالغة للكثرة. وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْقَع وسِمَاك بن حرب «الغُرُورُ» بضم الغين يعني الأباطيل وهو مصدر. وعن ٱبن عباس:

[٥٨٢٤] أن نبيّ الله ﷺ خطّ لنا خطوطاً، وخطّ منها خطًّا ناحية فقال: «أتدرون ما هـذا؟ هـذا مثـل ٱبـن آدم ومثـل التمني وتلـك الخطـوط الآمـال بينمـا هـو يتمنى إذ جـاءه الموت». وعن ٱبن مسعود قال:

[٥٨٢٥] خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا مربعاً، وخطّ وسطه خطًّا وجعله خارجاً منه، وخطّ عن يمينه ويساره خطوطاً صغاراً فقال: «هذا ٱبن آدم وهذا أجله محيط به وهذا أمله قد جاوز أجله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا».

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٌ﴾ أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أيأسهم من النجاة. وقراءة العامة ﴿يُؤۡخَذُ﴾ بالياء؛ لأن التأنيث غير حقيقي؛ ولأنه قد فصل بينها وبين الفعل. وقرأ ٱبن عامر ويعقوب «تُؤْخَذُ» بالتاء وٱختاره أبو حاتم لتأنيث الفدية. والأوّل ٱختيار أبي عبيد؛ أي لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى. ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مقامكم ومنزلكم ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ أي أَوْلى بكم، والمولى من يتولى مصالح الإنسان، ثم ٱستعمل فيمن كان ملازماً للشيء. وقيل: أي النار تملك أمرهم؛ بمعنى أن الله تبارك وتعالى يُرَكِّب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظاً على الكفار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٣٠]. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾. أي ساءت مرجعاً ومصيراً.

قوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا

[٥٨٢٤] تقدم تخريجه.

[٥٨٢٥] تقدم كسابقه.

يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي يقرب ويحين، قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرِكَ الْجَهْلاَ وأن يُحْدِثَ الشَّيبُ المبينُ لنا عَقْلاَ

وماضيه أَنَى بالقصر يأنى. ويقال: آن لك ـ بالمد ـ أن تفعل كذا يَئِين أَيْناً أي حان، مثل أَنَى لك وهو مقلوب منه. وأنشد ابن السِّكيت:

أَلَمَّا يئِنْ لِي أَنْ تَجَلَّى عَمَايَتِي وأَقْصُرُ عن لَيْلَى بَلَى قَدْ أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين، وقرأ الحسن «أَلَمَّا يَأْنِ» وأصلها «أَلَمْ» زيدت «ما» فهي نفي لقول القائل: قد كان كذا؛ و«لم» نفي لقوله: كان كذا. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال:

[٥٨٢٦] ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين. قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجدة؛ تقول عاتبته معاتبة ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ أي تذل وتلين ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ روي أن المزاح والضحك كثر في أصحاب النبيّ ﷺ لما ترفَّهوا بالمدينة، فنزلت الآية؛ ولما نزلت هذه الآية قال ﷺ:

[٥٨٢٧] «إن الله يستبطئكم بالخشوع» فقالوا عند ذلك: خَشَعنا. وقال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن. وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة. وذلك أنهم سألوا سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة فنزلت: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ [يوسف: ١] إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] الآية؛ فأخبرهم أن هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفّوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأول فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان. قال السديّ وغيره: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالظاهر وأسرّوا الكفر ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. وقيل: نزلت في المؤمنين. قال سعد:

[٥٨٢٦] صحيح. أخرجه مسلم ٣٠٢٧ واستدركه الحاكم ٢/ ٤٧٩ من حديث ابن مسعود.

[٥٨٢٧] ذكره السيوطي في الدر ٦/ ٢٥٣ بنحوه، وقال: أخرجه ابن مردويه عن أنس مرفوعاً.

[٥٨٢٨] أسنده السمرقندي في تفسيره ٣/ ٣٢٦ عن عبد الرحمن بن عبد الله عن القاسم به وهذا ضعيف لإرساله. والقاسم بن عبد الرحمن فيه كلام ونسبه السيوطي في الأسباب ١٠٧١ للسدي عن القاسم.

[٥٨٢٨] قيل يا رسول الله لو قصصت علينا فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣] فقالوا بعد زمان: لو حدثتنا فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] فقالوا بعد مدة: لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ونحوه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول: ما أحدثنا؟ قال الحسن: ٱستبطأهم وهم أحبّ خلقه إليه. وقيل: هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ أي ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن، وألا يكونوا كمتقدمي قوم موسى وعيسى؛ إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيِّهم فقست قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ أي وألا يكونوا فهو منصوب عطفاً على ﴿أَن تَخْشَعَ﴾. وقيل: مجزوم على النهي؛ مجازه ولا يكونن؛ ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب «لاَ تَكُونُوا» بالتاء؛ وهي قراءة عيسى وٱبن إسحاق. يقول: لا تسلكوا سبيل اليهود والنصارى؛ أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الأزمان بهم. قال ٱبن مسعود: إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، فٱخترعوا كتاباً من عند أنفسهم ٱستحلّته أنفسهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، ثم قالوا: أعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم فٱتركوهم وإلا فٱقتلوهم. ثم ٱصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد؛ فأرسلوا إليه، فكتب كتاب الله في ورقة وجعلها في قَرْن وعلّقه في عنقه ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنت بهذا يعني المعلّق على صدره. فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين مِلّة؛ وخير مللهم أصحاب ذي القَرْن. قال عبد الله: ومن يعش منكم فسيرى منكراً، وبحَسْب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وقال مقاتل بن حيان: يعني مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد وٱستبطؤوا بعث النبيّ ﷺ ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ يعني الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعالى. ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعِث النبيّ ﷺ فآمنوا به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فَسَّقهم اللّهُ. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجدِبين، فلما هاجروا أصابوا الرِّيف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله

فأفاقوا. وذكر ٱبن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس، قال: بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب وٱنظروا فيها ـ أو قال في ذنوبكم ـ كأنكم عبيد؛ فإنما الناس رجلان معافًى ومبتلًى، فارحموا أهل البلاء، وٱحمدوا الله على العافية. وهذه الآية ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وٱبن المبارك رحمهما الله تعالى: ذكر أبو المطرِّف عبد الرحمن بن مروان القَلاَنسيّ قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق، قال حدّثنا علي بن يعقوب الزيات، قال حدثنا إبراهيم بن هشام، قال حدثنا زكريا بن أبي أبان، قال حدثنا الليث بن الحرث قال حدّثنا الحسن بن داهر، قال سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال: كنت يوماً مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعاً بضرب العودِ والطُّنبور، فقمت في بعض الليل فضربت بصوت يقال له راشين السَّحَر، وأراد سنان يغنّي، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان ـ يعني العود الذي بيده ـ ويقول: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قلت: بلى واللَّهِ! وكسرت العود، وصرفت من كان عندي، فكان هذا أوّل زهدي وتشميري. وبلغنا عن الشعر الذي أراد ٱبن المبارك أن يضرب به العود:

أَلَمْ يَأْنِ لي مِنك أن تَرْحَمَا ... وتَعْصِ العَواذِلَ واللُّوَّمَا

وتَرْثِي لصَبٍّ بكم مُغْرَمٌ ... أقام على هجرِكم مَأْتَمَا

يَبِيتُ إذا جَنَّهُ لَيْلُهُ ... يُراعِي الكَواكِبَ والأَنْجُمَا

وماذا على الظَّبْي لَوْ أنّهُ ... أَحَلّ مِن الوَصْلِ ما حَرَّمَا

وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليلاً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فرجع القهقرى وهو يقول: بلى والله قد آن! فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إن فضيلاً يقطع الطريق. فقال الفضيل: أوّاه! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام.

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ الجدبة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالمطر. وقال صالح المري: المعنى يلين القلوب بعد قساوتها. وقال جعفر بن محمد: يحييها بالعدل بعد الجور. وقيل: المعنى فكذلك يحيـي الكافر بالهدى

إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة. وقيل: كذلك يحيـي الله الموتى من الأمم، ويميّز بين الخاشع قلبه وبين القاسي قلبه. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله، وأنه لمحيي الموتى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق، أي المصدّقين بما أنزل الله تعالى. الباقون بالتشديد أي المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء في الصاد، وكذلك في مصحف أُبيّ. وهو حثٌّ على الصدقات، ولهذا قال: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالصدقة والنفقة في سبيل الله. قال الحسن: كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو التطوع. وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسباً صادقاً. وإنما عطف بالفعل على الاسم، لأن ذلك الاسم في تقدير الفعل، أي إن الذين صدّقوا وأقرضوا ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ﴾ أمثالها. وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله. وقرأ الأعمش «يُضَاعِفُه» بكسر العين وزيادة هاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب «يُضَعَّفُ» بفتح العين وتشديدها. ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ يعني الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ اختلف في ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ هل هو مقطوع مما قبل أو متصل به. فقال مجاهد وزيد بن أسلم: إن الشهداء والصدّيقين هم المؤمنون وأنه متصل؛ وروي معناه عن النبيّ ﷺ[1] فلا يوقف على هذا على قوله: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾ وهذا قول ابن مسعود في تأويل الآية. قال القشيري قال الله تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ﴾ فالصدّيقون هم الذين يتلون الأنبياء، والشهداء هم الذين يتلون الصدّيقين، والصالحون يتلون الشهداء، فيجوز أن تكون هذه الآية في جملة من صدّق بالرسل؛ أعني ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾. ويكون المعنى بالشهداء من شهد لله بالوحدانية، فيكون صدّيق فوق صدّيق في الدرجات؛ كما قال النبيّ ﷺ:

---

(١) يشير المصنف لما أخرجه الطبري ٣٣٦٥٣ عن زيد بن أسلم عن البراء مرفوعاً «مؤمنوا أمتي شهداء ثم تلا هذه الآية». وفي الإسناد إسماعيل بن يحيى ـ وأظنه البكري ـ وهو متروك ولذا قال ابن كثير في تفسيره ٤/٣٣٤: غريب.

[٥٨٢٩] «إن أهل الجنات العلا ليراهم من دونهم كما يرى أحدكم الكوكب الذي في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا» وروي عن ٱبن عباس ومسروق أن الشهداء غير الصدّيقين. فالشهداء على هذا منفصل مما قبله والوقف على قوله: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ حسن. والمعنى ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم. وفيهم قولان أحدهما ـ أنهم الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب؛ قاله الكلبي؛ ودليله قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]. الثاني ـ أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة، وفيما يشهدون به قولان: أحدهما ـ أنهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية. وهذا معنى قول مجاهد. الثاني ـ يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أممهم؛ قاله الكلبي. وقال مقاتل قولاً ثالثاً: إنهم القتلى في سبيل الله تعالى. ونحوه عن ٱبن عباس أيضاً قال: أراد شهداء المؤمنين. والواو واو الابتداء. والصدّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء.

وقد ٱختلف في تعيينهم؛ فقال الضحاك: هم ثمانية نفر؛ أبو بكر وعليّ وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة. وتابعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم؛ ألحقه الله بهم لما صدق نبيّه ﷺ. وقال مقاتل بن حيان: الصدّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفة عين، مثل مؤمن آل فرعون، وصاحب آل ياسين، وأبي بكر الصديق، وأصحاب الأخدود.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بالرسل والمعجزات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ فلا أجر لهم ولا نور.

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وجه الاتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل، وخوفاً من لزوم الموت؛ فبين أن الحياة الدنيا منقضية

[٥٨٢٩] أخرجه أبو داود ٣٩٨٧ والترمذي ٣٦٥٩ من حديث أبي سعيد وفيه عطية العوفي صدوق يخطىء كثيراً ويدلس وحسنه الترمذي، وورد من حديث أبي هريرة أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في المجمع ٩/ ٥٤ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح اهـ وانظر جامع الأصول ٨/ ٦٤٥٦.

فلا ينبغي أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى. و «ما» صلة تقديره: اعلموا أنّ الحياة الدنيا لعِب باطل ولهو فرحٍ ثم ينقضي. وقال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب. وقيل: إنه على المعهود من اسمه؛ قال مجاهد: كل لعب لهو. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» وقيل: اللَّعب ما رَغَّب في الدنيا، واللَّهو ما ألهى عن الآخرة؛ أي شَغل عنها. وقيل: اللعب الاقتناء، واللهو النساء. ﴿وَزِينَةٌ﴾ الزينة ما يتزين به؛ فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة، وكذلك من تزين في غير طاعة الله. ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفخر بعضكم على بعض بها. وقيل: بالخلقة والقوة. وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء. وفي صحيح مسلم عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٨٣٠] «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد» وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال:

[٥٨٣١] «أربع في أمتي من أمرِ الجاهلية الفخر في الأحساب» الحديث. وقد تقدم جميع هذا. ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة. قال بعض المتأخرين: «لَعِبٌ» كلعب الصبيان «ولَهْوٌ» كلهو الفتيان «وَزِينَةٌ» كزينة النسوان «وَتَفَاخُرٌ» كتفاخر الأقران «وَتَكَاثُرٌ» كتكاثر الدُّهقان[1]. وقيل: المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء. وعن عليّ رضي الله عنه قال لعمّار: لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء: مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة، وأفضل المشموم المِسك وهو دم فأرة، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال؛ والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها. ثم ضرب الله تعالى لها مثلاً بالزرع في غيث فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي مطر ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الكفّار هنا: الزرّاع لأنهم يغطّون البذر. والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشِيماً كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن. وقد مضى معنى هذا المثل في «يونس» و«الكهف». وقيل: الكفّار هنا الكافرون بالله عز وجل؛ لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين. وهذا قول حسن؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها. وفي

[٥٨٣٠] مضى برقم ٩/ ٤٢.

[٥٨٣١] مضى برقم.

(١) الدهقان: التاجر. فارسي معرب.

الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلل عندهم وتدِق إذا ذكروا الآخرة. وموضع الكاف رفع على الصفة. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أن يجفّ بعد خضرته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي متغيراً عما كان عليه من النضرة. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا﴾ أي فُتاتاً وتِبْناً فيذهب بعد حسنه، كذلك دنيا الكافر. ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي للكافرين. والوقف عليه حسن، ويبتدىء ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي للمؤمنين. وقال الفراء: ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ تقديره إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يوقف على «شَدِيدٌ». ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ هذا تأكيد ما سبق؛ أي تغر الكفار، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة. وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرورِ تزهيداً في العمل للدنيا، وترغيباً في العمل للآخرة.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي سارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم. وقيل: سارعوا بالتوبة؛ لأنها تؤدي إلى المغفرة؛ قاله الكلبي. وقيل التكبيرة الأولى مع الإمام؛ قاله مكحول. وقيل: الصف الأول. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لو وصل بعضها ببعض. قال الحسن: يعني جميع السموات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتها. وقيل: يريد لرجل واحد أي لكل واحد جنة بهذه السعة. وقال ابن كيسان: عنى به جنّة واحدة من الجنّات. والعرض أقل من الطول؛ ومن عادة العرب أنها تعبِّر عن سِعَةِ الشيء بعرضه دون طوله. قال:

كَـأَنّ بِـلاَدَ اللّـهِ وَهْـيَ عَـرِيضَـةٌ   على الْخَائِفِ المطْلوبِ كِفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كله في «آل عِمران». وقال طارق بن شهاب: قال قوم من أهل الحيرة لعمر رضي الله عنه: أرأيت قول الله عز وجل: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فأين النار؟ فقال لهم عمر: أرأيتم الليل إذا وَلَّى وجاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزعت بما في التوراة مثله. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ شرط الإيمان لا غير، وفيه تقوية الرجاء. وقد قيل: شرط الإيمان هنا وزاد عليه في «آل عمران» فقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي إن الجنة لا تُنال ولا تُدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله. وقد مضى هذا في «الأعراف» وغيرها. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: القحط وقلة النبات والثمار. وقيل: الجوائح في الزرع. ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ بالأوصاب والأسقام؛ قاله قتادة. وقيل: إقامة الحدود؛ قاله ابن حيان. وقيل: ضيق المعاش؛ وهذا معنى رواه ابن جريج. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ الضمير في «نَبْرَأَهَا» عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع. وقال ابن عباس: من قبل أن يخلق المصيبة. وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي خَلْق ذلك وحِفْظ جميعه ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ هيّن. قال الربيع بن صالح: لما أخِذ سعيد بن جبير رضي الله عنه بَكَيت؛ فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لما أرى بك ولما تذهب إليه. قال: فلا تبك فإنه كان في علم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ الآية. وقال ابن عباس: لما خلق الله القلم قال له اكتب، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. ولقد ترك لهذه الآية جماعةٌ من الفضلاء الدواء في أمراضهم فلم يستعملوه ثقة بربهم وتوكّلاً عليه، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا؛ قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾. وقد قيل: إن هذه الآية تتصل بما قبل، وهو أن الله سبحانه هوّن عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قتلٍ وجرح. وبيّن أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكل مكتوب مقدّر لا مدفع له، وإنما على المرء امتثال الأمر، ثم أدبهم فقال هذا: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق؛ وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فُرِغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه. وعن ابن مسعود أن نبيّ الله ﷺ قال:

[٥٨٣٢] «لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» ثم قرأ ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي من الدنيا؛ قاله ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: من العافية والخصب. وروى عِكرمة عن ابن عباس: ليس مِن أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً. والحزن والفرح المنهيّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز؛

[٥٨٣٢] ذكره أبو داود.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي متكبر بما أوتي من الدنيا، فخور به على الناس. وقراءة العامة «آتَاكُمْ» بمد الألف أي أعطاكم من الدنيا. وٱختاره أبو حاتم. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو «أَتَاكُمْ» بقصر الألف وٱختاره أبو عبيد. أي جاءكم، وهو معادل لـ«ـفَاتَكُمْ» ولهذا لم يقل أفاتكم. قال جعفر بن محمد الصادق: يا بن آدم ما لك تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفوت، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت. وقيل لبزرجمهر: أيها الحكيم! ما لك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آت؟ قال: لأن الفائت لا يتلافى بالْعِبْرَةِ، والآتي لا يستدام بالحَبْرَةِ. وقال الفضيل بن عِياض في هذا المعنى الدنيا مُبيد ومُفيد؛ فما أباد فلا رجعة له، وما أفاد آذن بالرحيل. وقيل: المختال الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار، وكلاهما شِرك خفيّ. والفخور بمنزلة المُصَرَّاةِ تُشَدّ أخلافهما ليجتمع فيها اللبن، فيتوهم المشتري أنّ ذلك معتاد وليس كذلك؛ فكذلك الذي يرى من نفسه حالاً وزينةً وهو مع ذلك مدّع فهو الفخور.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ أي لا يحب المختالين ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ فـ«ـالَّذِينَ» في موضع خفض نعتاً للمختال. وقيل: رفع بابتداء أي الذين يبخلون فالله غنيٌّ عنهم. قيل: أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمد ﷺ التي في كتبهم؛ لِئلا يؤمن به الناس فتذهب مأكلتهم؛ قاله السدي والكلبي. وقال سعيد بن جبير: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ يعني بالعلم ﴿ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ أي بألاّ يعلّموا الناس شيئاً. زيد بن أسلم: إنه البخل بأداء حقّ الله عز وجل. وقيل: إنه البخل بالصدقة والحقوق؛ قاله عامر بن عبد الله الأشعريّ. وقال طوس: إنه البخل بما في يديه. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. وفرّق أصحاب الخواطِر بين البخل والسخاء بفرقين: أحدهما أن البخيل الذي يلتذ بالإمساك. والسخيّ الذي يلتذ بالإعطاء. الثاني: أن البخيل الذي يعطي عند السؤال، والسخيّ الذي يعطي بغير سؤال. ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ غنيّ عنه. ويجوز أن يكون لما حثّ على الصدقة أعلمهم أن الذين يبخلون بها ويأمرون الناس بالبخل بها فإن الله غنيّ عنهم. وقراءة العامة ﴿ بِٱلْبُخْلِ ﴾ بضم الباء وسكون الخاء. وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وَٱبن محيصن وحمزة والكسائي «بِالْبَخَلِ» بفتحتين وهي لغة الأنصار. وقرأ أبو العالية وٱبن السَّمَيْقع «بِالْبَخْل» بفتح الباء وإسكان الخاء. وعن نصر بن عاصم «الْبُخُلِ» بضمتين وكلها لغات مشهورة. وقد تقدّم الفرق بين البخل والشحّ في آخر «آل عمران».

وقرأ نافع وٱبن عامر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ بغير «هُوَ». والباقون «هُوَ الْغَنِيُّ»

على أن يكون فصلاً. ويجوز أن يكون مبتدأ و«الْغَنِيُّ» خبره والجملة خبر إن. ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلاً؛ لأن حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات البيّنة والشرائع الظاهرة. وقيل: الإخلاص لله تعالى في العبادة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ بذلك دعت الرسل: نوح فمن دونه إلى محمد ﷺ. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي الكتب؛ أي أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ قال ابن زيد: هو ما يوزن به ويتعامل ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل في معاملاتهم. وقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يدل على أنه أراد الميزان المعروف. وقال قوم: أراد به العدل. قال القشيري: وإذا حملناه على الميزان المعروف، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان فهو من باب:

* عَلَفْتُهَا تبناً وماءً بارداً *

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن: ٧] ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩] وقد مضى القول فيه. ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ روى عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

[٥٨٣٣] «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح». وروى عكرمة عن ابن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام: الحجر الأسود وكان أشد بياضاً من الثلج، وعصا موسى وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء: السندان والكَلْبَتان والمِيقَعة وهي المِطرقة؛ ذكره الماوردي. وقال الثعلبي: قال ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدّادين: السَّنْدَان، والْكَلْبَتَان، والمِيقَعة، والمِطْرقة، والإبرة. وحكاه القشيريّ قال: والمِيقَعة ما يحدّد به؛ يقال وَقَعْتُ الحديدةَ أقعها أي حددتها. وفي الصحاح: والمِيقَعة الموضع الذي يألفه البازِي فيقع عليه، وخشبة القَصّار التي يَدقّ عليها، والمِطْرقة والمِسنّ الطويل. وروي أن الحديد أنزل في يوم الثلاثاء.

[٥٨٣٣] لم أجده.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي لإهراق الدماء. ولذلك نهى عن الفصد والحِجامة في يوم الثلاثاء؛ لأنه يوم جرى فيه الدم. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[٥٨٣٤] «في يوم الثلاثاء ساعةً لا يرقأ فيها الدم». وقيل: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي أنشأناه وخلقناه؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء. وقال أهل المعاني: أي أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني السلاح والكُرَاع والجُنة. وقيل: أي فيه من خشية القتل خوف شديد. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد: يعني جُنَّة. وقيل: يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي أنزل الحديد ليعلم من ينصره. وقيل: هو عطف على قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب، وهذه الأشياء؛ ليتعامل الناس بالحق، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ وليرى الله من ينصر دينه ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال ابن عباس: ينصرونهم لا يكذبونهم، ويؤمنون بهم «بِالْغَيْبِ» أي وهم لا يرونهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ «قَوِيٌّ» في أخذه «عَزِيزٌ» أي منيع غالب. وقد تقدّم. وقيل: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ بالإخلاص.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ فصّل ما أجمل من إرسال الرّسل بالكتب، وأخبر أنه أرسل نوحاً وإبراهيم وجعل النبوّة في نسلهما ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء، وبعضهم أمماً يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. وقال ابن عباس: الكتاب الخط بالقلم ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من ائتمّ بإبراهيم ونوح ﴿مُّهْتَدٍ﴾. وقيل: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ أي من ذريتهما مهتدون. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٢٦﴾ كافرون خارجون عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٢٧﴾.

فيه أربع مسائل:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي على آثار الذرية. وقيل: على آثار نوح وإبراهيم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم

[٥٨٣٤] تقدم تخريجه.

﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه. وتقدّم ٱشتقاقه في أوّل سورة «آل عمران».

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ على دينه يعني الحواريين وأتباعهم ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أي مودّة فكان يواد بَعضهم بعضاً. وقيل: هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرّفوا الكلِم عن مواضعه. والرأفة اللين، والرحمة الشفقة. وقيل: الرأفة تخفيف الكَلّ، والرحمة تحمُّل الثقل. وقيل: الرأفة أشد الرحمة. وتم الكلام. ثم قال: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أي من قِبل أنفسهم. والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل؛ قال أبو علي: وٱبتدعوها رهبانية ٱبتدعوها. وقال الزجاج: أي ٱبتدعوها رهبانية؛ كما تقول رأيت زيداً وعمراً كلّمت. وقيل: إنه معطوف على الرأفة والرحمة؛ والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيّروا وٱبتدعوا فيها. قال الماوردي: وفيها قراءتان؛ إحداهما بفتح الراء وهي الخوف من الرَّهب. الثانية بضم الراء وهي منسوبة إلى الرُّهبان كالرُّضْوانية من الرُّضْوان؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع؛ وذلك أن ملوكهم غيّروا وبَدّلوا وبقي نفر قليل فترهّبوا وتبتّلوا. قال الضحاك: إن ملوكاً بعد عيسى عليه السلام ٱرتكبوا المحارم ثلاثمائة سنة، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم، فقال قوم بقوا بعدهم: نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم، فٱعتزلوا الناس وٱتخذوا الصوامع. وقال قتادة: الرهبانية التي ٱبتدعوها رفض النساء وٱتخاذ الصوامع. وفي خبر مرفوع: «هي لحوقهم بالبراري والجبال». ﴿ مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها؛ قاله ٱبن زيد. وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ أي ما أمرناهم إلا بما يرضي الله؛ قاله ٱبن مسلم. وقال الزجاج: ﴿ مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ معناه لم نكتب عليهم شيئاً البتّة. ويكون ﴿ ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ بدلاً من الهاء والألف في «كتَبْنَاهَا» والمعنى: ما كتبناها عليهم إلا ٱبتغاء رضوان الله. وقيل: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ ﴾ الاستثناء منقطع، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن ٱبتدعوها ٱبتغاء رضوان الله. ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي فما قاموا بها حقّ القيام. وهذا خصوص؛ لأن الذين لم يرعوها بعض القوم، وإنما تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤] وهذا في قوم أدّاهم الترهب إلى طلب الرياسة في آخر الأمر. وروى سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس في قوله

تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ قال: كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعون إلى دين الله تعالى، فقال أناس لملكهم: لو قتلت هذه الطائفة، فقال المؤمنون: نحن نكفيكم أنفسنا. فطائفة قالت: ٱبنوا لنا أسطوانة ٱرفعونا فيها، وأعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم. وقالت طائفة: دعونا نهيم في الأرض ونسيح، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرية، فإذا قدرتم علينا فٱقتلونا. وطائفة قالت: ٱبنوا لنا دُوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا تروننا. وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا، فمضى أولئك على منهاج عيسى، وخلف قوم من بعدهم ممن قد غيّر الكتاب فقالوا: نسيح ونتعبّد كما تعبد أولئك، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان مَن تقدّم من الذين ٱقتدوا بهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ الآية. يقول: ٱبتدعها هؤلاء الصالحون ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ المتأخرون ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني الذين ٱبتدعوها أوّلاً ورَعوها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يعني المتأخرين، فلما بعث الله محمداً ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل، جاؤوا من الكهوف والصَّوامع والغِيران فآمنوا بمحمد ﷺ.

الثالثة: وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة، فينبغي لمن ٱبتدع خيراً أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآية. وعن أبي أمامة الباهلي ـ وٱسمه صُدَيّ بن عجلان ـ قال: أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم، إنما كتب عليكم الصيام، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه، فإن ناساً من بني إسرائيل ٱبتدعوا بِدعاً لم يكتبها الله عليهم ٱبتغوا بها رضوان الله فما رَعَوها حق رعايتها، فعابهم الله بتركها فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

الرابعة: وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيّر الأصدقاء والإخوان. وقد مضى بيان هذا في سورة «الكهف» مستوفًى والحمد لله. وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال:

[٥٨٣٥] خرجنا مع رسول الله ﷺ في سَرِيَّة من سراياه فقال: مَرَّ رجلٌ بغار فيه شيء من ماء، فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما

[٥٨٣٥] أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٦ـ٢٦٧ برقم ٢١٧٨٨ من حديث أبي أمامة، وإسناده ضعيف فيه علي بن زيد وشيخه القاسم بن عبد الرحمن قال أحمد: حدث علي عن القاسم بالأعاجيب ولا أراها إلا من قبل القاسم اهـ راجع الميزان فالخبر واه ولبعضه شواهد.

حوله من البقل ويتخلّى عن الدنيا. قال: لو أني أتيت النبيّ ﷺ فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبيّ الله! إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا. قال: فقال النبيّ ﷺ: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لَغَدْوة أو رَوْحَةٌ في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدهم في الصف الأوّل خير من صلاته ستين سنة». وروى الكوفيون عن ابن مسعود، قال:

[٥٨٣٦] قال لي رسول الله ﷺ: «هل تدري أيّ الناس أعلم» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصراً في العمل وإن كان يزحف على أسته هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبق للدين أحد يدعون إليه فتعالوا نفترق في الأرض إلى أن يبعث الله النبيّ الأميّ الذي وعدنا عيسى ـ يعنون محمداً ﷺ ـ فتفرقوا في غِيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ـ وتلا ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ الآية ـ أتدري ما رهبانية أمتي الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع يا بن مسعود اختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها واختلف مَن كان قبلكم من النصارى على اثنتين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى ـ عليه السلام ـ حتى قتلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهراني قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهراني قومهم فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهي التي قال الله تعالى فيهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ ـ الآية ـ فمن آمن بي واتبعني وصدّقني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون» يعني الذين تهوّدوا وتنصروا. وقيل: هؤلاء الذين أدركوا محمداً ﷺ فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون. وفي الآية تسلية للنبيّ ﷺ؛ أي إن الأولين أصروا على الكفر أيضاً فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ

[٥٨٣٦] ضعيف. أخرجه الحاكم ٢/ ٤٨٠ والطبري ٣٣٦٧٧ والبيهقي في «الشعب» ٩٥١٠ من حديث ابن مسعود وإسناده ضعيف فيه عقيل بن يحيى الجعدي قال البخاري: منكر الحديث؛ قاله الذهبي في التلخيص.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي آمنوا بموسى وعيسى ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ بمحمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ وقد تقدم القول فيه. والكِفل الحظ والنصيب وقد مضى في «النساء» وهو في الأصل كِساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط؛ قاله ٱبن جريج. ونحوه قال الأزهري، قال: ٱشتقاقه من الكِساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه إذا ٱرتدفه لئلا يسقط؛ فتأويله يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي كما يحفظ الكِفل الراكب. وقال أبو موسى الأشعري: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ ضعفين بلسان الحبشة. وعن ٱبن زيد: ﴿مِن﴾ أجر الدنيا والآخرة. وقيل: لما نزلت ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ ٱفتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبيّ ﷺ فنزلت هذه الآية. وقد ٱستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحسنة إنما لها من الأجر مِثْل واحد؛ فقال: الحسنة ٱسم عام ينطلق على كل نوع من الإيمان، وينطلق على عمومه، فإذا ٱنطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليها من الثواب إلا مِثْل واحد. وإن ٱنطلقت على حسنة تشتمل على نوعين كان الثواب عليها مثلين؛ بدليل هذه الآية فإنه قال: ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ والكفل النصيب كالمثل، فجعل لمن ٱتقى الله وآمن برسوله نصيبين؛ نصيباً لتقوى الله ونصيباً لإيمانه برسوله. فدل على أن الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صفته عشرة أنواع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية بكمالها. فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها فيكون لكل نوع منها مِثْل. وهذا تأويل فاسد، لخروجه عن عموم الظاهر، في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] بما لا يحتمله تخصيص العموم، لأن ما جمع عشر حسنات فليس يُجزَى عن كل حسنة إلا بمثلها. وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها والأخبار دالة عليه. وقد تقدم ذكرها. ولو كان كما ذكر لما كان بين الحسنة والسيئة فرق. ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ أي بياناً وهدًى، عن مجاهد. وقال ٱبن عباس: هو القرآن. وقيل: ضياء ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ في الآخرة على الصراط، وفي القيامة إلى الجنة. وقيل تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام فتكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها. وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد عليه السلام. وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله، لا الرياسة الحقيقية

في الدين. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي ليعلم، و«أن لا» صلة زائدة مؤكدة؛ قاله الأخفش. وقال الفراء: معناه لأن يعلم و«لا» صلة زائدة في كل كلام دخل عليه جَحْد. قال قتادة: حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي لأن يعلم أهل الكتاب أنهم ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾. وقال مجاهد: قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبيّ يقطع الأيدي والأرجل. فلما خرج من العرب كفروا فنزلت: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ أي ليعلم أهل الكتاب ﴿أَنْ لاَ يَقْدِرُونَ﴾ أي أنهم لا يقدرون؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ [طه: ٨٩]. وعن الحسن: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وروي ذلك عن ٱبن مجاهد. وروى قُطْرُب بكسر اللام وإسكان الياء. وفتح لام الجر لغة معروفة. ووجه إسكان الياء أنّ همزة «أَنْ» حذفت فصارت «لَنْ» فأدغمت النون في اللام فصار «لِلاَّ» فلما ٱجتمعت اللامات أبدلت الوسطى منها ياء؛ كما قالوا في أمّا: أيْمَا. وكذلك القول في قراءة من قرأ «لِيْلاَ» بكسر اللام إلا أنه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها فهو أقوى من هذه الجهة. وعن ٱبن مسعود «لِكَيْلاَ يَعْلَمَ» وعن حِطّان بن عبد الله «لأَنْ يَعْلَمَ». وعن عِكرمة «لِيَعْلَمَ» وهو خلاف المرسوم. ﴿مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: الإسلام. وقيل: الثواب. وقال الكلبي: من رزق الله. وقيل: نعم الله التي لا تحصى. ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ ليس بأيديهم فيصرفون النبوّة عن محمد ﷺ إلى من يحبون. وقيل: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي هو له ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾. وفي البخاري: حدثنا الحكم بن نافع، قال حدثنا شعيب عن الزهري، قال أخبرني سالم بن عبد الله، أن عبد الله بن عمر قال:

[٥٨٣٧] سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى ٱنتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاءِ أقل عملاً وأكثر أجراً قال: هل ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلي أوتيه من أشاء» في رواية: «فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا» الحديث ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

تم تفسير سورة «الحديد» والحمد لله.

[٥٨٣٧] صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٧ و٢٢٦٩ و٧١٧٣ و٧٤٦٧ والطيالسي ١٨٢٠ وأحمد ٢/ ٦ ـ ١١١ والترمذي ٢٨٧١ وابن حبان ٦٦٣٩ من حديث ابن عمر.

تفسير سورة المجادلة

وهي ٱثنتان وعشرون آية

مدنية في قول الجميع. إلا رواية عن عطاء: أن العشر الأول منها مدنيّ وباقيها مكيّ، وقال الكلبي: نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ نزلت بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ①﴾.

فيه مسألتان:

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ التي ٱشتكت إلى الله هي خَوْلَة بنت ثعلبة. وقيل بنت حكيم. وقيل ٱسمها جميلة. وخَوْلَة أصح؛ وزوجها أَوْس بن الصَّامِت أخو عُبَادة بن الصامت، وقد مرّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فٱستوقفته طويلاً ووعظته وقالت: يا عمر قد كنت تدعى عُمَيْراً، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين؛ فٱتق الله يا عمر؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب؛ وهو واقف يسمع كلامها؛ فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: والله لو حبستني من أوّل النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خَوْلَة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع ربّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟ وقالت عائشة رضي الله عنها:

[٥٨٣٨] تبارك الذي وسِع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خَوْلَة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ؛ وهي تقول: يا رسول الله! أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وٱنقطع ولدي ظاهر مني؛ اللهم إني أشكو إليك! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا

[٥٨٣٨] صحيح. أخرجه النسائي ٦/ ٤٦ وابن ماجه ٢٠٦٣ والحاكم ٢/ ٤٨١ والبيهقي ٧/ ٣٨٢ والطبري ٣٣٧٢٧ من حديث عائشة وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خرجه ٱبن ماجه في السنن. والذي في البخاري من هذا عن عائشة قالت:

[٥٨٣٩] الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾. وقال الماوردي: هي خَوْلَة بنت ثعلبة. وقيل: بنت خويلد. وليس هذا بمختلف؛ لأن أحدهما أبوها والآخر جِدّها فنسبت إلى كل واحد منهما. وزوجها أَوْس بن الصَّامِت أخو عُبَادة بن الصَّامت. وقال الثعلبي قال ٱبن عباس: هي خَوْلة بنت خويلد الخزرجية، كانت تحت أَوس بن الصَّامت أخو عُبَادة بن الصامت، وكانت حسنة الجِسم؛ فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها، فلما ٱنصرفت أرادها فأبت فغضب عليها ـ قال عُرْوة[١]: وكان ٱمرأً به لَمَم[٢] فأصابه بعض لَمَمِه فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي[٣]. وكان الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية، فسألت النبيّ ﷺ فقال لها: «حرِمت عليه» فقالت: والله ما ذكر طلاقاً؛ ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وٱبن عمي وقد نفضت له بطني؛ فقال: «حرِمت عليه» فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية. وروى الحسن: أنها قالت: يا رسول الله! قد نسخ الله سننِ الجاهلية وإن زوجي ظاهر مني؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليّ في هذا شيء» فقالت: يا رسول الله، أوحي إليك في كل شيء وطُوِي عنك هذا؟! فقال: «هو ما قلت لكِ» فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله. فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية. وروى الدَّارَقُطْنِيّ من حديث قتادة أن أنس بن مالك حدّثه قال:

[٥٨٤٠] إن أَوْس بن الصَّامت ظاهر من ٱمرأته خُوَيْلة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقالت: ظاهر حين كبِرت سنّي ورقّ عظمي. فأنزل الله تعالى آية الظهار،

[٥٨٣٩] أخرجه البخاري ١٣/ ٣٧٢ عن عائشة تعليقاً ووصله الطبري ٣٣٧٢٥ و٣٣٧٢٦ و٣٣٧٢٨ من طرق عن عروة عن عائشة به وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات.

[٥٨٤٠] أخرجه الدارقطني ٣/ ٣١٦ والواحدي ٧٩٠ من حديث أنس وفيه سعيد بن بشير ضعيف الحديث لكن للحديث شواهد.

---

(١) عروة هو ابن الزبير الراوي عن عائشة وقد أسنده الطبري ٣٣٧٢٩ عن عروة عن عائشة وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) اللمم: طرف من الجنون.

(٣) يلاحظ أن المصنف أقحم أثر عروة في أثناء حديث ابن عباس الذي رواه الثعلبي.

فقال رسول الله ﷺ لأوس: «أعتق رقبة» قال: مالي بذلك يدان. قال: «فصم شهرين متتابعين» قال: أما إني إذا أخطأني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكِلّ بصري. قال: «فأطعم ستين مسكيناً» قال: ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة. قال: فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً حتى جمع الله له والله غفور رحيم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ قال: فكانوا يرون أن عنده مثلها وذلك لستين مسكيناً، وفي الترمذيّ وسنن ٱبن ماجه:

[٥٨٤١] أن سلمة بن صخر البياضيّ ظاهر من ٱمرأته، وأن النبيّ ﷺ قال له: «أعتق رقبة» قال: فضربت صفحة عنقي بيدي. فقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: «فصم شهرين» فقلت: يا رسول الله! وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: «فأطعم ستين مسكيناً» الحديث. وذكر ٱبن العربي في أحكامه: روي:

[٥٨٤٢] أن خولة بنت دليج ظاهر منها زوجها، فأتت النبيّ ﷺ فسألته عن ذلك. فقال النبيّ ﷺ: «قد حرمت عليه» فقالت: أشكو إلى الله حاجتي. ثم عادت فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه» فقالت: إلى الله أشكو حاجتي إليه وعائشة تغسل شق رأسه الأيمن، ثم تحوّلت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحي، فذهبت أن تعيد، فقالت عائشة: ٱسكتي فإنه قد نزل الوحي. فلما نزل القرآن قال رسول الله ﷺ لزوجها: «أعتق رقبة» قال: لا أجد. قال: «صم شهرين متتابعين» قال: إن لم آكل في اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصري. قال: «فأطعم ستين مسكيناً». قال: فأعني. فأعانه بشيء. قال أبو جعفر النحاس: أهل التفسير على أنها خولة وزوجها أَوْس بن الصّامت، وٱختلفوا في نسبها، قال بعضهم: هي أنصارية وهي بنت ثعلبة، وقال بعضهم: هي بنت دليج، وقيل: هي بنت خُوَيلد، وقال بعضهم: هي بنت الصامت، وقال بعضهم: هي أَمَة كانت لعبد الله بن أُبيّ، وهي التي أنزل الله فيها ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] لأنه كان يُكرهها على الزنى. وقيل: هي بنت حكيم. قال النحاس: وهذا ليس بمتناقض، يجوز أن تنسب مرةً إلى أبيها، ومرةً إلى أمها، ومرةً إلى جدّها، ويجوز أن تكون أَمة كانت لعبد الله بن أبيّ فقيل لها أنصارية بالولاء؛ لأنه كان في عداد الأنصار وإن كان من المنافقين.

[٥٨٤١] أخرجه الترمذي ٣٢٩٩ مطولا والدارقطني ٣/٣١٧ من حديث سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر به، وحسنه الترمذي وأعله البخاري بالانقطاع فيما نقل الترمذي لكن للحديث طرق أخرى وشواهد وقد تقدم مستوفيا. والله أعلم. راجع الدر ٦/٢٦٧.

[٥٨٤٢] أخرجه الطبري ٣٣٧١٤ عن أبي العالية مرسلاً، وله شواهد كثيرة تقدم بعضها.

[الثانية] قرىء «قَد سَّمِعَ اللَّهُ» بالادغام و«قَدْ سَمِعَ اللَّهُ» بالإظهار. والأصل في السماع إدراك المسموعات، وهو ٱختيار الشيخ أبي الحسن. وقال ٱبن فُورك: الصحيح أنه إدراك المسموع. وقال الحاكم أبو عبد الله في معنى السميع: إنه المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أُذن، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه؛ وإن كان غير موصوف بالحِس المركب في الأذن؛ كالأصم من الناس لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لإدراك الصوت. والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بهما. وشكى وٱشتكى بمعنى واحد. وقرِىء «تُحَاوِرُكَ» أي تراجعك الكلام و«تُجَادِلُكَ» أي تسائلك.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾.

فيه ثلاث وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ**﴾[1] قرأ ٱبن عامر وحمزة والكسائي وخلف «يظَّاهُرونَ» بفتح الياء وتشديد الظاء وألف. وقرأ نافع وٱبن كثير وأبو عمرو ويعقوب «يَظَّهرُونَ» بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء. وقرأ أبو العالية وعاصم وزِرّ بن حُبَيش «يُظاهِرُونَ» بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء. وقد تقدّم هذا في «الأحزاب». وفي قراءة أبَي «يَتَظَاهَرُونَ» وهي معنى قراءة ٱبن عامر وحمزة. وذِكر الظهر كناية عن معنى الركوب، والآدمية إنما يركب بطنها ولكن كنّي عنه بالظهر؛ لأن ما يركب من غير الآدميات فإنما يركب ظهره، فكنّي بالظهر عن الركوب. ويقال: نزل عن ٱمرأته أي طلقها كأنه نزل عن مركوب. ومعنى أنت عليّ كظهر أمّي: أي أنت عليّ محرّمة لا يحلّ لي ركوبك.

الثانية: حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلل بظهرٍ محرّم؛ ولهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي أنه مظاهر. وأكثرهم على أنه إن قال لها: أنت عليّ كظهر ٱبنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر. وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما. وٱختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه؛ فروي عنه نحو قول مالك؛ لأنه شبّه ٱمرأته بظهر محرّم عليه مؤبّد

(١) قراءة نافع.

كالأم. وروى عنه أبو ثور: أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها. وهو مذهب قتادة والشعبي. والأوّل قول الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري.

الثالثة: أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي. وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وستراً. فإن قال: أنت عليّ كأمي ولم يذكر الظهر، أو قال: أنت عليّ مثل أمي؛ فإن أراد الظهار فله نيته، وإن أراد الطلاق كان مطلقاً الْبَتَّةَ عند مالك، وإن لم تكن له نية في طلاق ولا ظهار كان مظاهراً. ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق؛ كما لا ينصرف صريح الطلاق وكنايته المعروفة له إلى الظهار، وكناية الظهار خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق الْبَتّ.

الرابعة: ألفاظ الظهار ضربان: صريح وكناية؛ فالصريح أنت عليّ كظهر أمي، وأنت عندي وأنتِ مني وأنتِ معي كظهر أمي. وكذلك أنت عليّ كبطن أمي أو كرأسها أو فرجها أو نحوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك عليّ كظهر أمي فهو مظاهر؛ مثل قوله: يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليه. وقال الشافعي في أحد قوليه: لا يكون ظهاراً. وهذا ضعيف منه؛ لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصة حقيقة خلافاً لأبي حنيفة فصح إضافة الظهار إليه. ومتى شبهها بأمه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف. وإن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التي لا تحل له بحال كالبنت والأخت والعمة والخالة كان مظاهراً عند أكثر الفقهاء، وعند الإمام الشافعي رضي الله عنه على الصحيح من المذهب على ما ذكرنا. والكناية أن يقول: أنت عليّ كأمي أو مثل أمي فإنه يعتبر فيه النية. فإن أراد الظهار كان ظهاراً، وإن لم يرد الظهار لم يكن مظاهراً عند الشافعي وأبي حنيفة. وقد تقدّم مذهب مالك رضي الله عنه في ذلك؛ والدليل عليه أنه أطلق تشبيه امرأته بأمّه فكان ظهاراً. أصله إذا ذكر الظهر وهذا قوي فإن معنى اللفظ فيه موجود ـ واللفظ بمعناه ـ ولم يلزم حكم الظهر للفظه وإنما ألْزِمَه بمعناه وهو التحريم؛ قاله ابن العربي.

الخامسة: إذا شبه جملة أهله بعضو من أعضاء أمّه كان مظاهراً؛ خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إنه إن شبهها بعضو يحلّ له النظر إليه لم يكن مظاهراً. وهذا لا يصح؛ لأن النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحل له، وفيه وقع التشبيه وإياه قصد المظاهر؛ وقد قال الإمام الشافعي في قول: إنه لا يكون ظهاراً إلا في الظهر وحده. وهذا فاسد؛ لأن كل عضو منها محرّم، فكان التشبيه به ظهاراً كالظهر؛ ولأن المظاهر إنما يقصد تشبيه المحلل بالمحرم فلزم على المعنى.

السادسة: إن شبه امرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهاراً حملاً على الأوّل، وإن

لم يذكر الظهر فاختلف فيه علماؤنا؛ فمنهم من قال: يكون ظهاراً. ومنهم من قال: يكون طلاقاً. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يكون شيئاً. قال ٱبن العربي: وهذا فاسد؛ لأنه شبه محللا من المرأة بمحرم فكان مقيَّداً بحكمه كالظهر، والأسماء بمعانيها عندنا، وعندهم بألفاظها وهذا نقض للأصل منهم.

قلت: الخلاف في الظهار بالأجنبية قوي عند مالك. وأصحابه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصم ولا يرى الظهار بغيرهن. ومنهم من لا يجعله شيئاً. ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقاً. وهو عند مالك إذا قال: كظهر ٱبني أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لا يحل له وطؤها في حين يمينه. وقد روي عنه أيضاً: أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء؛ كما قال الكوفي والشافعي. وقال الأوزاعي: لو قال لها أنت عليّ كظهر فلان رجل فهو يمين يكفرها. والله أعلم.

السابعة: إذا قال: أنت عليّ حرام كظهر أمي كان ظهاراً ولم يكن طلاقاً؛ لأنّ قوله: أنت حرام عليّ يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة، ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيراً لأحد الاحتمالين يقضي به فيه.

الثامنة: الظهار لازم فيكل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه. وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يلزم. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وهي مسألة عسيرة جدًّا علينا؛ لأن مالكاً يقول: إذا قال لأمته أنت عليّ حرام لا يلزم. فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته. ولكن تدخل الأمَة في عموم قوله: ﴿مِّن نِّسَآئِهِمْ﴾ لأنه أراد من محللاتهم. والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبُضع دون رفع العقد فصح في الأمة؛ أصله الحلف بالله تعالى.

التاسعة: ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك. ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِهِمْ﴾ وهذه ليست من نسائه. وقد مضى أصل هذه المسألة في سورة «براءة» عند قوله تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥] الآية.

العاشرة: الذمي لا يلزم ظهاره. وبه قال أبو حنيفة. وقال الشافعي: يصح ظهار الذمي؛ ودليلنا قوله تعالى: ﴿مِنكُم﴾ يعني من المسلمين. وهذا يقتضي خروج الذميّ من الخطاب. فإن قيل: هذا ٱستدلال بدليل الخطاب. قلنا: هو ٱستدلال بٱلاشتقاق والمعنى، فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ فلا يتعلق بها حكم طلاقٍ ولا ظِهار،

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهي فاسدة، ولا ظهار في النكاح الفاسد بحال.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يقتضي صحة ظهار العبد خلافاً لمن منعه. وحكاه الثعلبي عن مالك، لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح في حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام.

الثانية عشرة: وقال مالك رضي الله عنه: ليس على النساء تظاهر، وإنما قال الله تعالى: ﴿والَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ[1] مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ ولم يقل اللائي يظهرن منكن من أزواجهن، إنما الظهار على الرجال. قال ٱبن العربي: هكذا روي عن ٱبن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبي الزناد. وهو صحيح معنًى؛ لأن الحل والعقد والتحليل والتحريم في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء وهذا إجماع. قال أبو عمر: ليس على النساء ظهار في قول جمهور العلماء. وقال الحسن بن زياد: هي مظاهرة. وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمد: ليس ظهار المرأة من الرجل بشيء قبل النكاح كان أو بعده. وقال الشافعي: لا ظهار للمرأة من الرجل. وقال الأوزاعي: إذا قالت المرأة لزوجها: أنت عليّ كظهر أمّي فلانة فهي يمين تكفِّرُهَا. وكذلك قال إسحاق: قال: لا تكون ٱمرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفرها. وقال الزهري: أرى أن تكفر كفارة الظهار، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها؛ رواه عنه معمر. وابن جريج عن عطاء قال: حرمت ما أحل الله، عليها كفارة يمين. وهو قول أبي يوسف. وقال محمد بن الحسن: لا شيء عليها.

الثالثة عشرة: من به لَمَمٌ وٱنتظمت له في بعض الأوقات الكلم إذا ظاهر لزم ظهاره؛ لما روي في الحديث: أن خَوْلَة بنت ثعلبة وكان زوجها أَوْس بن الصّامت وكان به لَمَم فأصابه بعض لَمَمِه فظاهر من ٱمرأته.

الرابعة عشرة: من غضب وظاهر من امرأته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه. وفي بعض طرق هذا الحديث، قال يوسف بن عبد الله بن سلام: حدّثتني خَوْلَة ٱمرأة أَوْس بن الصّامت، قالت: كان بيني وبينه شيء، فقال: أنت عليّ كظهر أمي ثم خرج إلى نادي قومه. فقولها: كان بيني وبينه شيء؛ دليل على منازعة أحرجته فظاهر منها. والغضب لغو لا يرفع حكماً ولا يغيِّر شرعاً وكذلك السكران. وهي:

الخامسة عشرة: يلزمه حكم الظهار والطلاق في حال سكره إذا عقَل قولَه ونظَم

(١) قراءة نافع وعليها جرىٰ المصنف.

كلامَه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] على ما تقدم في «النساء» بيانه. والله أعلم.

السادسة عشرة: ولا يقرب المظاهر ٱمرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشيء حتى يكفّر، خلافاً للشافعي في أحد قوليه؛ لأن قوله: أنت عليّ كظهر أمي يقتضي تحريم كل ٱستمتاع بلفظه ومعناه، فإن وطئها قبل أن يكفّر، وهي:

السابعة عشرة: ٱستغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفّر كفارة واحدة. وقال مجاهد وغيره: عليه كفارتان. روى سعيد عن قتادة، ومطرّف عن رجاء بن حَيْوة عن قَبيصة بن ذؤيب عن عمرو بن العاص في المظاهر: إذا وطىء قبل أن يكفّر عليه كفارتان. ومعمر عن قتادة قال: قال قبيصة بن ذؤيب: عليه كفارتان. وروى جماعة من الأئمة منهم ٱبن ماجه والنسائي عن ٱبن عباس:

[٥٨٤٣] أن رجلاً ظاهر من ٱمرأته فغشيها قبل أن يكفّر فأتى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له فقال: «ما حملك على ذلك» فقال: يا رسول الله! رأيت بياض خلخالها في ضوء القمر فلم أملك نفسي أن وقعت عليها. فضحك النبيّ ﷺ وأمره ألاّ يقربها حتى يكفّر. وروى ٱبن ماجه والدَّارَقُطْني عن سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر أنه ظاهر في زمان النبيّ ﷺ، ثم وقع بٱمرأته قبل أن يكفّر، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأمره أن يكفّر تكفيراً واحداً.

الثامنة عشرة: إذا ظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة؛ كقوله: أنتن عليّ كظهر أمّي كان مظاهراً من كل واحدة منهن، ولم يجز له وطء إحداهن وأجزأته كفارة واحدة. وقال الشافعي: تلزمه أربع كفارات. وليس في الآية دليل على شيء من ذلك؛ لأن لفظ الجمع إنما وقع في عامة المؤمنين والمعوّل على المعنى. وقد روى الدَّارَقُطْنيّ عن ٱبن عباس قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه في كل واحدة منهن كفارة. وهذا إجماع.

التاسعة عشرة: فإن قال لأربع نسوة: إن تزوجتكن فأنتن عليّ كظهر أمي فتزوّج إحداهن لم يقربها حتى يكفّر، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهن. وقد قيل: لا يطأ البواقي منهن حتى يكفر. والأوّل هو المذهب.

[٥٨٤٣] حسن. أخرجه أبو داود ٢٢٢٣ والترمذي ١١٩٩ وابن ماجه ٢٠٦٥ والحاكم ٢/ ٢٠٤ من حديث ابن عباس، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب اهـ وفيه الحكم بن أبان فيه كلام لكن توبع عند الحاكم وغيره.

الموفية عشرين: وإن قال لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي وأنت طالق البَتّة[1]؛ لزمه الطلاق والظهار معاً، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفّر، فإن قال لها: أنت طالق البتة وأنت عليّ كظهر أمي لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار؛ لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق.

الحادية والعشرون: قال بعض العلماء: لا يصح ظهار غير المدخول بها. وقال المزني: لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية، وهذا ليس بشيء؛ لأن أحكام الزوجية في الموضعين ثابتة، وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياساً ونظراً. والله أعلم.

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ أي ما نساؤهم بأمهاتهم. وقراءة العامة ﴿أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ بخفض التاء على لغة أهل الحجاز؛ كقوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]. وقرأ أبو معمر والسلمي وغيرهما «أُمَّهَاتُهُمْ» بالرفع على لغة تميم. قال الفراء: أهل نجد وبنو تميم يقولون «مَا هَذَا بَشَرٌ»، و«مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ» بالرفع. ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي ما أمهاتهم إلا الوالدات. وفي المثل: ولدِك مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ. وقد تقدم القول في اللائي في «الأحزاب».

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي فظيعاً من القول لا يعرف في الشرع. والزور الكذب ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مخلّصة لهم من هذا القول المنكر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾.

فيه اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ هذا ابتداء والخبر ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه؛ أي فعليهم تحرير رقبة. وقيل: أي فكفارتهم عتق رقبة. والمجمع عليه عند العلماء في الظهار قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي. وهو قول المنكر والزور الذي عنى الله بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ فمن قال هذا القول حرم عليه وطء امرأته. فمن عاد لما قال لزمته كفارة الظهار؛

---

(١) مراده بالبتة هنا الثلاث.

لقوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ وهذا يدل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العَوْد، وهذا حرف مشكل ٱختلف الناس فيه على أقوال سبعة: الأوّل: أنه العزم على الوطء، وهو مشهور قول العراقيين أبي حنيفة وأصحابه. وروي عن مالك: فإن عزم على وطئها كان عَوْداً، وإن لم يعزم لم يكن عَوْداً. الثاني: العزم على الإمساك بعد التظاهر منها؛ قاله مالك. الثالث: العزم عليهما. وهو قول مالك في موطئه؛ قال مالك في قول الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ ﴾ قال: سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من ٱمرأته ثم يجمع على إصابتها وإمساكها؛ فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلّقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه. قال مالك: وإن تزوّجها بعد ذلك لم يمسها حتى يكفّر كفارة التظاهر. القول الرابع: أنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عَوْداً؛ قاله الحسن ومالك أيضاً. الخامس: وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق؛ لأنه لما ظاهر قصد التحريم، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ٱبتدأه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه. وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة. السادس: أن الظهار يوجب تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة. ومعنى العَود عند القائلين بهذا: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد. السابع: هو تكرير الظهار بلفظه. وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس، قالوا: إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العَوْد، وإن لم يكرر فليس بِعَود. ويسند ذلك إلى بكير بن الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة أيضاً، وهو قول الفراء. وقال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له؛ لأنه قال: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ ﴾ أي إلى قول ما قالوا. وروى عليّ بن أبي طلحة عن ٱبن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَالذِّين يَظَّهَّرُونَ[1] مِن نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ هو أن يقول لها أنت عليّ كظهر أمي. فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفّر كفارة الظهار. قال ٱبن العربي: فأما القول بأنه العَوْد إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعاً لا يصح عن بكير، وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه. وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لِعَود القول منهم، وأيضاً فإن المعنى ينقضه؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة، وهذا لا يعقل؛ ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره.

---

(١) قراءة نافع وعليها جرىٰ المصنف.

قلت: قوله يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حملٌ منه عليه، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم، وأما قول الشافعي: بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات: الأوّل: أنه قال: «ثُمَّ» وهذا بظاهره يقتضي التراخي. الثاني: أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ يقتضي وجود فعل من جهة ومرور الزمان ليس بفعل منه. الثالث: أن الطلاق الرجعي لا ينافي البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء. فإن قيل: فإذا رآها كالأم لم يمسكها إذ لا يصح إمساك الأم بالنكاح. وهذه عمدة أهل ما وراء النهر. قلنا: إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفّر وعاد إلى أهله. وتحقيق هذا القول: أن العزم قولٌ نفسيٌّ، وهذا رجل قال قولاً ٱقتضى التحليل وهو النكاح، وقال قولاً ٱقتضى التحريم وهو الظهار، ثم عاد لما قال وهو التحليل، ولا يصح أن يكون منه ٱبتداء عقد، لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما ٱعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله أنت عليّ كظهر أمي، وإذا كان ذلك كفّر وعاد إلى أهله؛ لقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾. وهذا تفسير بالغ في فنه.

الثانية: قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ إلى ما كانوا عليه من الجماع ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ لما قالوا؛ أي فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا: فالجار في قوله: ﴿لِمَا قَالُوا۟﴾ متعلق بالمحذوف الذي هو خبر الابتداء وهو عليهم؛ قاله الأخفش. وقال الزجاج: المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. وقيل: المعنى الذين كانوا يَظَّهّرون من نسائهم في الجاهلية، ثم يعودون لما كانوا قالوه في الجاهلية في الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة. الفراء: اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء. وقال الأخفش: لما قالوا وإلى ما قالوا واحد، واللام وإلى يتعاقبان؛ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقال: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٣] وقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ٥] وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [هود: ٣٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعليه إعتاق رقبة؛ يقال: حررته أي جعلته حرًّا. ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملةً سليمةً من كل عيب، من كمالها إسلامها عند مالك والشافعي؛ كالرقبة في كفارة القتل. وعند أبي حنيفة وأصحابه تجزي الكافرة ومن فيها شائبة رقٍّ كالمكاتبة وغيرها.

الرابعة: فإن أعتق نصفي عبدين فلا يجزيه عندنا ولا عند أبي حنيفة. وقال الشافعي يجزىء؛ لأن نصف العبدين في معنى العبد الواحد؛ ولأن الكفارة بالعتق طريقها المال فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزي كالإطعام؛ ودليلنا قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وهذا

الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك مما يدخله التلفيق؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها؛ أصله إذا ٱشترك رجلان في أضحيتين؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنه واحد منهما نصفها كذلك هذا؛ ولأنه لو أوصى بأن تشتري رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك في مسألتنا وبهذا يبطل دليلهم. والإطعام وغيره لا يتَجَزَّى في الكفارة عندنا.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أي يجامعها فلا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير. وحكي عن مجاهد: أنه إذا وطىء قبل أن يشرع في التكفير لزمته كفارة أخرى. وعن غيره: أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلاً؛ لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخّرها حتى مسّ فقد فات وقتها. والصحيح ثبوت الكفارة؛ لأنه بوطئه ٱرتكب إثماً فلم يكن ذلك مسقطاً للكفارة، ويأتي بها قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها. وفي حديث أَوْس بن الصامت لما أخبر النبيّ ﷺ بأنه وطىء ٱمرأته أمره بالكفارة[1]. وهذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام. وقال أبو حنيفة: إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم؛ فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم في قول أكثر العلماء. وقاله الحسن وسفيان، وهو الصحيح من مذهب الشافعي. وقيل: وكل ذلك محرّم وكل معاني المسيس؛ وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي. وقد تقدم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ أي تؤمرون به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ من التكفير وغيره.

السابعة: من لم يجد الرقبة ولا ثمنها، أو كان مالكاً لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته، أو كان مالكاً لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئاً سواه، فله أن يصوم عند الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجاً إلى ذلك. وقال مالك: إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة، وهي:

الثامنة: فعليه صوم شهرين متتابعين. فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر ٱستأنفهما، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض، فقيل: يبني؛ قاله ٱبن المسيّب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي. وهو أحد قولي الشافعي وهو الصحيح من مذهبه. وقال

(١) راجع الطبري ٣٣٧٣٠ والدارقطني ٣/٣١٨.

مالك: إنه إذا مرض في صيام كفارة الظهار بنى إذا صح. ومذهب أبي حنيفة رضي الله عنه أنه يبتدىء. وهو أحد قولي الشافعي.

التاسعة: إذا ٱبتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعي؛ لأنه بذلك أمِر حين دخل فيه. ويهدم الصوم ويعتق عند أبي حنيفة وأصحابه؛ قياساً على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل ٱنقضائها، فإنها تستأنف الحيض إجماعاً من العلماء. وإذا ٱبتدأ سفراً في صيامه فأفطر، ٱبتدأ الصيام عند مالك والشافعي وأبي حنيفة؛ لقوله: ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾. ويبني في قول الحسن البصري؛ لأنه عُذر وقياساً على رمضان، فإن تخللها زمان لا يحلّ صومه في الكفارة كالعيدين وشهر رمضان ٱنقطع.

العاشرة: إذا وطىء المتظاهر في خلال الشهرين نهاراً، بطل التتابع في قول الشافعي، وليلاً فلا يبطل؛ لأنه ليس محلاً للصوم. وقال مالك وأبو حنيفة: يبطل بكل حال ووجب عليه ٱبتداء الكفارة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين، وإلى أبعاضهما، فإذا وطىء قبل ٱنقضائهما فليس هو الصيام المأمور به، فلزمه ٱستئنافه؛ كما لو قال: صلِّ قبل أن تكلم زيداً. فكلّم زيداً في الصلاة، أو قال: صلِّ قبل أن تبصر زيداً فأبصره في الصلاة لزمه ٱستئنافها؛ لأن هذه الصلاة ليست هي الصلاة المأمور بها كذلك هذا؛ والله أعلم.

الحادية عشرة: ومن تطاول مرضه طولاً لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبر، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام. ولو كان مرضه مما يرجى برؤه وٱشتدت حاجته إلى وطء ٱمرأته كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام. ولو كفـ ،الاطعام ولم ينتظرُ القدرة على الصيام أجزأه.

الثانية عشرة: ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم. ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفّر صام. وإنما يُنْظر إلى حاله يوم يكفّر. ولو جامعها في عدمه وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق. ولو ٱبتدأ بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى. وإن كان اليوم واليومين ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه. ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم في الصلاة أن يقطع ويبتدىء الطهارة عند مالك.

الثالثة عشرة: ولو أعتق رقبتين عن كفارتي ظهار أو قتل أو فطر في رمضان وأشرك بينهما في كل واحدة منهما لم يجزه. وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين. وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين. وقد قيل: إن

ذلك يجزيه. ولو ظاهر من أمرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها لم يجز له وطء واحدةٍ منهما حتى يكفّر كفارة أخرى. ولو عيّن الكفارة عن إحداهما جاز له أن يطأها قبل أن يكفّر الكفارة عن الأخرى. ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهنّ ثلاث رقاب، وصام شهرين، لم يجزه العتق ولا الصيام؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوماً، فإن كفّر عنهنّ بالإطعام جاز أن يطعم عنهنّ مائتي مسكين، وإن لم يقدر فرّق بخلاف العتق والصيام؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق.

فصل وفيه ست مسائل:

الأولى: ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبةً؛ فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين مُدّان بمُد النبيّ ﷺ. وإن أطعم مدّاً بمد هشام، وهو مدّان إلا ثلثاً، أو أطعم مدّاً ونصفاً بمدّ النبيّ ﷺ أجزأه. قال أبو عمر بن عبد البر: وأفضل ذلك مدّان بمدّ النبيّ ﷺ؛ لأن الله عز وجل لم يقل في كفارة الظهار ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ ﴾ [المائدة: ٨٩] فواجب قصد الشبع. قال أبن العربي: وقال مالك في رواية أبن القاسم وأبن عبد الحكم: مُدّ بمدّ هشام وهو الشبع ههنا؛ لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط. وقال في رواية أشهب: مدّان بمدّ النبيّ ﷺ: قيل له: ألم تكن قلت مدّ هشام؟ قال: بلى، مدّان بمدّ النبيّ ﷺ أحب إليّ. وكذلك قال عنه أبن القاسم أيضاً.

قلت: وهي رواية أبن وهب ومطرّف عن مالك: أنه يعطي مدّين لكل مسكين بمدّ النبيّ ﷺ. وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه. ومذهب الشافعيّ وغيره مدّ واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك؛ لأنه يكفّر بالإطعام ولم يلزمه صرف زيادة على المدّ؛ أصله كفارة الإفطار واليمين. ودليلنا قوله تعالى: ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ وإطلاق الإطعام يتناول الشّبع، وذلك لا يحصل بالعادة بمدّ واحد إلا بزيادة عليه. وكذلك قال أشهب: قلت لمالك أيختلف الشّبع عندنا وعندكم؟ قال نعم! الشّبع عندنا مدّ بمدّ النبيّ ﷺ والشّبع عندكم أكثر؛ لأن النبيّ ﷺ دعا لنا بالبركة دونكم، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن. وقال أبو الحسن القابسي: إنما أخذ أهل المدينة بمدّ هشام في كفارة الظّهار تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكراً من القول وزوراً. قال ابن العربي: وقع الكلام ههنا في مدّ هشام كما ترون، ووددت أن يهشم الزمان ذكره، ويمحو من الكتب رسمه؛ فإن المدينة التي نزل الوحي بها وأستقرّ الرسول بها ووقع عندهم الظهار، وقيل لهم فيه: ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ فهموه وعرفوا المراد به وأنه

الشّبع، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم، وقد ورد ذلك الشّبع في الأخبار كثيراً، وٱستمرّت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين حتى نفخ الشيطان في أذن هشام، فرأى أن مدّ النبيّ ﷺ لا يشبعه، ولا مثله من حواشيه ونظرائه، فسوّل له أن يتخذ مدّاً يكون فيه شبعه، فجعله رطلين وحمل الناس عليه، فإذا ٱبتلّ عاد نحو الثلاثة الأرطال؛ فغيّر السُّنة وأذهب محل البركة. قال النبيّ ﷺ حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة في مدّهم وصاعهم، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة، فكانت البركة تجري بدعوة النبيّ ﷺ في مدّه، فسعى الشيطان في تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة، فلم يستجب له في ذلك إلا هِشام، فكان من حق العلماء أن يلغوا ذكره ويمحوا رسمه إذا لم يغيروا أمره، وأما أن يحيلوا على ذكره في الأحكام، ويجعلوه تفسيراً لما ذكر الله ورسوله بعد أن كان مفسراً عند الصحابة الذين نزل عليهم فخطب جسيم، ولذلك كانت رواية أشهب في ذكر مدّين بمدّ النبيّ ﷺ في كفارة الظهار أحبّ إلينا من الرواية بأنها بمدّ هشام. ألا ترى كيف نبّه مالك على هذا العلم بقوله لأشهب: الشبع عندنا بمدّ النبيّ ﷺ، والشّبع عندكم أكثر لأن النبيّ ﷺ دعا لنا بالبركة. وبهذا أقول، فإن العبادة إذا أُديت بالسنة، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول، وإن كانت بالمال كان قليلها أثقل في الميزان، وأبرك في يد الآخذ، وأطيب في شدقه، وأقل آفة في بطنه، وأكثر إقامة لصلبه. والله أعلم.

الثانية: ولا يجزىء عند مالك والشافعي أن يطعم أقل من ستين مسكيناً. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه.

الثالثة: قال القاضي أبو بكر بن العربي: من غريب الأمر أن أبا حنيفة قال إن الحجر على الحر باطل. وٱحتج بقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ولم يفرق بين الرشيد والسفيه؛ وهذا فقه ضعيف لا يناسب قدره، فإن هذه الآية عامّة، وقد كان القضاء بالحجر في أصحاب رسول الله ﷺ فاشياً والنظر يقتضيه، ومن كان عليه حجر لصغرٍ أو لولاية وبلغ سفيهاً قد نهى عن دفع المال إليه، فكيف ينفذ فعله فيه والخاص يقضي على العام.

الرابعة: وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقاً؛ وقد روي معنى ذلك عن ٱبن عباس وأبي قِلابة وغيرهما.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفارة ﴿لِتُؤْمِنُوا۟﴾ أي لتصدقوا أن الله أمر به. وقد ٱستدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى؛ لما ذكرها وأوجبها قال: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين عند حدوده لا تتعدّوها؛ فسمى

التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيماناً، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان. فإن قيل: معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لئلا تعودوا للظهار الذي هو منكر من القول وزور. قيل له: قد يجوز أن يكون هذا مقصوداً والأول مقصوداً، فيكون المعنى ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور، بل تدعونهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرمهما، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تُكفِّروا؛ إذ كان الله منع من مسيسها، وتكفّروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفّارة وألزم إخراجها منكم؛ فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله؛ لأنها حدود تحفظونها، وطاعات تؤدّونها والطاعة لله ولرسوله ﷺ إيمان. وبالله التوفيق.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي بيّن معصيته وطاعته، فمعصيته الظهار، وطاعته الكفارة. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ أي لمن لم يصدّق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها. والمحادة المعاداة والمخالفة في الحدود؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١٣]. وقيل: ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾ أي أولياء الله كما في الخبر:

[٥٨٤٤] «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة». وقال الزجاج: المحادّة أن تكون في حدّ يخالف حدّ صاحبك. وأصلها الممانعة؛ ومنه الحديد، ومنه الحدّاد للبوّاب. ﴿كُبِتُوا﴾ قال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا. وقال قتادة: اخْزُوا كما أُخْزِي الذين من قبلهم. وقال ابن زيد: عذبوا. وقال السدي: لعنوا. وقال الفراء: غيظوا يوم الخندق. وقيل: يوم بدر. والمراد المشركون. وقيل: المنافقون. ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. وقيل: «كُبِتُوا» أي سيكبتون، وهو بشارة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر، وأخرج الكلام بلفظ الماضي تقريباً للمخبر عنه. وقيل: هي بلغة مَذْحج[1]. ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فيمن حادّ الله ورسوله من الذين قبلهم فيما فعلنا بهم. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

[٥٨٤٤] أخرجه البخاري وغيره وتقدم.

(١) مذحج كمسجد: أبو قبيلة باليمن.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب بـ «عَذَابٌ مُهِينٌ» أو بفعل مضمر تقديره وٱذكر تعظيماً لليوم. ﴿ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم في حالة واحدة ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ أي يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ في الدنيا ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ عليهم في صحائف أعمالهم ﴿وَنَسُوهُ﴾ هم حتى ذكرهم به في صحائفهم ليكون أبلغ في الحجة عليهم. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾ مطّلع وناظر لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ فلا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية. ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ﴾ قراءة العامة بالياء؛ لأجل الحائل بينهما. وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع والأعرج وأبو حَيْوة وعيسى «مَا تَكُونُ» بالتاء لتأنيث الفعل. والنَّجوى: السِّرَار؛ وهو مصدر والمصدر قد يوصف به؛ يقال: قوم نجوى أي ذوو نجوى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿ ثَلَٰثَةٍ ﴾ خفض بإضافة «نَجْوَى» إليها. قال الفرّاء: «ثَلاَثَةٍ» نعت للنجوى فٱنخفضت وإن شئت أضفت «نَجْوَى» إليها. ولو نصبت على إضمار فعل جاز؛ وهي قراءة ٱبن أبي عبلة «ثَلاَثَةً» و «خَمْسَةً» بالنصب على الحال بإضمار يتناجون؛ لأن نجوى يدل عليه؛ قاله الزمخشري. ويجوز رفع «ثلاثة» على البدل من موضع «نَجْوَى». ثم قيل: كل سِرَار نجوى. وقيل: النجوى ما يكون من خلوة ثلاثة يسرون شيئاً ويتناجون به. والسرار ما كان بين ٱثنين. ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ يعلم ويسمع نجواهم؛ يدل عليه ٱفتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم. وقيل: النجوى من النَّجْوة وهي ما ٱرتفع من الأرض، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به، والمعنى: أنّ سَمْع الله محيط بكل كلام، وقد سمع الله مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها. ﴿ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ ﴾ قرأ سلاّم ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع على موضع ﴿ مِن نَّجْوَىٰ ﴾ قبل دخول «مِنْ» لأن تقديره ما يكون نجوى، و ﴿ ثَلَٰثَةٍ ﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً على محل «لاَ» مع «أَدْنَى» كقولك: لا حولَ ولا قوّةٌ إلا بالله بفتح الحول ورفع القوّة. ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء؛ كقولك لا حولٌ ولا قوّة إلا بالله. وقد مضى في «البقرة» بيان هذا مستوفىً. وقرأ الزهري وعكرمة «أكبر» بالباء. والعامة بالثاء وفتح الراء على اللفظ وموضعها جر. وقال الفرّاء في قوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ

سَادِسُهُمْ﴾ قال: المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود لأنه تعالى إنما قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قلّ أو كثر، يعلم ما يقولون سرًّا وجهراً ولا تخفى عليه خافية؛ فمن أجل ذلك ٱكتفى بذكر بعض العدد دون بعض. وقيل: معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا ٱنتقال. ونزل ذلك في قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئاً سرًّا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك؛ قاله ٱبن عباس. وقال قتادة ومجاهد: نزلت في اليهود. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ من حسَن وسيّىء ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٨﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ قيل: إن هذا في اليهود والمنافقين حسب ما قدمناه. وقيل: في المسلمين. قال ٱبن عباس[1]: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فيقول المؤمنون: لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة، ويسوءهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النبيّ ﷺ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت. وقال مقاتل: كان بين النبيّ ﷺ وبين اليهود موادعة، فإذا مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرًّا، فيعرج عن طريقه، فنهاهم رسول الله ﷺ فلم ينتهوا فنزلت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يأتي النبيّ ﷺ فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهمٍّ فيفزعون لذلك فنزلت[2].

الثانية: روى أبو سعيد الخدري قال:

[٥٨٤٥] كنا ذات ليلة نتحدّث إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه النجوى

[٥٨٤٥] أخرجه أحمد ٣/ ٣٠ من حديث أبي‌سعيد، وفيه كثير بن زيد غير قوي وشيخه ربيح بن عبد الرحمن قال أحمد: ليس بمعروف وقال البخاري: منكر الحديث. ولذا ضعفه الحافظ ابن كثير ٤/ ٣٤٣ بقوله: غريب وفيه بعض الضعفاء.

---

(١) راجع أسباب النزول للواحدي ٧٩٢.

(٢) أسنده الطبري ٣٣٧٧١ عن ابن زيد. وهو عبد الرحمن ضعفه أحمد ويحيىٰ.

ألم تُنهوا عن النجوى» فقلنا: تبنا إلى الله يا رسول الله؛ إنا كنا في ذكر المسيخ ـ يعني الدجال ـ فرقاً منه. فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه» قلنا: بلى يا رسول الله؛ قال: «الشرك الخفيّ أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل» ذكره الماوردي. وقرأ حمزة وخلف ورُوَيس عن يعقوب «وَيَنْتَجُونَ» في وزن يفتعلون وهي قراءة عبد الله وأصحابه. وقرأ الباقون «وَيَتَنَاجَوْنَ» في وزن يتفاعلون، وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ و ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ﴾. النحاس: وحكى سيبويه أن تفاعلوا وٱفتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو تخاصموا وٱختصموا، وتقاتلوا وٱقتتلوا فعلى هذا «يَتَنَاجَوْنَ» و «يَنتجُون» واحد. ومعنى ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ أي الكذب والظلم. ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي مخالفته. وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد «وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُول» بالجمع.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ لا خلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود؛ كانوا يأتون النبيّ ﷺ فيقولون: السام عليك. يريدون بذلك السلام ظاهراً وهم يعنون الموت باطناً، فيقول النبيّ ﷺ: «عليكم» في رواية، وفي رواية أخرى «وعليكم». قال ٱبن العربي: وهي مشكلة. وكانوا يقولون: لو كان محمد نبيّاً لما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليم لا يعاجل من سبّه، فكيف من سبّ نبيه. وقد ثبت أن النبيّ ﷺ قال:

[٥٨٤٦] «لا أحدَ أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم» فأنزل الله تعالى هذا كشفاً لسرائرهم، وفضحاً لبواطنهم، معجزةً لرسوله ﷺ. وقد ثبت عن قتادة عن أنس:

[٥٨٤٧] أن يهوديًا أتى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه فقال: السام عليكم. فرد عليه النبيّ ﷺ وقال: «أتدرون ما قال هذا» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال كذا ردوه عليّ» فردوه؛ قال: «قلت السام عليكم» قال: نعم. فقال النبيّ ﷺ عند ذلك: «إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت» فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

قلت: خرجه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح. وثبت عن عائشة أنها قالت:

[٥٨٤٨] جاء أناس من اليهود إلى النبيّ ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم.

[٥٨٤٦] مضى برقم: ٧/ ١٩٩.

[٥٨٤٧] جيد. أخرجه الترمذي ٣٣٠١ والواحدي ٧٩٤ والطبري ٣٣٧٦٨ من حديث أنسَ وقال الترمذي: حسن صحيح وهو كما قال رجاله ثقات معروفون وأصله في الصحيحين ويأتي.

[٥٨٤٨] صحيح. أخرجه البخاري ٦٩٢٧ ومسلم ٢١٦٥ والترمذي ٥٩٢ وابن ماجه ٣٦٩٨ والواحدي ٧٩٣ من=

فقلت: السام عليكم وفعل الله بكم وفعل. فقال عليه السلام: «مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفُحْش ولا التّفحُش» فقلت: يا رسول الله ألست ترى ما يقولون؟! فقال: «ألستِ ترين أرد عليهم ما يقولون أقول وعليكم» فنزلت هذه الآية ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي إن الله سلّم عليك وهم يقولون السام عليك، والسام الموت. خرجه البخاري ومسلم بمعناه. وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

[٥٨٤٩] قال النبيّ ﷺ: «إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم» كذا الرواية «وعليكم» بالواو وتكلم عليها العلماء؛ لأن الواو العاطفة يقتضي التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيما دعوا به لنا من الموت، أو من سآمة ديننا وهو الملال. يقال: سئم يسأم سآمةً وسآماً. فقال بعضهم: الواو زائدة كما زيدت في قول الشاعر:

* فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى *

أي لما أجزنا ٱنتحى فزاد الواو. وقال بعضهم: هي للاستئناف، كأنه قال: والسام عليكم. وقال بعضهم: هي على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك؛ لأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا؛ كما قال النبيّ ﷺ. روى [أبو][1] الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول:

[٥٨٥٠] سلّم ناس من يهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال: «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «بلى قد سمعت فرددت عليهم وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا» خرجه مسلم. ورواية الواو أحسن معنىً، وإثباتها أصح روايةً وأشهر.

وقد ٱختلف في رد السلام على أهل الذمة هل هو واجب كالرد على المسلمين، وإليه ذهب ٱبن عباس والشّعبي وقتادة؛ للأمر بذلك. وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وٱبن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليك. وقد ٱختار ٱبن طاوس أن يقول في الرد عليهم: علاك السلام أي ٱرتفع عنك. وٱختار بعض أصحابنا: السِّلام بكسر السين يعني الحجارة. وما قاله مالك أولى ٱتباعاً للسنة؛ والله أعلم. وروى مسروق عن عائشة قالت:

= حديث عائشة بألفاظ متقاربة.

[٥٨٤٩] صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٥٨ و ٦٩٢٦ ومسلم ٢١٦٣ والطيالسي ١/ ٣٦٢ برقم ١٨٦٨ وأبو داود ٥٢٠٧ والترمذي ٣٢٩٦ وأحمد ٣/٤٩٩ وأبو يعلى ٢٩١٦ من حديث أنس. وانظر ما قاله الحافظ في الفتح ١١/ ٤٣ ـ ٤٤ في لفظ «وعليكم».

[٥٨٥٠] صحيح. أخرجه مسلم ٢١٦٦ من حديث جابر.

---

(١) سقط من الأصل والاستدراك عن صحيح مسلم.

[٥٨٥١] أتى النّبي ﷺ ناس من اليهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم؛ قال: «وعليكم» قالت عائشة: قلت بل عليك السَّامُ والذَّامُ. فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لا تكوني فاحشة» فقالت: ما سمعت ما قالوا! فقال: «أو ليس قد رددتُ عليهم الذي قالوا قلتُ وعليكم». وفي رواية قال: ففطنت بهم عائشة فسبتّهم، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفحش والتفحش» وزاد فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية. الذام بتخفيف الميم هو العيب؛ وفي المثل (لا تَعْدَم الحسناءُ ذاماً) أي عيباً، ويهمز ولا يهمز؛ يقال: ذَأَمَهُ يَذْأمه، مثل ذأب يذأب، والمفعول مذؤوم مهموزاً، ومنه ﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾ [الأعراف: ١٨] ويقال: ذامَهُ يَذُومُه مخفّفاً كرامه يرومه.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ قالوا: لو كان محمد نبيًّا لعذّبنا الله بما نقول فهلاّ يعذبنا الله. وقيل: قالوا إنه يردّ علينا ويقول وعليكم السام والسام الموت، فلو كان نبيًّا لاستجيب له فينا ومتنا. وهذا موضع تعجُّب منهم؛ فإنهم كانوا أهل كتاب، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يغْضَبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب. ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي كافيهم جهنم عقاباً غداً ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨﴾ أي المرجع.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ نهى المؤمنين أي يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ أي تساررتم. ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾ هذه قراءة العامة. وقرأ يحيى بن وثّاب وعاصم ورويس عن يعقوب «فلا تَنْتجُوا» من الانتجاء ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ﴾ أي بالطاعة ﴿وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه. وقيل: الخطاب للمنافقين؛ أي يا أيها الذين آمنوا بزعمهم. وقيل: أي يا أيها الذين آمنوا بموسى. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾ أي تجمعون في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي من تزيين الشياطين ﴿لِيَحۡزُنَ

[٥٨٥١] صحيح. أخرجه مسلم ٢١٦٥ ح ١١ من حديث عائشة. وتقدم برقم ٥٨٤٨.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا في السرايا، أو إذا أجروا اجتماعهم على مكايدة المسلمين، وربما كانوا يناجون النبيّ ﷺ فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبيّ ﷺ ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ﴾ أي التناجي ﴿شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بمشيئته وقيل: بعلمه. وعن ابن عباس: بأمره. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ أي يكِلون أمرهم إليه، ويفوّضون جميع شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر؛ فهو الذي سلّط الشيطان بالوساوس ابتلاءً للعبد وامتحاناً ولو شاء لصرفه عنه.

الثانية: في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

[٥٨٥٢] «إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الواحد». وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

[٥٨٥٣] «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه» فبيّن في هذا الحديث غاية المنع وهي أن يجد الثالث من يتحدّث معه كما فعل ابن عمر؛ وذلك أنه كان يتحدّث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعاً، فقال له وللأوّل: تأخرا وناجي الرجل الطالب للمناجاة. خرجه الموطأ. وفيه أيضاً التنبيه على التعليل بقوله: «من أجل أن يحزنه» أي يقع في نفسه ما يحزن لأجله. وذلك بأن يقدّر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلاً ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من أُلْقِيات الشيطان وأحاديث النفس. وحصل ذلك كله من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره أَمِن ذلك؛ وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحدٍ ولا عشرة ولا ألف مثلاً؛ لوجود ذلك المعنى في حقه؛ بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى. وإنما خص الثلاثة بالذكر؛ لأنه أوّل عددٍ يتأتى ذلك المعنى فيه. وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور. وسواء أكان التناجي في مندوبٍ أو مباح أو واجب فإنّ الحزن يقع به. وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان في أوّل الإسلام؛ لأن ذلك كان في حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين، فلما فشا الإسلام سقط ذلك. وقال بعضهم: ذلك خاص بالسفر في المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبه، فأما في الحضر وبين العمارة فلا؛ فإنه يجد من يعينه، بخلافِ السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث. والله أعلم.

[٥٨٥٢] صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٨٨ ومسلم ٢١٨٣ ومالك ٢/ ٩٨٨ والحميدي ٦٤٥ وابن أبي شيبة ٨/ ٥٨١ وأحمد ٢/ ٤٥ وابن ماجه ٣٧٧٦ وابن حبان ٥٨٠ من حديث ابن عمر.

[٥٨٥٣] صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٩٠ ومسلم ٢١٨٤ والحميدي ١٠٩ وأحمد ١/ ٣٧٥ وأبو داود ٤٨٥١ والترمذي ٢٨٢٥ وابن ماجه ٣٧٧٥ والدارمي ٢/ ٢٨٢ وابن حبان ٥٨٣ من حديث ابن مسعود.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾ لما بيّن أن اليهود يحيّونه بما لم يحيِّه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله ﷺ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعضٍ، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله ﷺ والنظر إليه. قال قتادة ومجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبيّ ﷺ، فأمِروا أن يفسح بعضهم لبعض. وقاله الضحاك. وقال ٱبن عباس: المراد بذلك مجالس القتال إذا ٱصطفوا للحرب. قال الحسن وزيد بن أبي حبيب: كان النبيّ ﷺ إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأوّل فلا يوسع بعضهم لبعض؛ رغبةً في القتال والشهادة فنزلت. فيكون كقوله: ﴿ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ ﴾ [آل عمران: ١٢١]. وقال مقاتل: كان النبيّ ﷺ في الصُّفَّة، وكان في المكان ضيق يوم الجمعة، وكان النبيّ ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار؛ فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس وقد سُبِقوا في المجلس، فقاموا حيال النبيّ ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم، فشقّ ذلك على النبيّ ﷺ، فقال لمن حوله من غير أهل بدر: «قم يا فلان وأنت يا فلان» بعدد القائمين من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم، وعرف النبيّ ﷺ الكراهية في وجوههم، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا: ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيّهم فسَبقوا إلى المكان؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية[1]. ﴿تَفَسَّحُواْ﴾ أي توسعوا. وفَسَحَ فلان لأخيه في مجلسه يَفْسَح فَسْحاً أي وسع له؛ ومنه قولهم: بلد فَسِيح ولك في كذا فُسْحة، وفَسَح يَفْسَح مثل منع يَمْنَع، أي وسّع في المجلس؛ وفَسُح يَفْسُح فَسَاحةً مثل كَرُم يَكْرُمُ كرامةً أي صار واسعاً؛ ومنه مكان فسيح.

الثانية: قرأ السُّلَمي وزِرّ بن حُبَيش وعاصم «فِي الْمَجالِسِ». وقرأ قتادة وداود بن أبي هند والحسن بآختلاف عنه «إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَاسَحُوا» الباقون «تَفَسَّحُوا في الْمَجْلِسِ» فمن جمع فلأن قوله: ﴿ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾ ينبيء أن لكل واحد مجلساً. وكذلك إن أريد به الحرب. وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبيّ ﷺ وجمع لأن لكل جالس مجلساً.

---

(١) ذكره الواحدي ٧٩٥ عن مقاتل بدون إسناد ومع ذلك هو معضل.

وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبيّ ﷺ، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس؛ كقولهم: كثر الدينار والدرهم.

قلت: الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حربٍ أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة؛ فإن كل واحد أحقّ بمكانه الذي سبق إليه قال ﷺ:

[٥٨٥٤] «من سَبق إلى ما لم[1] يُسبق إليه فهو أحّق بـه» ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذّ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه. روى البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٨٥٥] «لا يُقِيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه». وعنه عن النبيّ ﷺ.

[٥٨٥٦] أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا. وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه. لفظ البخاري.

الثالثة: إذا قعد واحد من الناس في موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعد مكانه؛ لما روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبيّ ﷺ قال:

[٥٨٥٧] «لا يقيمنّ أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا».

فرع: القاعد في المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه نُظِر؛ فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأوّل في سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك؛ لأن فيه تفويت حظّه.

[٥٨٥٤] أخرجه أبو داود ٣٠٧١ من حديث أسمر بن مضرس، وصححه الضياء في المختارة كما نقل الحافظ في التلخيص ٣/ ٦٣ وضعفه الأرناؤط في جامع الأصول ٨١٥٩ وهو الأقرب فإن فيه عقيلة بنت أسمر لايعرف حالها كما في التقريب. وعنها سويدة بنت جابر لاتعرف أيضا.

[٥٨٥٥] صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٦٩ ومسلم ٢١٧٧ من حديث ابن عمر وانظر ما بعده.

[٥٨٥٦] صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٧٠ ومسلم ٢١٧٧ والشافعي ١/ ١٥٨ وأحمد ٢/ ١٧ وعبد الرزاق ١٩٨٠٦ وابن أبي شيبة ٨/ ٥٨٤ وأبو داود ٤٨٢٨ والترمذي ٢٧٤٩ والحميدي ٦٦٤ وعبد الرزاق ١٩٧٩٣ وابن حبان ٥٨٦ من حديث ابن عمر.

[٥٨٥٧] صحيح. أخرجه الشافعي ١/ ١٥٩ ومسلم ٢١٧٨ والبيهقي ٣/ ٢٣٣ من حديث جابر.

---

(١) لفظ أبي داود «ماء لم يسبق...» ووقع في التلخيص «ما لم» بمثل رواية القرطبي رحمه الله. وعلىٰ هذا فالاستدلال يكون بعموم اللفظ. والله أعلم.

الرابعة: إذا أمر إنسان إنساناً أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع؛ لما روي: أن ٱبن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس له في يوم الجمعة فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه.

فرع: وعلى هذا من أرسل بساطاً أو سجادةً فتُبسط له في موضع من المسجد.

الخامسة: روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

[٥٨٥٨] «إذا قام أحدكم ـ وفي حديث أبي عوانة من قام من مجلسه ـ ثم رجع إليه فهو أحق به» قال علماؤنا: هذا يدل على صحة القول بوجوب ٱختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأحرى. وقد قيل: إن ذلك على الندب؛ لأنه موضع غير متملَّك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده. وهذا فيه نظر؛ وهو أن يقال: سلمنا أنه غير متملك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منه، فصار كأنه يملك منفعته؛ إذ قد منع غيره من يزاحمه عليه. والله أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي في قبوركم. وقيل: في قلوبكم. وقيل: يوسّع عليكم في الدنيا والآخرة. ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ قرأ نافع وٱبن عامر وعاصم بضم الشين فيهما. وكسر الباقون، وهما لغتان مثل ﴿يَعْكُفُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] و ﴿يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧] والمعنى ٱنهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير؛ قاله أكثر المفسرين. وقال مجاهد والضحاك: إذا نودي للصلاة فقوموا إليها. وذلك أن رجالاً تثاقلوا عن الصلاة فنزلت. وقال الحسن ومجاهد أيضاً: أي ٱنهضوا إلى الحرب. وقال ٱبن زيد: هذا في بيت النبيّ ﷺ، كان كل رجل منهم يحبّ أن يكون آخر عهده بالنبيّ ﷺ فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ عن النبيّ ﷺ ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ فإنه له حوائج فلا تمكثوا. وقال قتادة: المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف. وهذا هو الصحيح؛ لأنه يعم. والنشز الارتفاع، مأخوذ من نشز الأرض وهو ٱرتفاعها؛ يقال نَشَزَ يَنشُز ويَنْشِز إذا ٱنتحى من موضعه؛ أي ٱرتفع منه. وٱمرأة ناشز منتحية عن زوجها. وأصل هذا من النَّشَز، والنَّشز هو ما ارتفع من الأرض وتنحى؛ ذكره النحاس.

السابعة: قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أي في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم. وقال ٱبن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية. والمعنى أنه يرفع

[٥٨٥٨] صحيح. أخرجه مسلم ٢١٧٩ وأبو داود ٤٨٥٣ وأحمد ٢/ ٢٨٣ وعبد الرزاق ١٩٧٩٢ وابن ماجه ٣٧٣٧ والدارمي ٢/ ٢٨٢ وابن حبان ٥٨٨ من حديث أبي هريرة.

الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم «دَرَجاتٍ» أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أُمِروا به. وقيل: كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيسْتَبِقون إلى مجلس النبيّ ﷺ فالخطاب لهم. ورأى عليه الصلاة والسلام رجلاً من الأغنياء يقبض ثوبه نفوراً من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال:

[٥٨٥٩] «يا فلان خشيتَ أن يتعدّى غناكَ إليه أو فقره إليك» وبين في هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس. وقيل: أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرؤوا القرآن. وقال يحيى بن يحيى عن مالك: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ الصحابة ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ يرفع الله بها العالم والطالب للحق.

قلت: والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية؛ فيرفع المؤمن بإيمانه أولاً ثم بعلمه ثانياً. وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدّم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ①﴾ [النصر: ١] فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله إياه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم. وفي البخاري عن عبد الله بن عباس قال: قدم عُيَينة بن حصن بن حذيفة بن بدرٍ فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كُهولاً كانوا أو شباناً. الحديثَ وقد مضى في آخر «الأعراف». وفي صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحرث لقي عمر بُعسْفَان وكان عمر يستعمله على مكة فقال: من استعملته على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. فقال: ومن ابن أبزى؟ قال: مَوْلىً من موالينا. قال: فاستخلفتَ عليهم مولىً! قال: إنه قارىء لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض. قال عمر:

[٥٨٦٠] أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» وقد مضى أول الكتاب. ومضى القول في فضل العلم والعلماء في غير موضع من هذا الكتاب والحمد لله. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٥٨٦١] «بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حَضْر الجواد المُضَمَّر سبعين سنة». وعنه ﷺ:

[٥٨٥٩] لم أجده.

[٥٨٦٠] تقدم في ٦/١.

[٥٨٦١] ضعيف. ذكره الغزالي في الإحياء ٧/١ فقال العراقي: أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

[٥٨٦٢] «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». وعنه عليه الصلاة والسلام:

[٥٨٦٣] «يشفع يوم القيامة ثلاثةٌ الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ. وعن ابن عباس: خُيِّر سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾.
فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ «ناجيتم» ساررتم. قال ابن عباس: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقّوا عليه؛ فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيّه ﷺ، فلما قال ذلك كفّ كثير من الناس. ثم وسّع الله عليهم بالآية التي بعدها. وقال الحسن: نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون النبيّ ﷺ ويناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى، فشقّ عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه. وقال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيّ ﷺ ويقولون: إنه أُذن يسمع كل ما قيل له، وكان لا يمنع أحداً مناجاته. فكان ذلك يشقّ على المسلمين؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجَوْه بأن جموعاً اجتمعت لقتاله. قال: فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ الآية، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية، فانتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صدقة، وشقّ ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا من النجوى؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية.

الثانية: قال ابن العربي: وفي هذا الخبر عن زيد ما يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح، فإن الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ ثم نسخه مع كونه خيراً وأطهر. وهذا رَدٌّ على المعتزلة عظيم في التزام المصالح، لكن راوي الحديث عن زيد

[٥٨٦٢] مضى برقم ٨/ ٢٩٦.

[٥٨٦٣] أخرجه ابن ماجه ٤٣١٣ والديلمي ٨٩٤٦ من حديث عثمان بن عفان وإسناده ضعيف لأجل عنبسة بن عبد الرحمن. قال الحافظ في تخريج الكشاف ٤/ ٤٩٣: متروك. وقال العراقي في الإحياء ١/ ٦: إسناده ضعيف.

أبنه عبد الرحمن وقد ضعفه العلماء. والأمر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ نص متواتر في الرد على المعتزلة. والله أعلم.

الثالثة: روى الترمذي عن عليّ بن علقمة الأنماري عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال:

[٥٨٦٤] لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ سألته قال لي النبيّ ﷺ: «ما ترى ديناراً»؟ قلت لا يطيقونه. قال: «فنصف دينار» قلت: لا يطيقونه. قال: «فكم» قلت: شعيرة. قال: «إنك لزهيد» قال فنزلت: «أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ» الآية. قال: فَبِي خفّف الله عن هذه الأمة. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، ومعنى قوله: شعيرة يعني وزن شعيرة من ذهب. قال أبن العربي: وهذا يدل على مسألتين حسنتين أصوليتين: الأولى ـ نسخ العبادة قبل فعلها. والثانية ـ النظر في المقدّرات بالقياس؛ خلافاً لأبي حنيفة.

قلت: الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة. وقد روي عن مجاهد: أن أوّل من تصدّق في ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وناجى النبيّ ﷺ. روي أنه تصدّق بخاتم. وذكر القشيري وغيره عن عليّ بن أبي طالب أنه قال:

[٥٨٦٥] «في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي، وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ كان لي دينار فبعته، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدّقت بدرهم حتى نفد؛ فنسخت بالآية الأخرى ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾. وكذلك قال أبن عباس: نسخها الله بالآية التي بعدها. وقال أبن عمر: لقد كانت لعليّ رضي الله عنه ثلاثة لو كانت لي واحدة منهن كانت أحبّ إليّ من حُمُر النَّعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي من إمساكها ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم من المعاصي ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ﴾ يعني الفقراء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

[٥٨٦٤] أخرجه الترمذي ٣٣٠٠ بهذا اللفظ والطبري ٣٣٧٩٦ من حديث علي، وقال الترمذي: حسن غريب اهـ ومداره على علي بن علقمة الأنماري قال البخاري: في حديثه نظر. فالخبر غير قوي وانظر ما بعده.

[٥٨٦٥] أخرجه الحاكم ٢/ ٤٨٢ من حديث مجاهد عن ابن أبي ليلى عن علي به وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي وله علة وهي أن الطبري أخرجه ٣٣٧٩١ عن مجاهد عن علي وهذا منقطع. ولكن له شواهد مرسلة تقويه، والله أعلم راجع الطبري.

قوله تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾ ٱستفهام معناه التقرير. قال ٱبن عباس: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أي أبخلتم بالصدقة؛ وقيل: خفتم، والإشفاق الخوف من المكروه. أي خفتم وبخلتم بالصدقة وشق عليكم ﴿ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍۚ ﴾ . قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ. وقال الكلبي: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. وقال ٱبن عباس: ما بقي إلا ساعة من النهار حتى نسخ. وكذا قال قتادة. والله أعلم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي نسخ الله ذلك الحكم. وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدّق به ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة. وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن عليّ رضي الله عنه ضعيف؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ ﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدّق بشيء. والله أعلم. ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في فرائضه ﴿ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في سننه ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ قال قتادة: هم المنافقون تولّوا اليهود ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ يقول: ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم. قال السّدي[1] ومقاتل: نزلت في عبد الله بن أبيّ وعبد الله بن نَبْتَل المنافقَيْن؛ كانْ أحدهما يجالس النبيّ ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا النبيّ ﷺ في حجرة من حجراته إذ قال: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان» فدخل عبد الله بن نبتل ـ وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية ـ فقال عليه الصلاة والسلام: «علام تشتمني أنت وأصحابك» فحلف بالله ما فعل ذلك. فقال له النبيّ ﷺ: «فعلت» فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه؛ فنزلت هذه الآية. وقال معناه ٱبن عباس. روى عِكرمة عنه؛ قال:

[٥٨٦٦] كان النبيّ ﷺ جالساً في ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال:

[٥٨٦٦] أخرجه أحمد ١/ ٢٤٠ والحاكم ٢/ ٤٨٢ والطبري ٣٣٨٠٥ والواحدي ٧٩٩ من حديث ابن عباس =

(١) ذكره الواحدي ٧٩٨ وهذا معضل لكن يشهد له ما بعده.

«يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان» فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق، فدعا به النبيّ ﷺ فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك» قال: دعني أجيئك بهم. فمرّ فجاء بهم فحلفوا جميعاً أنه ما كان من ذلك شيء؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ واليهود مذكورون في القرآن بـ ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء المنافقين ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في جهنم وهو الدرك الأسفل. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي بئس الأعمال أعمالهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ يستجنُّون بها من القتل. وقرأ الحسن وأبو العالية «إِيمَانَهُمْ» بكسر الهمزة هنا وفي «الْمُنَافقون». أي إقرارهم اتخذوه جنة، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل، وكفرت قلوبهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار. والصدّ المنع ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن الإسلام. وقيل: في قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق. وقيل: أي بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم.

قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي من عذابه شيئاً. وقال مقاتل: قال المنافقون إن محمداً يزعم أنه يُنصَر يوم القيامة، لقد شقينا إذاً! فوالله لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة. فنزلت: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ اليوم. وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غداً، وقد صارت المعارف ضرورية. وقال ابن عباس: هو قولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ بإنكارهم وحلفهم. قال ابن زيد: ظنوا أنهم ينفعهم في الآخرة. وقيل: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لأنهم في الآخرة يعلمون الحق باضطرار. والأوّل أظهر. وعن ابن عباس قال النبيّ ﷺ:

[٥٨٦٧] «ينادي منادٍ يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القَدَرية مسودّة وجوههم

= وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو كما قال، وقال صاحب المجمع ٧/ ١٢٢: رجال أحمد رجال الصحيح.

[٥٨٦٧] لم أجده وهو موضوع بلا ريب.

مزرقّة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا وثَناً، ولا ٱتخذنا من دونك إلَهاً». قال ٱبن عباس: صدقوا والله! أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون؛ ثم تلا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ هم والله القَدَرية. ثلاثاً.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي غلب وٱستعلى؛ أي بوسوسته في الدنيا. وقيل: قَوي عليهم. وقال المفضّل: أحاط بهم. ويحتمل رابعاً أي جمعهم وضمهم. يقال: أحوذ الشيء أي جمعه وضم بعضه إلى بعض، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوي عليهم وأحاط بهم. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي أوامره في العمل بطاعته. وقيل: زواجره في النهي عن معصيته. والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك، والوجهان محتمـلان هنـا. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ﴾ طـائفتـه ورهطـه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ في بيعهم؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدي بالضلالة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ تقدم أوّل السورة. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي من جملة الأذلاء لا أذل منهم ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ أي قضى الله ذلك. وقيل: كتب في اللوح المحفوظ؛ عن قتادة. الفراء: كتب بمعنى قال. ﴿أَنَا۠﴾ توكيد ﴿وَرُسُلِىٓ ۚ﴾ من بُعث منهم بالحرب فإنه غالب بالحرب، ومن بُعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة. قال مقاتل قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجَوْنا أن يظهرنا الله على فارس والروم؛ فقال عبد الله بن أُبيّ بن سَلُول: أتظنون الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها؟! والله إنهم لأكثر عدداً، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك؛ فنزلت: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾. نظيره: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٢].

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ أي يحبون ويوالون ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ تقدم ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ قال السدي: نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبيّ، جلس إلى النبيّ ﷺ فشرب النبيّ ﷺ ماء؛ فقال له: بالله يا رسول الله ما أبقيت من شرابك فضلةً أسقيها أبي؛ لعل الله يُطهّر بها قلبه؟ فأفضل له فأتاه بها؛ فقال له عبد الله: ما هذا؟ فقال: هي فضلة من شراب النبيّ ﷺ جئتك بها تشربها لعل الله يطهّر قلبك بها. فقال له أبوه: فهلا جئتني ببول أمك فإنه أطهر منها. فغضب وجاء إلى النبيّ ﷺ، وقال: يا رسول الله! أما أذنت لي في قتل أبي؟ فقال النبيّ ﷺ: «بل ترفق به وتحسن إليه»[1]. وقال ابن جريج: حُدِّثت أن أبا قُحافة سب النبيّ ﷺ فصكّه أبو بكر ابنه صكةً فسقط منها على وجهه، ثم أتى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال: «أو فعلته، لا تعد إليه» فقال: والذي بعثك بالحق نبيّاً لو كان السيف مني قريباً لقتلته[2]. وقال ابن مسعود[3]: نزلت في أبي عبيدة بن الجراح؛ قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد وقيل: يوم بدر. وكان الجراح يتصدّى لأبي عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله؛ فأنزل الله حين قتل أباه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآية. قال الواقدي: كذلك يقول أهل الشام. ولقد سألت رجالاً من بني الحرث بن فهر فقالوا: توفي أبوه من قبل الإسلام. ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ يعني أبا بكر دعى ابنه عبد الله إلى البراز يوم بدر، فقال النبيّ ﷺ:

[٥٨٦٨] «مَتِّعْنَا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة السمع والبصر». ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر. ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وعليّاً وحمزة قتلا عُتبة وشيبة والوليد يوم بدر. وقيل: إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعة، لما كتب إلى

[٥٨٦٨] ذكره الواحدي بإثر حديث ٨٠١ بدون إسناد ومن غير عزوٍ لأحد،وتبعه البغوي في ذلك ٤/ ٢٨٥ فالخبر واهٍ.

---

(١) هذا مرسل ولم أجد من أسنده عن السدي.

(٢) ذكره الواحدي ٨٠٠ عن ابن جريج تعليقاً. وهذا واهٍ ابن جريج مدلس ولم يذكر من حدثه ومع ذلك هو مرسل فهذه أربع علل.

(٣) لا يصح عن ابن مسعود وإنما أخرجه الحاكم ٣/ ٢٦٥ عن عبد الله بن شوذب بسند جيد كما قال الحافظ في الإصابة ٤٤٠٠ لكنه مرسل ابن شوذب تابعي. وقد أنكر الواقدي صحة ذلك كما نقل القرطبي رحمه الله. والله أعلم

أهل مكة بمسير النبيّ ﷺ عام الفتح؛ على ما يأتي بيانه أوّل سورة «الممتحنة» إن شاء الله تعالى. بيّن أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار وإن كانوا أقارب.

الثانية: ٱستدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القَدَرية وترك مجالستهم. قال أشهب عن مالك: لا تجالس القَدَرية وعادِهم في الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

قلت: وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان. وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت في مَن كان يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي داود أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها. وعن النبيّ ﷺ أنه كان يقول:

[٥٨٦٩] «اللّهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾» أي خلق في قلوبهم التصديق؛ يعني من لم يوال من حاد الله. وقيل: كتب أثبت؛ قاله الربيع بن أنس. وقيل: جعل؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣] أي ٱجعلنا. وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقيل: «كَتَبَ» أي جمع، ومنه الكَتيبة؛ أي لم يكونوا ممن نؤمن ببعض ونكفر ببعض. وقراءة العامة بفتح الكاف من «كَتَبَ» ونصب النون من «الإيمان» بمعنى كَتَبَ الله وهو الأجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ وقرأ أبوالعالية وزرّ بن حُبيش والمفضل عن عاصم «كُتِبَ» على ما لم يسمّ فاعله «الإيمَانُ» برفع النون. وقرأ زِرّ بن حُبيش «وَعَشِيرَاتِهِمْ» بألف وكسر التاء على الجمع، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم. وقيل: كَتَبَ «فِي قُلُوبِهِمْ» أي على قلوبهم، كما في قوله ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان. «وَأَيَّدَهُمْ» قوّاهم ونصرهم بروح منه؛ قال الحسن: وبنصر منه. وقال الربيع بن أنس: بالقرآن وحججه. وقال ٱبن جريج: بنور وإيمان وبرهان وهدى. وقيل: برحمة من الله. وقال بعضهم: أيدهم بجبريل عليه السلام. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي قبل أعمالهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قال سعيد بن أبي سعيد الجرجاني عن بعض مشايخه، قال داود عليه السلام: إلٰهي! مَن

[٥٨٦٩] أخرجه الديلمي ٢٠١١ من طريق الحسن عن معاذ مرفوعاً، وهذا منقطع الحسن لم يدرك معاذاً. وأخرجه ابن مردويه كما في الدر ٦/ ٢٧٤ عن كثير بن عطية عن رجل مرفوعاً به وهذا واهٍ لجهالة ذلك الرجل. وقال العراقي: أسانيدهُ كلها ضعيفة. راجع الإحياء ٢/ ١٤٩ و ٤/ ٢٩٨.

حزبك وحول عرشك؟ فأوحى الله إليه: «يا داود الغاضّةُ أبصارهم، النقية قلوبهم، السليمة أكفهم؛ أولئك حزبي وحول عرشي».

ختمت والحمد لله سورة «المجادلة»

تم بعون الله تعالى الجزء السابع عشر من تفسير القرطبي.

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن عشر، وأوّله:

«سورة (الحشر)»

فهرس الجزء السابع عشر

الموضوع | الصفحة

سورة «ق»

سورة الذاريات

سورة الطور

سورة النجم

سورة القمر

سورة الرحمن

سورة الواقعة

سورة الحديد

تفسير سورة المجادلة

